شرح ثلاثة الأصول

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرحها

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان

للنشر والتوزيع

شرح

ثلاثة الأصول

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١ - ٢٠٢٠

دار الفرقان للنشر والتوزيع - ١٤٤١/٢٠٢٠

ردمك : ٩٧٨-٩٩٣١-٦١٦-٥٧-٣

الإيداع القانوني: السداسي الأول، ٢٠٢٠

Dar Al-furquan Edition. 2020

ISBN: 978-9931-616-57-3

Dépôt Légal: 1er semestre. 2020

ISBN 978-9931-616-57-3

دار الفرقان للنشر والتوزيع

جوال: ٠٥٥٦٩٦٥٨١٠ (٠) ٢١٣ ٠٠

dar.alfurquan@gmail.com

شرح
ثلاثة الأصول

تصنيف شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي
المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرحها
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها
أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمَةُ المُعْتَنِي

الحمد لله الذي بِنِعمته اهتدى المهتدون، وبِعَدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى هديه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه تكون الشَّقاوة

والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[١].

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشرك بعلَّام الغيوب جل جلاله، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ»[٢].

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» (ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ..»[٣].

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السنَّة في هذا الموضوع بين مطوِّل ومختِصر، ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك، ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»[(١)].

وقد كتب رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة **(ثلاثة الأصول)**، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[(٢)].

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

المُحَافَظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله

ابو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

مقدمة الشارح

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهدُ أن لا إله إلّا الله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمَّدا عبده ورسوله، صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فبين أيدينا رسالةٌ قيِّمة، ومؤلَّفٌ نافع يحتاج إليه كلُّ مسلم، وهو في بيان الأصول الثّلاثة؛ الّتي هي معرفةُ الله، ومعرفةُ رسوله ﷺ، ومعرفةُ دينِ الله - دينِ الإسلام - بالأدلَّة، وهي الّتي قال ﷺ عنها: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(١)، وهي الّتي ندب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن تُقال كلَّ مرَّة بعد سماع الأذان؛ «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»(٢)، وهي الأصول الّتي يُسألُ عنها الميِّتُ إذا أُدرج في القبر؛ يأتيه الملَكان فيُجلسانه فيقولان: مَن ربُّك؟ ما دينُك؟ مَن نبيُّك؟

فهذه رسالةٌ أفردها الإمامُ شيخ الإسلام محمَّد بنَ عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه مسلم (٣٨٥).

في بيانِ هذه الأصول الثّلاثة، وإيضاحِها بالأدلَّة مِن كتاب الله ﷻ وسنَّة النَّبيّ ﷺ.

وجادَّتُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جادّةُ السَّلف، وطريقتُه طريقتُهم، وليس أحد من السلف أتى النَّاس باعتقادٍ أنشأه واخترعه؛ بل الاعتقادُ عندهم: «قال الله، قال رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ»؛ ولهذا ما يذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته هذه، وفي كتابه «التَّوحيد»، وفي غيرهما مِن كتبه، كلُّ ذلكم مبنيٌّ على الدَّلائل البيِّنات، والحُجج الواضحات، والبراهين السّاطعات مِن كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة نبيه صلواتُ الله وسلامُه عليه.

وسنرى في هذا الكتاب القيِّم حُسْنَ الاستدلّال بكتابِ الله جَلَّ وَعَلَا وسُنَّةِ النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وحُسنَ التَّعويل عليهما والرّدّ إليهما في سائر أمور الدّين؛ ولهذا فإنَّ هذا الكتاب ينبغي أن يحرصَ عليه كلُّ مسلم، مع نفسه أولًا، قراءةً له، وفهمًا لمضامينه، وتحقيقًا لغاياته ومقاصده، وأن يسعى بعد ذلك جاهدًامع أهله وولده وقرابته نشرًا لهذا الخير وبيانًا لهذه الأصول العظيمة،الّتي ستُسأل عنها أنت، وسيُسأل عنها ولدك، وستُسأل عنها أمُّك، وسيُسأل عنها أخوك وقريبك، كلٌّ سيُسأل عنها إذا أُدرج في القبر؛ فما أحرانا أن نتكاتف وأن نتعاون لنشرِ هذه الأصول العظيمة، وتلقينِها للنَّاس وتعليمِهم إيَّاها، نصحًا لدين الله جَلَّ وَعَلَا ولعباده!

وقد كان أهل العلم وأئمَّة المساجد يعتنون كثيرًا ببيان هذه الأصول،

ويجتهدون في تحفيظها للصِّغار والكبار، بحيث تكون أصولًا محفوظة مضبوطةً مفهومةً لدى النَّاس، وأن يكونوا كذلك محقِّقين لها، وقد قال الشَّيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ - يعني شيخ الإسلام - يُلقِّن الطَّلبةَ والعامَّة هذه الأصولَ ليَدْرسوها ويحفظوها ولِتستقرَّ في قلوبهم؛ لكونها قاعدة في العقيدة»(١)؛ فهذه الأصول الثّلاثة هي في الحقيقة قاعدةُ الإيمان وأساسُ الملّة وركيزةُ الدّين الّتي عليها يُبنى، وهي أساسُ الفلاح والسَّعادة في الدّنيا والآخرة، فلا تُنالُ سعادةٌ ولا تكون نجاةٌ إلَّا بتحقيق هذه الأصول العظيمة، وقد كان الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناصحًا للنَّاس نصحًا عظيمًا بإفراده هذه الأصول الثّلاثة بالبيان والإيضاح وجمع الدَّلائل عليها مِن كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ؛ لتكون سهلة التَّناول، قريبة المأخذ، واضحةً، مقرّرةً بأدلَّتها وحُججها مِن كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، فهذا كلُّه مِن نُصح هذا الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعباد الله.

وهذه الرِّسالة قد اعتنى بها أهل العلم كثيرًا، واجتهدوا في شرحها، وبيان مقاصدها، وتسهيلها للطَّلبة والعامَّة، وكتبوا فيها رسائلَ عديدة، كما أنّهم اعتنوا عنايةً كبيرة بتحفيظها للنَّاشئة ولعامَّة المسلمين.

وقد كان إمامُ المسجد في بعض الأوقات يسأل المصلِّين عنده عن هذه الأصول، وكان العوام يعرفون هذه الأصول بـ«الدّين»؛ يقول بعضهم

(١) «شَرْح ثلاثَة الأصول» (ص٥).

لبعض: «أقرأ علينا الدّين»، أو «سمِّعنا الدّين»؛ فيقرؤون هذه الأصول الثّلاثة.

ولقد حفظها عددٌ كبير مِن هؤلاء في صغره، لُقِّنت له وهو صغير، وكانت معه ثابتةً في الكبر، وفي هرمه وشيخوخته، حتّى إنَّ بعض العوام نُقل أن خَرَفه كان في كبره في الأصول؛ يخرِف ويتكلَّم فلا يأتي على لسانه إلّا هذه الأصول الثّلاثة، وكان بعضهم أيضًا في شهوره الأخيرة ولحظاته الأخيرة تأتي على لسانه وهو قد حفظها صبيًّا يافعًا؛ وأذكر مِن ذلك على سبيل المثال: أنَّ جدِّي رحمه الله تعالى -الشَّيخ حَمَد- وقد تُوفِّي عن عمرٍ يبلغ المئة، فأذكر قبل وفاته بأشهر كنت جالسًا عنده فقال لي: «الطَّواغيت كثيرون -لا كثَّرهم الله- ورؤوسهم خمسة؛ أوَّلهم: إبليس عليه لعنة الله» وأخذ يعدِّد الطَّواغيت، قال: «الخامس نسيته، ذكِّرني الخامس - هذا قبل وفاته بأشهر - قلت له: مَن عُبد مِن دون الله وهو راضٍ، قال: إيه! هذا طاغوت مدلدل» باللّغة العامِّيّة، والشَّيء المدلدل: يعني المكشوف الواضح.

فكان النَّاس يعتنون جدًّا بهذه الأصول، ولهذا يُؤسَف جدًّا لحال كثيرٍ مِن العوام أنَّه يكبر ويكبر ويُقارب أن يفارقُ هذه الحياة وهو لا يدري ما هي الأصول ولم يعتنِ بها! لأنَّه لم يجد في مجتمعه وفي معلِّميه مَن يلقِّنه هذه الأصول؛ ولهذا تتأكَّد المسؤوليَّة على طلَّاب العلم وحملَة الدَّعوة

وأنصار الدّين أن ينصحوا لعباد الله تبارك وتعالى، ولاسيَّما في هذه الأصول الثّلاثة المباركة العظيمة الّتي جمعها الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الرِّسالة القيِّمة.

وأيضًا - أيُّها الإخوة - أقول: إنَّ نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا جميعًا عظيمة؛ ومنها أنْ وفقنا ويسَّر لنا هذه المدارسة لنشرع في مذاكرة هذه الأصول، فاللّهم وفِّقنا، واكتبها في صالح أعمالنا، وارزقنا فيها علمًا نافعًا تهدينا به لكلِّ خير، وأن تصلح لنا شأننا كلَّه.

ونبدأ مستعينين بالله، ذاكرين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متوكِّلين عليه، باسم الله ما شاء الله، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

قال الإمام الأوَّاب - شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقدَّس روحه وغفر له وللشَّارح والقارئين - في كتابه «ثلاثة الأصول»:

« بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ اعلمْ - رحمكَ اللهُ - أنَّهُ يجبُ علينَا تعَلُّمُ أربعِ مسائلَ؛ الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلَّة. الثانيةُ: العملُ بهِ. الثالثةُ: الدعوةُ إليهِ. الرابعةُ: الصبرُ علَى الأذى فيهِ. والدَّليل قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [سورة العصر]. قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ تعالَى: «لوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ». وقال البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بابُ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ، والدَّليل قولُه تعالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمَّد]؛ فبدأَ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ».

الشرح:

بدأ المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ « بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ »؛ وهذه الكلمةُ كلمةُ استعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، وطلبُ عونٍ منه جَلَّ وَعَلَا، يُشرعُ للمسلم أن يأتيَ بها عند بدأ أعماله، أكلًا كان أو شربًا أو دخولًا أو كتابةً أو قراءةً أو نحو ذلك، تيمُّنًا بذكر اسم الله جَلَّ وَعَلَا وطلبًا لمَدِّه وعونه وتوفيقه.

وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صنيعه هذا مؤتسٍ بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا؛ حيث بُدأت سُوَرُه بالبسملّة، وتأسِّيا بالنَّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في مكاتباته ورسائله، فكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يبدأ ذلك

بالبسملّة، وهي - كما قدَّمت - كلمةُ استعانة.

والجارُّ والمجرور في قولـه: «بسم الله» متعلّق بفعلٍ محذوف تقديره: أكتب، أي: باسم الله أكتب، ويحسُن أنْ يكونَ تقديره متأخِّرًا؛ لأنَّ تقديمَ المعمول على العامل يُفيد الحصر، أي: به، لا بأحدٍ سواه جَلَّ وَعَلَا، والباء في «بسم الله»هي باء الاستعانة؛ أي: أكتب مستمدًّا عوني فيما أكتبُه مِن الله تبارك وتعالى، وأنا في ذلك متيمِّنٌ بذكر اسمه جلَّ وعزّ.

و«الله»: هو اسمٌ لله جَلَّ وَعَلَا، لا يُطلَق إلَّا عليه، وهو دالٌ على ألوهيَّته، وجلاله، وكماله، وعظمته، وأنَّه تبارك وتعالى مستحقٌّ للعبادة دون سواه، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الله: ذو الألوهيَّة والعبوديَّة على خلقه أجمعين»[(١)]؛ فأشار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيانه لمعنى هذا الاسم إلى جانبين يدلّ عليهما:

- الأوّل: ألوهيّة الله؛ وهي كمالُه، وجلالُه، وكبرياؤه، وعظمته، واتِّصافه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وأنَّه سبحانه له الأسماء الحسنى.
- والجانب الآخر: العبوديّة؛ الّتي هي فعل العبد، وهي مِن مقتضيات إيمان العبد بألوهيَّة الله؛ بأن يذلّ ويخضع له، وينكسرَ لجنابه سبحانه، وأن يُفرده وحده بالذّلّ، وأن يُخلص الدّين له، وأن لا يجعلَ معه شريكًا في

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٥٤).

العبادة.

و«الرّحمن الرّحيم» اسمان يدلان على ثُبوت الرَّحمة صفةً لله، وأنَّ رحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واسعةٌ، وأنّها واصلة إلى عباده.

«الرَّحمن» يدلّ على سعة الرَّحمة؛ لأنَّ وزن «فعلان»يدلّ على السّعة، فهو يدلّ على سعة رحمة الله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

و«الرَّحيم»يدلّ على أنَّ هذه الرَّحمةَ رحمةٌ واصلةٌ إلى العباد، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب]، ولم يأتِ «وكان بالمؤمنين رحمانًا»؛ لأنَّ «الرَّحيم» اسمٌ يدلّ على وصول هذه الرَّحمة إلى العباد.

فذُكرت في هذه البسملّة هذه الأسماء العظيمة الجليلة لله تبارك وتعالى؛ «بسم الله الرّحمن الرّحيم».

ثمّ قال: «**اعلمْ رحمكَ اللهُ**»؛ وسيأتي أيضًا بعد قليل قوله أيضًا: «اعلمْ رحمكَ اللهُ»، ثمّ سيأتي أيضًا: «اعلم أرشدك الله لطاعته» ثلاثة مواضع، ثمّ بعد ذلك تبدأ رسالة الأصول الثّلاثة؛ مَن ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَن نبيُّك؟

ولهذا ينبغي أن نَعلمَ أنَّ الأصول الثّلاثة صُدِّرت بهذه الرَّسائل الثّلاث العظيمة للإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكلُّ رسالة منها مُصدَّرة بقوله: «اعلم» ودعاء؛ الرِّسالتان الأُولَيان فيهما الدُّعاء بالرَّحمة، والأخيرةُ فيها الدُّعاء بأن يرشدكَ الله إلى طاعته.

❖ ذكر في الرِّسالة الأولى أربع مسائل عظيمة يحتاج إليها كلُّ مسلم ومسلمة، ويجب تعلُّمها على كلِّ مسلم ومسلمة؛ وهي: العِلمُ، والعَمَل، والدَّعوة، والصَّبر، وقد اجتمعت هذه المسائلُ في [سورة العصر] كما سيأتي بيان ذلك.

❖ والرِّسالة الثَّانية مشتملة على بيان التَّوحيد بنوعيه: العلميّ والعمليّ، ومسألةِ الولاء والبراء.

❖ والرِّسالة الأخيرة مشتملة على ذكر الحنيفيّة ملّة إبراهيم إمامِ الحنفاء عليه صلوات الله وسلامه.

وبعد هذه الرَّسائل تأتي الأصول الثّلاثة، وفي الرِّسالة الأولى مِن هذه الرَّسائل إشارةٌ إلى هذه الأصول الثّلاثة؛ عندما ذكر المسألة الأولى وهي العلم قال: «وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلَّة» وسيأتي ذكرُ النُّكتة في ذلك، ولمَ خصّها رَحِمَهُ اللَّهُ بالذِّكر هنا؟.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**اعلمْ رحمكَ اللهُ**»؛ بدأ الرِّسالة رَحِمَهُ اللَّهُ بتنبيه ودعاء؛ تنبيه: يُراد به استدعاءُ اهتمامِ القارئ وانتباهِه وحُسنِ استفادته؛ لأنَّ ما سيُلقى عليه ويقرَّر له: أصولٌ عظام ومسائلُ جليلة تحتاج منه إلى حُسن إصغاءٍ وحسن انتباه وحُسن استفادة، ولهذا جاء بهذه الكلمة قال: «اعلمْ» مصدِّرا الرِّسالة بها، وهذا الأسلوب نافع جدًّا في التَّعليم، وهو مستمَّد مِن كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكثيرًا ما يأتي في القرآن آياتٌ يُنبّه فيها على أمورٍ عظام

ومسائلَ جليلة ويصدَّر ذلك بـ«اعلم»؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد]، وقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد]، وفي القرآن آيات تزيد على الثّلاثين يُبدأ صدر الآية فيها أو في أثناءها بقوله: «اعلم» أو «اعلموا»، وهكذا في سُنَّة النَّبيِّ ﷺ يأتي عنه أحاديث عديدة يصدِّر فيها كلامه وما أراد صلوات الله وسلامه عليه بيانَه مِن أمورٍ علميَّة أو عمليَّة بقوله: «اعلم» أو «اعلموا»، ومِن ذلكم قوله ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(١)، كذلك قوله ﷺ كما في «مسند الإمام أحمد»، لأبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعْلَمْ أَنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً»(٢)، والأحاديثُ عنه في هذا كثيرة.

وأيضًا هو أسلوبٌ دارج في تقريرات أهل العلم وفي مُؤلَّفاتهم.

وقوله: «**رحمكَ اللهُ**» فيه جمعٌ بين التَّنبيه والدُّعاء، وهذه مِن علامات النُّصح؛ لأنَّ مِن علامات النُّصح أن يبيِّن النَّاصح للمنصوح الخيرَ، وأن

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٢٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٨٨).

يُرشده إليه برفقٍ وحُسن بيان وتمام إيضاح، وأن يدعوَ له في الوقت نفسه بالخير؛ فعلامة النُّصح الدّلالة إلى الخير والدُّعاء بالخير، يدلّه إلى الخير ويدعو من يدلّه إلى الخير أن يُوَفَّق له وأن يُسدَّد وأن يُعان.

قال: «**اعلمْ رحمكَ اللهُ**»؛ الدُّعاء بالرَّحمة تارةً يأتي مضمومًا إليه الدُّعاء بالمغفرة، وتارةً يأتي مفردًا كما هو عند المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإذا ضُمَّ إليه الدُّعاء بالمغفرة فإنَّ الدُّعاء بالمغفرة يتناول ما سلف مِن الأزمان وما مضى مِن الأوقات، والمعنى: أي غفرَ الله لك ما سلف منك مِن خطأ أو زلل أو تقصير أو ذنب.

والرحمة: التَّوفيقُ فيما سيأتي بالحفظ، والإعانةُ على الطَّاعة، والوقاية من الزَّلل؛ فتكون المغفرةُ متناولةً الماضي، والرَّحمة متناولة للآتي مِن الأزمان.

وإذا أُفرد أحدهما بالذِّكر تناول الآخر؛ فقوله هنا «رحمك الله» يتناول رحمك بأنْ غفر لكَ ذنوبكَ وستر لكَ عيوبك وأقالك عثرتك، وأيضًا يتناول: وفَّقك وسدَّدك وأعانك فيما تستقبل من أيَّام حياتك؛ التَّوفيق للهداية والإعانة للخير.

قال: «**أَنَّهُ يجبُ علينا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ**»؛ يجب علينا: أي نحنُ معاشِرَ المكلَّفين ذكورًا وإناثًا صغارًا وكبارًا، يجب علينا أي وجوبًا عينيًا -كما سيذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ- هو مِن الواجب العينيّ على كلِّ مكلَّف، أي يلزم كل

مكلف أن يتعلمه ذكراً كان أو أنثى، صغيراً كان أو كبيراً، الكل يلزمهم تعلم هذه المسائل، ويجب عليهم وجوبًا عينيًا تعلمها.

وهنا ينبغي أن يُعلم أنَّ فرائضَ الدّين وواجباته منها ما هو فرض عين، ومنها ما هو فرض كفاية.

وفرضُ العين هو الّذي يجب على كلِّ مكلَّف، وأمَّا فروض الكفاية فهي الّتي إذا قام بها بعض المكلَّفين سقط الإثمّ عن الباقين، فيكون في تعلُّم بعض المكلَّفين لها كفايةٌ، أمَّا فروض الأعيان لا يكفي أن يتعلمها بعض المكلَّفين، بل يلزم كلَّ مكلف بعينه فردًا فردًا مّن أفراد المكلَّفين أن يتعلَّموها.

قال: «**أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعلُّمُ أربعِ مسائلَ**»؛ وقوله «تَعَلُّمُ أربعِ» أي: فهمُها وضبطها ومعرفتُها معرفةً صحيحة مستمدّة مِن كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلواتُ الله وسلامه عليه.

وقوله «**أربع مسائل**» هذا معدودٌ في حسن البيان وضبط العلم؛ أن تُذكر الأعداد قبل ذكر المعدود ليكون ذلك أضبط لطالب العلم، وهذا يأتي كثيرًا في أحاديث النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه»، «آيةُ المُنافقِ ثلاث»، «أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا»، «اضمنوا لي ستًّا مِن أنفسكُم أضمنُ لكم الجنّة»، وهكذا أحاديثُ كثيرةٌ يُذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في صدرها العدد ثمّ بعد ذلك يذكر المعدود؛ وهذا أضبطُ لطالب العلم؛ لأنَّه

إذا فاته شيءٌ مِن هذه أو نسيَ يذكرُ أنَّه بقي عليه واحد؛ لأنَّه يعرف أنَّها أربعةٌ فهذا أضبط في العلم وأمكن في الفائدة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ «**مسائل**»؛ الدِّين مسائل ودلائل، والمسائل: هي الأحكام والشَّرائع والأوامر والنَّواهي المستفادة مِن دلائل كتاب الله وسُنّة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، والدَّلائل: هي المصدر والمنبع لهذه المسائل.

قال: «**الأُولى: العِلْمُ**»؛ والمراد بالعلم: معرفة الحقِّ والهُدى.

والعلم إذا أُطلق في نصوص الكتاب والسُّنَّة ومُدح أهله وأثني عليهم فالمُراد به علم الشّريعة المستمدُّ مِن كتاب الله وسُنَّة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فالآيات والأحاديث الّتي فيها مدح العلم ومدح العلماء، المراد بها علم الشريعة؛ «قال الله، قال رسوله ﷺ».

وعلم الشَّريعة كما سبق ينقسم إلى قسمين: فرضُ عين، وفرضُ كفاية، هناك مِن علوم الشريعة شيءٌ كثير لا يلزم كلَّ فرد من المكلَّفين أن يتعلَّمَه، بل إذا تعلّمه البعض كفوا الباقين هذا الأمر.

وفرض العين: هو العلم الّذي لا يسع أيَّ فرد مِن أفراد المكلَّفين جهله؛ بمعنى: أنَّه يلزم كلّ مكلّف أن يتعلَّمه، ومِن ذلكم هذه المسائل الّتي ستُبيَّن وتُوضَّح وتُقرَّر بأدلَّتها مِن كتاب الله وسنَّة نبيِّه صلواتُ الله وسلامه عليه، ولهذا نُقل عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «يجب أن يَطلُبَ مِن

العلم ما يقوم به دينه»[(١)]؛ وهذا ضابطٌ دقيق في معرفة العلم الّذي هو فرض عين على كلِّ مكلَّف، قال: «يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه»، ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب؛ ولهذا: معرفةُ التَّوحيد الّذي قيام الدّين عليه فرضُ عين، معرفةُ الصَّلاة بأركانها وواجباتها وشروطها فرضُ عين، معرفةُ الحجِّ أركانِه وواجباتِه وشروطِه فرضُ عين، وهكذا في واجبات الدّين وفرائض الإسلام الّتي يُؤمر بها كلُّ مكلَّف تعلُّمها فرض عين.

قال: «يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه» قيل له: مثل أيَّ شيء؟ قال: «الّذي لا يَسَعُه جهله؛ صلاتُه، وصيامُه، ونحو ذلك»، فهذه فرائضُ عينيَّة تلزم جميع المكلَّفين.

ولهذا قوله: «**الأولى: العلم**»؛ المرادُ بالعلم هنا: العلمُ الواجب الّذي هو فرض عين؛ لأنَّه قال: «يجب علينا» وذكر العلم؛ أمَّا بقيَّة أمور الشريعة -فروضها الكفائية- هذه لا تجب على جميع المكلَّفين، بل إذا قام بها البعض كفوا في ذلك وسدُّوا الباب وحقّقوا المقصود والمراد.

قال: «**الأُولى: العِلْمُ**» قال: «**وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ ﷺ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلَّة**»؛ خصّ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأصول الثّلاثةَ بالذِّكر هنا؛لأنَّها الأصول الّتي يقوم عليها الدّين، فهي للدِّين بمثابة الأساسِ للبُنيان والأصولِ للأشجار، فكما أنَّ الأشجار لا تقوم إلَّا على أصولها، والبُنيان

(١) «الفروع» لابن مفلح (٢/ ٣٤٢).

لا يقوم إلَّا على عماده وأساسه، فكذلك الدّين لا يقوم إلَّا على هذه الأصول؛ معرفةُ اللهِ وهو المقصود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومعرفةُ نبيِّه ﷺ وهو الواسطة بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبين العباد في إبلاغ شرعه وبيان دينه، ومعرفةُ دينِ الإسلام؛ لأنَّه الطَّريق الوحيد المُوصل إلى الله؛ فلا ينالُ أحدٌ رضا الله ولا يفوز بثوابه ولا ينجو مِن عقابه إلَّا بالإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران].

فالإسلام هو الطَّريق الوحيد الموصل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وما سِواه مِن الطُّرق لا تُوصل إلَّا إلى سَخَط الله، فالله عَزَّوَجَلَّ سدَّ كلَّ طريق إلَّا الإسلام؛ فهو دين الله عَزَّوَجَلَّ الّذي لا يقبل دينًا سِواه، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام]؛ ولهذا جاء في «المسند»: عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلاَ تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعِي يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، والصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى

وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(١).

فالإسلام هو الصِّراط الوحيد والجادَّة المستقيمة الّتي تُوصل إلى رضوان الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والجنّة، وفي الدُّعاء الّذي هو واجبٌ على كلِّ مسلم أن يُكرِّره في يومه وليلته سبعَ عشرة مرَّة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة] أي: صراط الإسلام دين الله الّذي رضيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده، ولا يقبل منهم دينًا سواه؛ فالإسلام هو دين الله(٢).

قال: «**بالأدلَّة**»؛ قوله: «بالأدلَّة» يرجع إلى الثّلاث؛ أن تعرفَ الله، وأن تعرفَ النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن تعرفَ الإسلام؛ بأن تكون هذه المعرفةُ مبينةً على الدَّليل، والدَّليل: قال الله، قال رسوله ﷺ، العلمُ: قال الله، قال رسوله ﷺ، لا أن تكونَ هذه المعرفة مبينة على الهوى، أو على الرَّأي، أو على الذَّوق، أو على المنامات، أو على التَّجارب، أو على القصص، أو

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، والترمذي (٢٨٥٩)، وصححه الألباني في«صحيح الجامع» (٣٨٨٧).

(٢) روى الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٨٠) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ قال: «ذلك الإسلام»، وروى كذلك في «تفسيره» (١٨٢) عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ قال: هو الإسلام» «جامع البيان في تأويل القرآن» (١/ ١٧٥)، وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٩).

غير ذلك ممَّا جُعل لدى كثيرٍ مِن النَّاس مصدرًا للاستدلّال.

ومَن لم يعتصم بالكتاب والسُّنَّة ضلَّ، ومَن رام الوُصول مِن غير طريقهما زلَّ، كما قيل: «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرَّسول ﷺ!!»(١)؛ أي أنَّ هذا محال؛ فلا يمكن أن تتحقَّق للعبد معرفةٌ صحيحةٌ بالله وبنبيِّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبالدِّين - دين الإسلام - إلَّا بالدَّليل وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومَن فارق الدَّليل ضلَّ السَّبيل، ولا دليلَ إلَّا بما جاء به الرَّسول؛ هذه كلمة كان يكرِّرها ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا: «من فارق الدَّليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ»(٢).

وقوله «ضلَّ السَّبيل» يدلّ عليه قول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه]، مفهوم المخالفة: أنَّ مَن لم يتَّبع هدى الله ووحيَه فإنَّه يضلّ، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا؛ كتابَ الله وسنَّتي»(٣)، والشّواهد على هذا كثيرة.

ولهذا ينبغي على كلِّ مسلم أن يعتنيَ بهذه الأصول الثّلاثة عناية دقيقة؛

(١) «شرح العقيدة الطّحاويّة» (١/ ١٨).

(٢) «مفتاح دار السّعادة» (١/ ٨٣).

(٣) رواه الحاكم في «مستدركه» (٣١٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٦١).

معرفة الله، معرفة النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، معرفة دين الإسلام؛ ينبغي على كل مسلم أن يعرفها معرفة دقيقة، وأن يدع طرائق الجاهلين وسبل المضلِّين، وكم أضلُّوا كثيرًا! إمَّا بحكايات، أو بمنامات، أو بتجارب، أو بقصص، أو بأشياء من هذا القبيل، كم أضلُّوا كثيرًا مِن العوامّ وأبعدوهم عن دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعن الجادَّة السويَّة.

ولهذا تجدُ الشَّخص أحيانًا يتكلَّم عن مِثل هذه المسائل ولا يذكر آية ولا يذكر حديثًا، بل يذكر قصصًا، ويذكر حكاياتٍ، ويذكر منامات وهلمَّ جرًّا، وكم أضلُّوا مِن العوام بمثل هذه الطريقة.

ولهذا ينبغي للعاميِّ أن يكونَ فطنًا؛ دينُ الله ليس تجاربَ الأشخاص، دينُ الله عَزَّوَجَلَّ ليس آراءَ النَّاس، دين الله جَلَّ وَعَلَا ليس اختراعَ مُخترعٍ، دينُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس ذوقَ متذوِّق؛ دينُ الله جَلَّ وَعَلَا وحيٌ مِن الله منزَّل ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء]، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [ق: ٤٥]، دين الله جَلَّ وَعَلَا وحيٌ مُنزَّلٌ مِن ربِّ العالمين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]، قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فلهذا ينبغي على العامّيّ والمسلم عمومًا أن يكونَ فطنًا في هذا الباب، دينُ الله لابُدَّ فيه مِن الدَّليل، والدَّليل: قال الله، قال رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهذه مسألةٌ واضحةٌوضوح الشَّمس، فإذا قال لك قائل: «اعتقد كذا لأنَّي رأيتُ في المنام كذا وكذا» أو قال لك: جرَّبنا، أو حكى لك في ذلك قصّة أو، أو...إلخ، كلُّ ذلك ليس مصدرًا للاستدلّال، وليس طريقًا يُستمدُّ منه الدّين والاعتقاد، الدّين: قال الله، قال رسوله.

ولهذا: جادَّةُ السَّلف وطريقتُهم ماضية على ذلك مِن أوَّل الزَّمان إلى زماننا هذا إلى أنْ يرث الله الأرض، وهذه طريقة أهل الحقِّ والهدى، لا يأتي أحدٌ منهم بعقيدة يُنشئها مِن نفسه، أو يخترعها، أو يخترعها له أشياخه، بل دين الله يُستمدُّ مِن كتاب الله وسنَّة نبيِّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في هذا المقام كلمةً عظيمة، قال: «أَمَّا الِاعْتِقَادُ: فَلَا يُؤْخَذُ عَنِّي وَلَا عَمَّنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي؛ بَلْ يُؤْخَذُ عَنْ اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ؛ فَمَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ وَجَبَ اعْتِقَادُهُ وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِثْلِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ»(١)؛ فالاعتقاد ما جاء في القرآن و«الصَّحيحين» و«السُّنن» و«الأحاديث الصَّحيحة» الثَّابتة عن رسول الله ﷺ.

ولهذا يلزمُ كلَّ أحدٍ يُقرِّرُ عقيدةً أنْ يبنيِّها على الدَّليل؛ يقولُ: نعتقدُ كذا لقول الله تعالى كذا، ونعتقدُ كذا لقول رسول الله ﷺ كذا؛ وهذه جادَّة أهل العلم، أمَّا المصادر الّتي جُعلت للاستدلّال فهذه مصادر عند أهل

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٦١).

الأهواء، وانتبه لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مقام التَّحذير مِن الشِّرك ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ [النّجم]؛

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وهذه طريقة كلِّ مُبطل، وكلِّ صاحب ضلال، فهو في ضلاله إمَّا أن يكونَ متبعا ظنونًا وأوهامًا وتخرُّصاتٍ يظنها علمًا، أو يكونَ متَّبعًا هوى نفسِه.

قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ الهدى جاء مِن الله، ونزل مِن ربِّ العالمين، فلِمَ يتشاغل النَّاس بظُنون وأهواء وبينهم وحيُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتنزيله سبحانه؟! وانتبه جيِّدا لقوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، فكلُّ عقيدة بين النَّاس لم ينزل بها سُلطان - أي لم ينزل بها حجة وبرهان مِن الله جَلَّ وَعَلَا - فهي مردودةٌ وباطلةٌ وغيرُ مقبولة؛ لأنَّه لا يُقبل مِن أمور الدّين إلَّا ما كان نزل به سلطان؛ أي: حجَّة، والحجَّة سمِّيَت سلطانا؛ لأنَّها تستولي على القلوب، وتتسلَّط عليها، وتتمكَّن منها، ولا تتمكَّنُ القلوب مِن ردِّها لقوتها قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

الشَّاهد - معاشر الأخوة - أنَّ هذه الأصول الثّلاثة ينبغي على كلِّ مسلم أن يعتنيَ بمعرفتها بالدَّليل، والدَّليل: قال الله، قال رسوله ﷺ.

وفي هذه الرِّسالة سترى أدلَّة هذه الأصول مِن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس له في هذا الكتاب إلَّا الجمع والتَّرتيب والإيضاح

والبيان، وإلَّا فالكتابُ كلُّه أدلّةٌ، وسترى ذلك؛ أدلة مِن كتاب الله وسنة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، وعندما تُعقد مقارنةٌ بين مِثل هذه الكتب وكتبِ أهل الباطل يجد الإنسان الفرق الشَّاسع والبَوْن الواسع بين طريقة أهل الحقِّ وطرائق المُبطلين، والله تعالى يقول: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد]، ويقول: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢٢﴾[الملك]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

قال: «**الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ ﷺ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلَّة**»؛ «**معرفة الله**»؛ المقام هنا يتناول جانبي التَّوحيد العلميّ والعمليّ؛ بأن يعرفَ المسلمُ الله بأنّه جَلَّ وَعَلَا وحدَه الخالق الرَّازق المُنعم المتصرِّف المدبِّر لهذا الكون لا شريك له، وأنَّه له الأسماء الحُسنى والصِّفات العُلا، لا نظيرَ له ولا مثيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾[الشّورى]، وأن يعرفَ الله بأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المعبود بحقٍّ ولا معبودَ بحقٍّ سواه، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا وحدَه هو الّذي يستحقُّ العبادة وأن يُفردَ بالذُّلِّ والخضوع والأنكسار، وأن لا يُجعلَ معه شريكٌ في شيء مِن خصائصه أو حقوقه جَلَّ وَعَلَا على عباده، وسيأتي لهذا تفصيلٌ وبيانٌ عند المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

و«**ومعرفةُ نبيِّهِ** ﷺ» بأنه مُرسل من الله جَلَّ وَعَلَا بالهدى والحقّ، بشيرًا

ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وأنه بلَّغ البلاغ المبين، ونصح الأمّة وجاهد في الله حقّ جهاده حتّى أتاه اليقين، وما ترك خيرًا إلّا دلّ الأمّة عليه، ولا شرًّا إلا حذّرها منه، ولم يمت إلّا بعد أن أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك تنصيصًا وتبيينًا قوله سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة: ٣].

ومعرفة النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: تكون بمعرفته بتكميله مقام العبودية وتتميمه دين الله عَزَّوَجَلَّ، وأنّه صلوات الله وسلامه عليه على خلق عظيم؛ أي: على دين كامل، وأنّه رسول الله وخاتم النَّبيّين، وأن الدّين هو ما جاء عنه، وأن يطاع عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما أَمَر، وأن يُنتهى عمَّا نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما جاء عنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن يُصدَّق في كل أخباره ﷺ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب].

فالشّاهد أنّ معرفة النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واجبةٌ على كلِّ مسلم، ومَن لم يعرف النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فمِن أين له أن يعرف الدّين؟ وهو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الطّريق والواسطة لمعرفة دين الله، ومِن حكمة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في عباده ابتلاءً وامتحانًا أنّه لم ينزِّل الدّين وحيًا على كلِّ العباد فردًا فردًا، بل اختصّ مِن العباد صفوَتَهم، واجتبى منهم خيارهم فأنزل عليهم وحيه ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾

[الحج]؛ فبلَّغوا ما أُوحي إليهم بلاغًا تامًّا وافيًا لا نقصَ فيه، فدين الله جَلَّ وَعَلَا لا يُعرف إلّا مِن طريق الرّسل، وقد ختمهم الله جَلَّ وَعَلَا بمحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب]، والرَّسول مَهمّته محدّدة؛ وهي إبلاغ كلام المُرسِل ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[النور: ٥٤]، وقد بلّغ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الدّين كاملا، ومَهمةُ أتباعِ الرَّسول فعلُ ما بلَّغهم، واتّباعه فيما جاء عنه، «قَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ، وَعَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَلاَغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ»(١)، فمَهمّة العبد أن يسلِّم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولرسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء: ٦٥].

هذا فيما يتعلّق بمعرفة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وسيأتي عند المصنّف ذكرُ جوانبَ مُهمّة وعظيمة في هذا الباب.

«**ومعرفةُ دينِ الإسلامِ**»؛ وهذه أيضا سيأتي فيها بيان وبسط وإيضاح وتقرير وذكر للدّلائل عند المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: «**الثّانيةُ**» أي: مِن المسائل الأربع: «**العملُ بهِ**» أي: بالعلم الّذي تعلّمه المسلم، مستمِدًّا له مِن كتاب الله وسنّة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه، وهذه ثمّرة العلم ومقصوده.

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٦) تعليقا.

فمقصود العِلم: العَمل، وإلّا سيكون حجّةً على الإنسان؛ أن يعملَ بما علِم، لا أن يحفظ نصوصًا ويعرفَ أحكامًا؛ ولهذا قال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «يهتف بالعلم العمل؛ فإن أجابَه وإلّا ارتحل»(١).

وبعضُ أهل العلم يضرب لهذا المقام - مقام العلم والعمل - مثالا؛ وهو أنّ العلمَ - وهو وحيُ الله - مثلُه مَثَل الماء والمطر، والعملَ مَثلَه مَثل النَّبات والشَّجر، والنَّباتُ والأشجار مادَّتها الّتي تغذيها هي الماء، والعمل بدين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مادّته الّتي تغذِّيه: وحيُ الله جَلَّوَعَلَا.

ولهذا كلّما عظُم حظّ الإنسان مِن العلم مع النّيّة الصّادقة والقصد الحسن صلُحت أعماله؛ لأنَّ العلم النَّافع مع حُسن القصد يُثمران العمل الصّالح، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد].

أي: كما أنّ الأرض تحيا بالماء فالقلوب والأفئدة تحيا بالعلوم النّافعة المستمَدَّة مِن كتاب الله وسنّة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا جاءت النُّصوص المتضافرة والأدلَّة المتكاثرة في الحثّ على العلم والتّرغيب فيه؛ قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي

---

(١) رواه ابن عساكر في «ذم من لم يعمل بعمله» (ص٣٨).

الدِّينِ»[(١)]، قال: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»[(٢)]؛ وذلك لأنَّ العلم يُثمّر العمل، والعملُ يُثمّر دخول الجنّة ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾[النحل].

قال: «**الثالثةُ: الدعوةُ إليهِ**»؛ المسألتان الأولى والثّانية تتعلّقان بالإنسان خاصّتِه؛ أن يتعلّم ويعمل، فيصلُح في نفسه بالهدى الّذي هو: العلم، ودينِ الحقّ الّذي هو:العمل؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الفتح]؛ فإذا صلح العبد بالهدى ودين الحقّ فعليه أن يسعى جاهدًا في إصلاح الآخرين، وتعدية هذا الخير الّذي وصل إليه إلى غيره؛ فيكون هاديًا ناصحًا معلِّما بعد أن وفَّقه الله لأنَّ اهتدى وصلح في نفسه.

فـ«**الدّعوةُ إليهِ**» أي: إلى العلم والعمل؛إلى دين الله جَلَّوَعَلَا، والله يقول: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل]، ويقول: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[فصلت]، ويقول: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف]؛ فيعلِّم الإنسان الآخرين الخيرَ الّذي تعلّمه وعرفه وفهمه؛ لينتشر دين الله عَزَّوَجَلَّ بين النَّاس.

ولاحظ هنا ذِكرَه للدّعوة بعد العلم والعمل!

---

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

هذا يُستفاد منه: أنّ الدّعوة لا تكون إلّا بذلك، أمّا مَن لا علمَ عنده كيف يدعو؟! وفاقد الشّيء لا يعطيه، وكيف يدعو إلى شيء لا يعمله هو؟! بل ينبغي أن يصلحَ نفسه،ثمّ يُعدّي هذا الخير إلى الغير.

قال: «**الرّابعةُ: الصّبرُ علَى الأذى فيهِ**»؛ أي: الأذى في هذا الطريقِ؛ طريقِ الدّعوة إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، ومن يدعو إلى الله جَلَّوَعَلَا قد لا يسلم؛ لم يسلم الأنبياء، ولم يسلم خاتم الأنبياء عليهم وعليه صلوات الله وسلامه، ولم يسلم الصّحابة، والعلماء، والأئمة، لم يسلموا مِن الأذى، ولهذا يُقال: طريقُ الدّعوة ليس مفروشًا بالورود والزّهور؛ لأنَّ الدّاعيَ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لا يتعامل مع صنف واحد مِن النَّاس، بل يتعامل مع أصناف منهم؛ فهذا خلوق، وهذا بذيء، وهذا سيّئ، وهذا غليظ...، ولهذا لابدّ أن يتحلّى بالصَّبر - أي على الأذى -، وأيضا بالصَّبر على الدّعوة؛ فقد يدعو شخصا أو أشخاصا، مرّة أو مرّتين، أو أكثر أو أقلّ، فلا يُحصِّل فائدة أو استجابة، فعليه أن يصبر ويمضي مستمرّا بالدّعوة، وتكرار النّصيحة، وتوالي البيان، لعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن يهديَ المنصوح.

والصبر خُلُق النَّبيّين، ودَأب الصّالحين؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف]، وهو خُلق عظيم يحتاج إليه المسلم في دينه كلّهوفي أموره كلها؛ تحتاج إلى الصّبر في صلاتك، وصيامك، وجميع عباداتك، وتحتاج إلى الصّبر في بُعدك عن الحرام،

وعمّا نهى الله عنه، وتحتاج إلى الصّبر في المصائب والآلام، والله يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة].

قال: «**والدَّليل قولُه تعالَى**».

انتبه إلى طريقة الشَّيخ في كتابه كلّه!

كلّما يذكر مسألة يُتبعها بقوله: «والدَّليل قولُه تعالَى»، أو: «والدَّليل قوله ﷺ»، لا ترى في الكتاب كلّه غيرَ ذلك، أمَّا كتُب أهل الباطل فطريقتهم مختلفة عن هذه تماما؛ إذا استدلّ تجده يذكر أمورا أخرى غير القرآن والحديث؛ إمّا أن يحكيَ تجربة، أو يحكيَ منامًا، أو يتحدّث عن ذوقه هو، أو ذوقِ أحد مشائخه أو...أو...إلى غير ذلك، والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة في كتب المضلِّين، وقد قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»[1]؛ كان يخاف على أمته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منهم خوفًا عظيمًا لشدّة خطورتهم وضررهم على النَّاس، ولعِظَم صدّهم عن دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**والدَّليل قولُه تعالَى**: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾، **قالَ الشّافعيُّ رحمه الله تعالَى: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ**».

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

وقال البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بابُ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ)، والدَّليل قولُه تعالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمَّد: ١٩] فبدأَ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ».

الشرح:

لما أنهى المصنّف رحمه الله تعالى ذكر المسائل الأربع وهي: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر؛ ذكر الدَّليل على وجوبها، لأنَّه قال في تمهيده للكلام على هذه المسائل الأربع قرر أنها واجبة على كل مسلم وأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم هذه المسائل الأربع، فإذا قيل ما الدَّليل على ذلك؟ ذكر الدَّليل رحمه الله تعالى، وعرفنا أن هذه الطريقة هي طريقة أهل السنة والجماعة؛ يذكرون القول مضموماً إليه دليله من كلام الله أو كلام رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وعرفنا أن دين الله جَلَّ وَعَلَا في باب العقائد والعبادات والأحكام هو مسائل ودلائل، والمسائل: إما مسائل تتعلق بالجانب العلمي وهو جانب الاعتقاد، أو مسائل تتعلق بالجانب العملي وهو جانب العبادة والطَّاعة، فهذا دين الله، دين الله عَزَّ وَجَلَّ مسائل ودلائل: أي دلائل؛ أي دلائل تبنى عليها هذه المسائل وتستند إليها هذه المسائل، ولا دين إلا بهذه الطريقة، كل مسألة من مسائل الدّين يجب أن تكون على هذه الطريقة؛ يقال: "نعتقد كذا لقوله تعالى كذا أو لقوله ﷺ كذا"، "نعمل كذا لقوله تعالى كذا أو

لقوله ﷺ كذا"، "نذكر الله تعالى بكذا لقوله تعالى كذا"، ويمضي الإنسان في جميع مسائل الدّين على هذه الطريقة؛ المسألة مع دليلها، وهذا معنى قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ «بالأدلّة»؛ أي معرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة دين الإسلام بالأدلّة، فهذا شأن الدّين مسائل علمية وعملية ودلائلها من كلام الله ومن كلام رسوله ﷺ، وكل مسألة يؤتى بها لا دليل عليها من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهي مردودة على صاحبها أيًّا كان، ولهذا قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلٌّ يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر»[(١)] يعني الرّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الْعِلْمَ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَالشَّأْنُ فِي أَنْ نَقُولَ عِلْمًا وَهُوَ النَّقْلُ الْمُصَدَّقُ وَالْبَحْثُ الْمُحَقَّقُ فَإِنَّ مَا سِوَى ذَلِكَ - وَإِنْ زَخْرَفَ مِثْلَهُ بَعْضُ النَّاسِ - خَزَفٌ مُزَوَّقٌ وَإِلَّا فَبَاطِلٌ مُطْلَقٌ»[(٢)] أي يستدلّ بقولهما لا لقولهما، لأنَّ كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو الدَّليل، وكل قائل أيًّا كان يُستدلّ لقوله؛ أي يُطلب الدَّليل لقوله، فإن كان على قوله دليل من الكتاب والسنة قُبل، وإن لم يكن على قوله دليل من الكتاب والسنة رُد، ولهذا مضى أهل السنة والجماعة في هذه الجادة؛ ذكر المسألة مضمومًا إليها دليلها.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٩٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٨٨).

فذكر هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن كل مسلم يجب عليه أن يتعلم هذه المسائل؛ ذكَرها ثمّ قال: «**والدَّليل قولُه تعالَى**»؛ أي دليل هذه المسائل وأنها واجبة على كل مسلم «**قولُه تعالَى**: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾».

الدَّليل على وجوب هذه المسائل الأربع هو [سورة العصر] كاملّة بآياتها الثّلاث.

ودلالتها على الوجوب ظاهرة؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكم على كلّ إنسان بأنّه خاسر، وأنّه في خسر إلّا إذا اتّصف بهذه الصِّفات، وتحلّى بهذه النّعوت، فإنّه بذلك يكون سالما مِن الخسران.

وهذا فيه دلالة واضحة أنّ هذه المسائل واجبة على كلّ مسلم، ومن لم يكن متّصفا بهذه المسائل الأربع فإنّه خاسر، لأن الله حكم عليه بأنّه في خسر.

بدأ الله جَلَّ وَعَلَا ذِكر هذه الحقيقة العظيمة بالقسم، يُقسم جَلَّ وَعَلَا على ذلك بالعصر، والعصرُ مِن جملّة مخلوقات الله جَلَّ وَعَلَا، فالله خلق اللّيل، والنّهار، والسَّماء، والجبال، والأنْهار، والشّمس، والقمر، فالعصر من جملّة مخلوقات الله جَلَّ وَعَلَا.

والله عَزَّوَجَلَّ له أن يُقسم بما شاء مِن مخلوقاته، ولهذا كثيرًا ما ترى في القرآن إقسامَ الله جَلَّ وَعَلَا بمخلوقاته؛ باللّيل، والنّهار، والشّمس، والقمر،

والضّحى، والنّجم، يُقسم الله جَلَّ وَعَلَا بما يشاء من مخلوقاته، وأمّا عباد الله فلا يحِلّ لأحدٍ منهم أن يقسمَ بغير الله، كما قال نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[(١)]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا تحلفوا بآبائكم** »[(٢)]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا »[(٣)]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[(٤)]، ولهذا لا يحلّ للمسلم أن يحلفَ بغير الله أيًّا كان، لا بالأنبياء، ولا بنبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا بالكعبة، ولا بالأمانة، ولا بأيّ شيء مِن المخلوقات، لا يجوز له أن يقسم إلّا بالله. والحلف تعظيم، وهذا التعظيم لا يحل إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده، ولهذا قال نبيّنا ﷺ: «**من كان حالفًا فليحلف بالله**»، و«**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»؛ لأنّه صَرَف هذا التّعظيم الّذي هو حقٌّ لله لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن المخلوقات.

وعندما يقسم جَلَّ وَعَلَا بشيء مِن مخلوقاته فهذا فيه تشريفٌ لهذا الّذي أقسم به؛ لأنَّ تخصيصه مِن بين المخلوقات بإقسام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به دليلٌ على شرفه.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٦٤٨)، ومسلم (١٦٤٦).

(٣) رواه أبو داود (٣٢٥٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٤).

(٤) رواه أبو داود (٣٢٥٣)، والترمذي (١٥٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٥٢).

وهنا في هذه السورة يقسم ربّنا جَلَّوَعَلَا بالعصر، وقد قيل في معنى العصر والمراد به أقوال عديدة، لكنّ أقربها وأظهرها: أنّ المراد به الزّمان كلّه، اللّيالي والأيّام، والعمر؛ وليس عمر كلّ إنسان بخاصّته وإنَّما الحياة كلّها الّتي هي ميدان الأعمال، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى خلق اللّيل والنّهار، وأوجد هذا الدّهر ميدانًا للأعمال، وخلق في هذا الدّهرِ النَّاس، وجعل لكلّ إنسان مُدّة معيّنة من هذا الدّهر، ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ في موعظة له: «ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك »(١)، ولا تستقدم عن وقتك ساعة ولا تستأخر، فأنت وقت محدّد.

فإذًا هنا قَسَمُ الله جَلَّوَعَلَا بالعصر ثمّ ذِكْرُه لخُسر الإنسان إن لم يكن متّصفًا بهذه الصِّفات فيه التنبيه إلى أهميّة العصر، وأنه ميدان العمل، وأنّ فوات أيِّ شيء مِن العصر الّذي تعيشه هو فواتٌ لحياتك أنت، وخسرانٌ حقيقي لك؛ لأنَّ أيّامك في العصر تمضي سبهللا وتضيع سدى فتكون خاسرًا، فلابدّ مِن الاهتمام بالعصر، والاهتمام بالوقت، وعدم إضاعته، وإضاعته من أعظم أسباب المقت والخسران والحرمان.

والعَصرُ الّذي هو تقلّب اللّيل والنّهار شأنه عجب؛ ولهذا يقول بعضهم عن الدّهر: «أبو العجب» أو «أبو العجائب»؛ لأنَّ اللّيل والنّهار لم يزالا جديدين، لكن كم ذهبت أمم، وكم هلك أشخاص، وكم حصل من

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٨)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٥).

مصائب، وكم حصل من قوارع وزلازل وفتن... إلخ، واللّيل والنهار لم يزالا جديدين، أمم تذهب، ودول تفنى، وأشخاص يهلكون، ومصائب تحل، ولم يزل الليل والنهار جديدين! ولهذا يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]، ﴿خِلْفَةً﴾ أي: يخلف بعضُه بعضًا، يذهب ليلٌ ويأتي نهار، ويذهب نهار ويأتي ليل، وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فيه أن يذَّكرّ الإنسان أمره، وما ينبغي أن يكونَ عليه مع اللّيالي والأيّام، فلا يزداد فيهما إلا شكرًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ نِعم الله عليه فيهما متجدِّدة، وآلاؤه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متوالية.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ و«الإنسان» هنا دلالتُها دلالةُ لفظ «كلّ النَّاس»، أي كلّ إنسان في خسر، كلّ إنسان خاسر، جميع النَّاس خاسرين؛ لأنَّ«الـ » في الإنسان يراد بها الجنس فتفيد العموم، ولهذا يقولون: أنّ مما تعرف به «الـ»الّتي تفيد الجنس أن يصلح أن تحلّ مكانها «كل».

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ولم يقل: «إنّ الإنسان لخاسر»؛ لأنَّ هذه الصّيغة الّتي في الآية أبلغ في إثبات هذا الأمر، وأمكن في الدّلالة عليه؛ لأنَّ «في» تفيد الظّرفية، فقوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ يفيد أنّ الخُسران محيطٌ بالإنسان

مِن كلّ جانب، وأنّه منغمسٌ في الخُسران تمام الأنغماس، منغمس إلى أمّ رأسه، ولا ينجو من ذلك إلا من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفاتهم بعد قوله: ﴿إِلَّا﴾ في السّورة.

وهذه الحقيقة إلى تمامها بدءً من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أكّدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بثلاث مؤكِّدات:

- المؤكِّد الأول: القسم؛ قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾.
- والمؤكِّد الثّاني: قوله: ﴿إِنَّ﴾؛ فهي تفيد التّوكيد.
- والمؤكِّد الثّالث: «اللام» الدّاخلة على الجارّ والمجرور ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾؛ فهي لام التّأكيد.

فذكر جَلَّ وَعَلَا هذه الحقيقة مؤكدةً بثلاثة تأكيدات، والحقيقة هي حكمٌ على كل النَّاس بالخسران، وأن هذا الخسران لا يسْلم منه إنسان أبداً كما يفيده العموم في هذه الآية؛ إلا من أكرمهم الله سبحانه وتعالى واتصفوا بالصِّفات الأربع المذكورة في هذه السورة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا﴾ يعني هؤلاء مستثنون، ومن سوى هؤلاء المستثنين خاسر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ ولكي يسلم الإنسان من الخسران لابد أن يتصف بهذه الصِّفات الأربع مجتمعة، لا يكفي أن يتصف ببعضها وأن يهمل باقيها، بل لابد أن يتصف بهذه الصِّفات الأربع وأن يكون من أهل هذه الصِّفات، فإذا كان كذلك سلِم من الخسران، وإن

لم يكن كذلك فهو والله خاسر ووالله لفي خسر كما أخبر ربنا جل وعزّ بذلك: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

ولهذا فإنّ في هذه السورة موعظةً بليغة مؤثرة لمَن وفّقه الله تعالى لعقلها وفهمها، وهذا هو معنى قول الشّافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآتي «لكفتهم»؛ يعني كافية في هذا الباب؛ بابِ الوعظ المؤثر الجامع لأبواب الخير، وليس مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّها تكفيك فلا تحتاج إلى بقيّة سُوَر القرآن وأحاديث الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وسائر مسائل العلم بدلائله، وإنَّما مراده أنها كفى بها موعظةً جامعةً بليغة مؤثّرة وجيزة أتت على الخير من أبوابه، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره»[(١)].

فهي سورة وجيزة بليغة؛ كما وصفها بذلك عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟

قال لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة.

فقال: وما هي؟

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦).

فقال: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ".

ففكر مسيلمة هُنَيهة ثم قال: وقد أنزل علي مثلها.

فقال له عمرو: وما هو؟

فقال: يا وَبْر يا وَبر، إنما أنت أذنان وصَدْر، وسائرك حفز نَقْز، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟

فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب»[(١)].

فالشّاهد أنّ هذه السّورةَ سورةٌ عظيمة؛ وجيزةُ الألفاظ، قليلةُ الكلمات، آياتها ثلاث، لكنّها جمعت الخير بحذافيره، أي: مِن جميع أطرافه، ففيها كفاية مِن هذه الجهة: أنّها واعظة للإنسان، ومؤثِّرة تأثيرًا بليغًا، وتدفعه إلى المزيد مِن الخيرِ وأبوابه المتنوّعة ومجالاته العديدة؛ لأنَّ هذه السّورة تسوق الإنسان إلى الخير سوقًا، ولهذا رُوي عن بعض الصّحابة أنّهم إذا افترقوا يفترقون على قراءة هذه السّورة[(٢)]: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾، وهي ليست من الأذكار الّتي هي كفارة للمجلس، ولا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ٤٧٩).

(٢) «عن أبي مدينة الدارمي وكانت له صحبة قال كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر» رواه الطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٥٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤٨).

تستعمل هذا الاستعمال، بل بعض مشايخنا عدَّ ذلك مِن البدع؛ كالشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، لكنّها من باب التّذكير، شأنها كشأن أبواب التّذكير الأخرى الّتي تكون عند الوداع والافتراق، والوصايا الّتي تكون في هذا الباب، والنَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تأتي عنه جُمل مِن الوصايا المتنوِّعة، ولاسيّما الوصيّة بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فهي مِن هذا الباب؛ وصيّة جامعة بليغة وجيزة، أتت على الخير بحذافيره.

قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ فذكر جَلَّ وَعَلَا هذه الصِّفات الأربع الّتي مَن اتّصف بها سلِم مِن الخُسران، ومَن أخلَّ بها أو بشيء منها فهو خاسر؛ وهي المسائل الّتي ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّها واجبة على كلّ مسلم ومسلمة: العلم، والعمل، والدَّعوة، والصَّبر.

الأولى من هذه الأوصاف المذكورة في هذه السّورة وفي هذا السِّياق: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: آمنوا بالله جَلَّ وَعَلَا الّذي الإيمان به أصلُ أصولِ الإيمان، وأساسُ أُسُسِ الدّين؛ آمنوا بالله وبكلِّ ما أمرهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالإيمان به، آمنوا بذلك إيمانًا جازمًا ويقينًا راسخًا،لا شكّ فيه ولا ريب.

والإيمان لا يكون إيمانًا إلّا مع انتفاء الشّكّ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ

---

(١) كما في «فتاوى نور على الدرب»، و«لقاء الباب المفتوح».

ﵟءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْﵞ[الحجرات].

وإيمانهم بالله يتناول أركان الإيمان بالله الثّلاثة وهي: الإيمانُ بوحدانيّته في ربوبيّته، ووحدانيّته في أسمائه وصفاته، ووحدانيّته في ألوهيّته.

ودينُ الإسلام سُمِّي «توحيدًا»؛ لأنَّ مبناه على الإيمان بوحدانيّة الله في ربوبيّته، وفي أسمائه جَلَّوَعَلَا وصفاته، وفي ألوهيّته؛ وذلك بإقرار العبد بأنه وحده تَبَارَكَوَتَعَالَى الخالقُ الرازقُ الملِكُ المتصرِّفُ المدبِّرُ لشؤون الخلائق لا شريك له، وأنَّه تَبَارَكَوَتَعَالَى له الأسماء الحسنى والصِّفات العلا لا مثيل له، وأنه جَلَّوَعَلَا المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواه، وأن تُصرف له العبادة كلّها ﵟوَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ﵞ[البينة]، وأن يؤمنَ كذلك بكلِّ ما أمره الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ به؛ ومِن ذلكم أصول الإيمان المجتمعة في حديث جبريل لما سأل النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الإيمان «قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

فهذه الأصول العظام مَن لم يؤمن بها، أو شكَ فيها، أو شكَ في بعضها؛ فإنّه خاسر لا محالة، حتّى وإن عمل من الأعمال الصّالحات شيئًا كثيرًا، وأتى مِن أبواب البرِّ والصّلاح أبوابًا كثيرة؛ لأنَّ الإيمان بالله وبكلِّ ما أمر

(١) رواه مسلم (٨).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبادَه بالإيمان به يُعدُّ أساسًا للسَّلامة مِن الخُسران، وإذا خرب الأساس خرب ما بُني عليه، وإذا بطل الأساس بطل ما بُني عليه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة]، الكفر أساس الخسران في الدّنيا والآخرة، ولأجل هذا بُدئ به، والبدء به دليل على الاهتمام، وأنّ أعظمَ أبواب النّجاة من الخسران الإيمانُ بالله جَلَّ وَعَلَا وبكل ما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده بالإيمان به.

ونستفيد مِن هذا فائدةً عظيمة في باب النَّجاة مِن الخُسران: أن نهتمَّ -معاشر الإخوة- بالتَّوحيد والإيمان دراسةً وتعلُّما وتفقُّهًا وتبصُّرًا؛ فإنَّ الإيمان والتَّوحيد هما الفقه الأكبر الدَّاخل دخولًا أوليًّا في قول نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(١)، أعظمُ الفقه في الدّين الفقهُ الأكبر؛ وهو توحيد الله والإيمان به والإيمان بكلِّ ما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده بالإيمان به؛ فيعتني المسلم عناية دقيقة بهذا الأمر، ويهتمّ به اهتمامًا بليغًا.

وعليه أن يعلم أنّ حاجته للإيمان بالله وللإيمان بكل ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده بالإيمان به أشدّ مِن حاجته إلى طعامه، وأشدّ من حاجته إلى شرابه، وأشد من حاجته إلى الهواء؛ لأنَّ انقطاع الهواء والطّعام والشّراب يكون به موت البدن، أمّا انقطاع الإيمان عن قلب الإنسان ففيه

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

موت القلب ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال]، إيمانك هو حياتك الحقيقية، ولهذا الإنسان من دون الإيمان حياته حياة بهيميّة، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الكفّار: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان: ٤٤]، الأنعام تستنشق الهواء وتأكل الطعام وتشرب الماء، فإذا كان الإنسان عديم الإيمان فحياته حياة بهيميّة.

فحاجة الإنسان إلى الإيمان هي أعظم الحاجات، وضرورته إليه أعظم الضروريّات.

وفي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تنبيهٌ إلى العلم؛ الّذي هو المسألة الأولى عند المصنّف؛ إذ كيف يُعرف الإيمان وكيف يُعرف العمل إلّا بالعلم؟!

العلم النّافع هو البوابة الّتي مِن خلالها يصل الإنسان إلى الإيمان الصّحيح، وإلى العمل القويم، وإلى حسن التقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا كان أوَّلُ الوحي نزولًا على نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الأمرُ بالقراءة ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١]؛ لأنَّ الوحي والإيمان والعمل والدّين لا يُمكن أن يُعرف إلّا بالعلم، لابدّ من العلم من أجل الإيمان، من أجل العبادة، من أجل العمل، من أجل الطّاعة، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ

عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»(١)، فالجنّة لا تُنال إلّا بالإيمان والعمل الصالح، والإيمان والعمل الصالح لا يُعرفان إلّا بالعلم النّافع، ولهذا كان نبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلَّ يوم بعد صلاة الصّبح -كما ثبت في «المسند» و«السّنن»- يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً»(٢)؛ يبدأ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بسؤال الله العلم النّافع؛ لأنّه بدون العلم النّافع لا يمكن أن تميّز بين عملٍ صالح وطالح، ولا بين رزق طيِّب وخبيث، ولا بين اعتقاد صحيح وفاسد، فالعلم هو الّذي يميّز به المسلم الأمور، العلمُ نورٌ وضياء لصاحبه والجهل ظلمات عليه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى].

فالآية إذًا فيها دلالة على العلم في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلا سبيل إلى معرفة الإيمان ومعرفة حقائق الدّين وشرائع الإسلام إلّا بالعلم النّافع؛ والعلم النّافع: هو المستمدّ من كتاب الله وسُنّة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ هذا الأمر الثّاني: ﴿وَعَمِلُواْ

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣٢٢)، وابن ماجه في «سننه» (٩٢٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).

ﵟٱلصَّٰلِحَٰتِﵞ، والمراد بالصّالحات: العبادات المقرِّبة إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

والعمل الصَّالح: هو ما شرعه الله وأمر به عباده، ولهذا ليس هناك عمل صالح يُتقرَّب به إلى الله جَلَّ وَعَلَا إلّا ما شرع، فمن تقرَّب إلى الله بعمل يرى هو أنه صالحٌ ولم يشرعه الله لا يقبله الله منه، ولا يكون معدودًا في الأعمال الصّالحة المقرِّبة إلى الله؛ لأنَّ العمل الصّالح هو المشروع المأذون به في الكتاب والسّنّة وحسْب، وما زاد على ذلك مما أوجده النَّاس ليس معدودًا في العمل الصّالح بل هو معدود في سيِّئات الأعمال، وقد قال نبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا قولًا واضحًا: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه، ولو واصل فيه صاحبه اللَّيلَ والنَّهارَ فهو غير مقبول منه، بل هو خاسر؛ ولهذا قال الله سبحانه: ﵟقُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ﵞ يعني: يعملون وهم خاسرون، ﵟٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ﵞ[الكهف] يعني يعمل ويقدِّم أعمالًا ويأتي بقربات لكن لا تُقبل منه وتُردّ عليه ويكون في جملّة الخاسرين؛ لِمَ؟ لافتقاد شرط قَبُول العمل، والعمل لا يُقبل إلَّا بشرطين، ولا يكون معدودًا في الأعمال الصالحة إلَّا بهما:

الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. ولهذا قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الدُّعاء: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

عِبَادَتِكَ»[1]؛ العبادة لا تُقبل إلّا إذا اتّصفت بالحُسن، والحُسن لا يكون وصفًا للعبادة إلَّا بالإخلاص والمُتابعة، قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى الآية: «أي: أخلَصُه وأصوَبُه»، قيل: يا أبا علي وما أخلَصُهُ وأَصْوَبُه قال: «إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولَم يكن صوابًا لَم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لَم يُقبَل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالصُ ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة»[2].

إذًا الأمر الثاني مِن أمور النّجاة والسّلامة مِن الخسران: العملُ الصّالح؛ أن يعملَ الإنسان الأعمال الصَّالحة المقربة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مخلصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، متبعـًا للنّبيّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فلا يُعبد إلَّا الله، ولا يُعبد الله إلَّا بما شرع؛ مما جاء وثبت وصحَّ عن الرَّسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والأعمال الصّالحة منها فرائض ومنها مستحبَّات، ولهذا قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسيّ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه« الإخلاص والنية» (ص:٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[1]، أي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يسدِّده ويوفقه بسمعه وبصره ويده وقدمه فتكون أحواله وأموره وجوارحه كلُّها ماضيةً على السَّداد بتسديد الله له وتوفيقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهنا في هذه الآية عطف سُبْحَانَهُوَتَعَالَى العمل على الإيمان مع أنَّه جزء منه! وذلك فيه اهتمامٌ بالعمل، وقد يُعطف على الشّيء ما هو جزءٌ منه وما هو داخلٌ في مُسمَّاه اهتمامًا به؛ كقوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة]؛ جبريل مِن الملائكة، لكن مثل هذا العطف يفيد الاهتمام.

ففي هذا مِن الفائدة: أهميّة الأعمال ومكانتها من الدّين، وأنَّها مِن أسباب النّجاة، وأنَّ إضاعتها من أسباب الخسران والحرمان، وأن مضيِّع الأعمال خاسر، حكَم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عليه بذلك؛ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فهذا فيه اهتمام بالأعمال الصّالحة والعناية بها والمحافظة عليها والمواظبة عليها.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

الأمر الثّالث قال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾:

- نُقل عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وعن غيره قال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: التَّوحيد.

- وقيل: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تواصوا بدين الله عَزَّوَجَلَّ أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

والآية عامّة تتناول ذلك كلّه؛ ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بكلِّ ما أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، وكلّ ما دعاهم إليه من فعل المأمورات الّتي أعظمها التَّوحيد، وترك المنهيّات الّتي أخطرها الشِّرك؛ فيدخل في قوله ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ التّواصي بالتَّوحيد، والتّواصي بالحذر مِن الشِّرك والبُعد عنه والتَّحذير منه، والتّواصي بالبعد عن البدع والمحدثات، والتَّواصي بالبعد عن الكبائر والمعاصي والآثام، والتَّواصي بالفرائض والطَّاعات والمقرِّبات إلى الله جَلَّ وَعَلَا، والتَّواصي بالرَّغائب والنَّوافل والعبادات الّتي تساند الإنسان وتسدِّده وتجبر النّقص في أعماله، كلُّ ذلكم داخل تحت قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾.

وهذا فيه أهمية الدّعوة إلى الله، وأنّها ضرورة وواجب دينيّ على كلّ مسلم يريد لنفسه النّجاة مِن الخسران، الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وظيفة كلِّ مسلم، ليست وظيفة بعض النَّاس، فوظيفة كل مسلم أن يكون داعيًا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، كلٌّ بحسبه، وكلٌّ

على قدر استطاعته؛ «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

ولهذا على المسلم أن يكون داعيًا إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وأن تكون دعوته إلى الله لا إلى نفسه، وأن تكون دعوته إلى الله بالبصيرة لا بالجهل؛ وهذا أيضًا فيه الاهتمام بالعلم قبل الدّعوة كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»(٢).

ولهذا فالمسلم يحتاج أن يتعلم ويُعلِّم دائمًا، يتفقَّه ويُفقِّه، يعرف الحقَّ ويعمل به ويدعو إليه، وإذا رأى منكرًا نصح على قدر استطاعته ويجتهد، لكن ليحذرْ أشدَّ الحذر أن يدعوَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بجهل؛ فهذا من أخطر ما يكون، لأنَّ النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(٣)، ولهذا دعاة الضلالة يتحملون آثامهم وآثام أتباعهم إلى يوم القيامة.

فالدَّعوة إلى الله بغير بصيرة جنايةٌ على النَّفس وجنايةٌ على النَّاس، وقد قال نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»(٤)؛

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٤) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة =

الأئمَّةِ المُضلِّين: هم الدُّعاة إلى الدّين بغير بصيرة وهدى من الله، إمّا بالأهواء أو بالآراء أو بغير ذلك، وهذا مِن أخطر ما يكون على النَّاس وأشدِّ ما يكون ضررا.

ولهذا جاءت الأمور مرتَّبة في الآية، ويأتي بها العبد في حياته على ترتيبها في الآية ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ تواصيهم بالحقِّ بعد إيمانهم وعلمهم وعملهم بالصّالحات؛ أمّا الّذي يعبد الله بالبدع؛ إذا دعا سيدعو إلى ماذا؟ سيدعو إلى بدعٍ محدثات، يبوء بإثمّ نفسه وإثم من تبعه.

فإذًا تكون المسألة بهذا التّرتيب وبهذا التّدرّج الّذي في الآية: الإيمانُ مبنيٌّ على علم صحيح، وعملٌ صالح مبنيٌّ على اتِّباعٍ واقتداءٍ بالنَّبيّ الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يأتي بعد ذلك الدَّعوة والتَّواصي بالحقِّ الّذي هو عائد إلى الإيمان والعمل الصَّالح؛ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ والحقّ هو دين الله جَلَّ وَعَلَا، قال الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج]، فالله فمِن أسمائه الحقّ ودينه حقّ، والنَّبيّ ﷺ حقّ، والسَّاعة حقّ، فيدعو العبد إلى هذا، بعد أن يؤمن ويعمل يدعو إلى الحقّ، يدعو إليه على بصيرة.

قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾؛

الصحيحة» (١٥٨٢).

وهذا فيه مقام الصّبر ومكانته من الدّين، وأن مقام الصّبر في الدّين مقام عظيم، إذ أنت تحتاج إليه في الدّين كلّه، وتفتقر إلى الصّبر في أمورك كلِّها، لا تستطيع أن تعبد الله إلّا بالصَّبر، ولا تستطيع أن تترك ما حرّم الله إلَّا بالصَّبر، ولا تستطيع أن تسلِّم لأقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤلمة إلَّا بالصَّبر، أنت تحتاج إلى الصَّبر، لا تستطيع أن تطلب العلم إلّا بالصَّبر، فالصَّبر تحتاج إليه في طلبك للعلم، في عباداتك لله، في بُعدك عن المحرَّمات، في تلقِّي المصائب المؤلمات؛ كلُّ ذلك تحتاج فيه إلى الصَّبر، ولهذا فإن قوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ يتناول الصَّبر على العلم، الصَّبر على العمل، الصَّبر على الدَّعوة إلى الله، الصَّبر على الأذى الّذي يناله مَن يدعو إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالصَّبر في الآية يتناول ذلك كلَّه؛ ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

وهذا فيه تنبيه: أنّ النَّاجين مِن عباد الله السَّالمين مِن الخُسران مِن صفاتهم التَّواصي بالصَّبر؛ يصبّر بعضهم بعضًا، أحيانًا يُقبل بعض النَّاس على العبادة ثمّ تبدأ نفسُه تتفلَّت؛ فيحتاج إلى إخوانٍ خيرٍ يوصونه بالصَّبر والبُعد عن الفتن والشَّهوات، أحيانًا يكون على الاستقامة ثمّ تجرُّه نفسه إلى شهوة محرَّمة فيحتاج إلى الوصيَّة بالصَّبر؛ ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

والوصيَّة بالصَّبر لا تحتاج إليها مرَّة في حياتك بل تحتاج إلى أن تستمِّر على هذه الوصيَّة، وخاصَّة كلَّما شعر الإنسان بتفلُّت في باب فعل الأوامر، أو في باب ترك النَّواهي، أو في باب تلقِّي المصائب؛ فيحتاج الإنسان إلى

الصَّبر أن يذكِّر نفسه هو به وأن يذكِّر إخوانه بالصَّبر.

فإذًا مِن دَأْب النَّاجين المفلحين السَّالمين مِن الخُسران التَّواصي بالصَّبر دومًا وأبدًا، ولهذا في سورة البلد لَمَّا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصْف مَن اقتحم العقبة قال في وصفه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾[البلد] أي هؤلاء الَّذين هم متَّصفون بهذا الوصف ومن جملته التَّواصي بالصَّبر هم أهل الميمنة، فالوصيَّة بالصَّبر ينبغي أن تكون وصيَّة دائمة مستمرَّة بين المسلمين؛ يوصي بعضهم بعضًا بالصَّبر على الصَّلاة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[آل عمران]، فيحتاج العبد إلى أن يتحلَّى هو في نفسه بالصَّبر، وأن يوصي إخوانه به؛ يوصيهم بالصَّبر على العبادات، والآن كم يحتاج النَّاس وطلاب العلم إلى الوصيَّة بالصَّبر على صلاة الفجر! ! أليست صلاة الفجر تُضيَّع كثيرًا الآن؟! كم يحتاج النَّاس إلى الوصيَّة بالصَّبر عليها؟! كم تضيَّع؟ كم يهملها النَّاس؟! كم يفرطون في واجبات وفرائض؟! كم تتخطَّفهم شبهات وأهواء؟! فما أحوج المسلمين للنَّجاة مِن الخُسران إلى الصَّبر والتَّواصي بالصَّبر حتّى تبقى استقامتهم، تديُّنهم، محافظتهم على طاعة الله، سلامتهم.

المسلم يحتاج إلى إخوانه، يحتاج إلى إخوان الخير ورفقاء الصَّلاح

ويصبر معهم ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الكهف].

فإذاً مقام الصَّبر مقام عظيم جدًّا من الدّين، وما وُجد في النَّاس مِن ضياع وتفريط وإهمال في باب العلم أو في باب العبادة أو في باب ترك المحرَّمات إلَّا من التَّفريط في مقام الصَّبر العظيم، ولهذا نحتاج أن نقرأ ونتواصى بالصَّبر كثيرًا، ونقرأ سِيَر أئمَّة الصَّابرين أنبياء الله ورسوله ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف].

اقرأ قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ - مثلا - ما أعجبها وما أروعها! ! وما أعظم صبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنواع الصَّبر الثّلاثة: الصَّبر على الطَّاعة، والصَّبر عن المعصية، والصَّبر على أقدار الله المؤلمة، وكان في ذلك إمامًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ابتُلي عدَّة ابتلاءات: دعته امرأة العزيز إلى نفسها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] اجتمعت عليه وأغرته هي والنِّسوة ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف] صبر في مقام فتنة، كان غريبًا، شابًّا، جميلًا، واجتمعت من الدَّوافع والمغريات الشَّيء الكثير، وأمام كل ذلك يقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، ويقول: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ صبر عن المعصية، وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ أي مُؤلِم أشدّ مِن أن يرميَه إخوانه في غيابة الجبِّ يريدون قتلَه وموتَه، ثمّ يُؤخذ ويباع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تلتقطه السَّيَّارة ويباع في مصر، أمور مرّت به مؤلمة جدًّا

وصبر مطيعًا لله عابدًا لله راضيًا بأقدار الله، مبتعدًا عمّا يسخط الله جَلَّ وَعَلَا، ثمّ انظر إلى المآل الرَّشيد؛ في نهاية المطاف ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف].

فالصَّبر أمرٌ يحتاج إليه المسلم في حياته كلِّها، وخاصَّة في زماننا هذا الّذي تلاطمت فيه أمواج الفتن وتكاثرت فيه أبواب الفساد وأخذت تعصف بالنَّاس في كل صوب، وتجرف العقول، الأفكار، الأخلاق، الأديان؛ فيحتاج الإنسان إلى الصَّبر والتَّواصي به أشدّ الحاجة ليسْلم من الخسران، ولهذا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفة النَّاجين من الخسران أنَّهم يتواصون بالصَّبر؛ بالصَّبر على العلم، بالصَّبر على العمل والعبادة، بالصَّبر على الدَّعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا أوذي أحد في الدَّعوة إلى الله "اصبر يا أخي، احتسب، الأنبياء قبلك أوذوا، سيِّد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أوذي، اصبر واحتسب، لك العاقبة الحميدة"، فبمثل هذا التَّواصي تمضي الأمور، استقامةً للعباد في أنفسهم ونشرًا لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين النَّاس؛ فما أشدَّ حاجة الإنسان ليسلم من الخسران إلى ذلك.

قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

هذه السُّورة العظيمة جمع فيها ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسباب النَّجاة من الخسران، ولا ينجو عبد من الخسران إلَّا إذا جمع لنفسه هذه الأوصاف،

وجاهد نفسه على تحقيقها وتتميمها؛ ليكون ناجيًا من الخسران، وإلَّا فإنَّ ربنَّا عَزَّوَجَلَّ أقسم أنَّ كلَّ إنسان خاسر ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

وأشير إلى أمرين:

الأول: يتعلَّق بالصَّبر؛ يقول عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصَّبرُ ضابط الأخلاق المأمور بها»[1]، وانتبه لهذه الكلمة فإنَّها عظيمة قال: «ضابط الأخلاق المأمور بها» وقد جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[2].

- ولا يمكن أن تستقيم على خُلُقٍ إلَّا بالصَّبر، الصَّبر ضابط الأخلاق المأمور بها، بمعنى أنَّ مَن لم يكن عنده صبر لن يكون يومًا من الأيام ذا خُلق، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ هذا خلق عظيم ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾[فصلت]، إذا افتقد الإنسان الصَّبر افتقد الأخلاق، إذا افتقد الإنسان الصَّبر افتقد الدِّين، إذا افتقد الإنسان الصَّبر وقع في الحرام، إذا افتقد الإنسان الصَّبر تخطَّفه اللِّئام؛

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٦٥).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٨٩٥٢)، والحاكم في «مستدركه» (٤٢٢١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٥).

ولهذا يحتاج الإنسان إلى الصَّبر في جميع أبواب الدّين، في جميع أموره وشؤونه.

- **الثَّاني**: الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعطى خلاصة تُستفاد مِن هذه السُّورة العظيمة قال فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكمال – أي في الإنسان – أن يكون الشَّخص كاملًا في نفسه مُكمِّلًا لغيره، وكماله – أي في نفسه – بإصلاح قوَّتيْه العِلميَّة والعَمليَّة، وإصلاحك قوَّتك العلميَّة هذا في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وإصلاحك لقوَّتك العمليَّة بقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وتكميلك للآخرين قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾»[1].

فجمعت هذه السُّورة ما يكون به كمال الإنسان وهو أن يكمل في نفسه إيمانًا وعملًا، وأن يسعى في تكميل الآخرين نصحًا للعباد، ودعوةً إلى الحقِّ، ورحمة بالخلق، ونصحًا لدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

بعد ذلك نقل المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة عظيمة للإمام الشَّافعيِّ قال فيها: «**لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ**»؛ يظهر أنَّ هذه الكلمة المنقولة عن الشَّافعيِّ منقولة عنه بالمعنى؛ فقد يكون الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقف عليها في بعض المصادر منقولة عنه بالمعنى، أمَّا لفظ كلام الشَّافعيِّ كما في مصادرَ عديدة نقلَته عنه ومنها «مناقب الشَّافعيِّ» رَحِمَهُ ٱللَّهُ لفظه: «لو فكَّر النَّاس في هذه السُّورة لكفتهم»، ولهذا سمعت مرَّة شيخنا الشَّيخ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦).

حمَّاد الأنَّصاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لقد بحثنا وفتَّشنا كثيرا عن هذه الكلمة بهذا اللَّفظ فلم نجدها، وقد وجدتها في «مناقب الشَّافعيّ» للبيهقيّ وغيره بأسانيدَ رائعة بلفظ: لو فكر النَّاس في هذه السُّورة لكفتهم» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذه كلمة عظيمة جدًّا من الإمام الشَّافعيّ رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مكانة هذه السّورة وعظيم شأنها، ولهذا قال أحد أئمَّة الدَّعوة وهو الشَّيخ عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقًا على مقولة الشّافعيّ هذه، لماذا قال الشَّافعيّ «لكفتهم»؟ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلتُ: لأنَّها تتضمَّن الأصول الدّينيّة، والقواعد الإيمانية، والشّرائع الإسلاميّة، والوصايا المرضيّة»[1]؛ فهذا كلّه جمعته هذه السّورة الوجيزة البليغة.

هل معنى قوله «لكفتهم» أنها تُغني عن دراسة أمور الشَّريعة وتغني عن الفقه في الدّين وتعلُّم الأحكام ومسائل الدّين؟ الجواب: لا، لكن المراد به أنَّها كفى بها واعظًا جامعًا موجزًا بليغًا في الحثّ على العلم والعمل والدَّعوة والصَّبر، كفى بها دلالة على ذلك، وليس المراد أنَّها كافية ومغنية للإنسان عن طلب العلم؛ ولهذا لمّا نُقل للشيخ عبد اللَّطيف كلام شخص كتب لصاحبه وصيَّة؛ وكأنَّ صاحبه أراد أن يرحل في طلب العلم على العلماء؛ فكتب له يوصيه: «يكفيك لطلب العلم سورة العصر»؛ يعني أنّك

(١) «الدرر السنية» (١٠/ ٣٧٥).

لا تحتاج إلى الرّحيل إلى العلماء ولا أن تقرأ الكُتب وتطَّلع على كلام العلماء؛ يكفيك لطلب العلم سورةُ العصر، فكتب الشَّيخ عبد اللَّطيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا في ردِّ هذه المقالة وبيانًا لمُراد كلام الشَّافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ قال: «اعلم أنَّ قول الشَّافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه دلالة ظاهرة على وجوب طلب العلم مع القدرة في أيّ مكان، ومن استدلّ به على ترك الرِّحلة والاكتفاء بمجرد التَّفكُّر في هذه السّورة فهو خليُّ الذِّهن مِن الفهم والعلم والفكرة إن كان في قلبه أدنى حياة ونهمة للخير؛ لأنَّ الله افتتحها بالإقسام بالعصر الّذي هو زمن تحصيل الأرباح للمؤمنين وزمن الشَّقاء والخُسران للمعرضين الضَّالين، وطلبُ العلم ومعرفةُ ما قصد به العبد مِن الخطاب الشرعيّ أفضلُ الأرباح وعنوانُ الفلاح، والإعراضُ عن ذلك علامة الإفلاس والإبلاس، فلا ينبغي للعاقل العارف أن يضيِّع أوقات عمره وساعات دهره إلَّا في طلب العلم النَّافع والميراث المحمود، كما قيل في المعنى شعراً:

أَلَيْسَ مِنَ الخُسرانِ أنَّ لياليًا
تمرُّ بِلا نَفْعٍ وتُحْسَبُ مِنْ عُمْرِي!!»[1]

انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه إيضاحٌ وافٍ وبيانٌ شافٍ لمراد الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن مقولته: «لو فكر النَّاس في هذه السورة لكفتهم»[2].

(١) «الدرر السنية» (٥/ ٣٤٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥٢)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦).

فالسورة وجيزة بليغة؛ كما وصفها بذلك عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصته مع مسيلمة الكذاب.

وقبل ختام هذا المبحث:

يُنقل في هذا الباب عن أبي زُمَيل قال: كنت قاعدًا عند ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجاءه رجل من أصحابه، فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة! (يعني المختار بن أبي عبيد) فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صدق!

فنفرت فقلت: يقول ابن عباس "صدق"؟!

فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هما وحيان، وحي الله، ووحي الشيطان، فوحي الله إلى محمد، ووحي الشياطين إلى أوليائهم، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾[1].

هنا نأخذ عبرة: هذا الكلام الممجوج السَّقيم الرَّكيك السَّيِّء وجد له أتباعًا وهم خَلْق كثير، ولهذا نتنبه لقول إمام الحنفاء: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم]، فيجب على المسلم أن يلجأ إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنْ يعيذَه مِن أئمَّة الضَّلال ودعاة الباطل وأن يُبتلى بشيء من ذلك، ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ دائمًا وأبدًا أن يهديَه إلى الحقِّ وأن يرشدَه إليه وأن يدلّه إلى الصّواب وأن يعيذه مِن الفتن، ومِن البدع، ومِن الأهواء ما ظهر منها وما بطن، كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا ما يوصي بهذا

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٧٩).

الـدُّعاء[١]: «اللَّهُـمَّ رَبَّ جِبْرِيـلَ وميكائيـل وَإِسْـرَافِيلَ؛ فَـاطِرَ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَـالِمَ الْغَيْـبِ وَالشَّـهَادَةِ أَنْـتَ تَحْكُـمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَـا كَـانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَـاءُ إلَـى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ»[٢]. ولهـذا أحيانـًا يـرى الإنسـان عقـولًا تضـلّ، فيهـا ذكـاء ولكن تضلّ وتنحرف!! بسبب دعاة الباطل وتزيينهم للباطل وتزويقهم له.

فيجـب علـى المسـلم أن يحـرِصَ علـى سـعادة نفسـه وسـلامتها مِـن الخُسـران، وأنْ تعظُـم عنايتُـه بهـذه السُّـورة العظيمـة «سـورة العصـر»، أن يقرأها متـدبِّرًا معانيَهـا متـأمِّلًا في دلالاتهـا، وأن يراجعَ كـلام أهـل العلـم في كتب التَّفسير المعتمدة في بيـان مضـامين هـذه السُّـورة العظيمـة؛ لتكـون لـه بوابـةً للخيـر ومـدرجًا للفـلاح ومرتقًـى للرِّفعـة والسَّـلامة مِـن الخسـران.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١٠٣).

(٢) رواه أبو داود (٧٦٧)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٧٤٣).

فائدة: قال العلامة ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللهُ: «تَوَسَّلَ ﷺ إِلَى رَبِّهِ بِرُبُوبِيَّةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، إِذْ حَيَاةُ الْقَلْبِ بِالْهِدَايَةِ. وَقَدْ وَكَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ بِالْحَيَاةِ: فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ، وَمِيكَائِيلُ بِالْقَطْرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَإِسْرَافِيلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَالَمِ وَعَوْدِ الْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَادِهَا. فَالتَّوَسُّلُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ بِرُبُوبِيَّةِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الْعَظِيمَةِ الْمُوَكَّلَةِ بِالْحَيَاةِ، لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ» «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٨٨).

والمعين على ذلك كلِّه والموفِّق هو الله وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «بَابُ العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيل قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمَّد] **فَبَدَأَ بِالْعِلْم قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ».**

فهذه خاتمةُ الرِّسالة الأولى مِن الرَّسائل الَّتي صُدِّرت بها الأصول الثّلاثة، في هذه الرِّسالة تكلَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن واجب مِن الواجبات على كلِّ مسلم ومسلمة ألا وهو: تعلُّم أربعِ مسائل، وذكر المسائل الأربع وهي: العلم، والعمل، والدّعوة، والصَّبر، وذكر الدَّليلعليها.

ثمّ ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الخاتمة الَّتي بيَّن فيها مكانةَ العلم العظيمةَ ومنزلته العليّة، وأنه به يُبدأ، وأنه مقدمٌ على القول والعمل؛ وذلك لأنَّ قول الإنسان إن لم يكن عن علم قد لا يكون قولًا سديدًا، وعمل الإنسان إن لم يكن عن علمٍ قد لا يكون عملًا صالحًا، ولهذا لا يميَّز بين القول السّديد وغير السّديد، وبين العمل الصّالح وغير الصّالح إلّا بالعلم، ولهذا كان العلم مقدَّمًا على القول والعمل، وأنَّ تعلُّم المسلم فرائضَ الدّين واشتغاله بمعرفتها، مقدَّمٌ على الأقوال الّتي هي الذِّكر والدُّعاء ونحو ذلك، ومقدَّم على الأعمال الّتي هي العبادات؛ لأنَّ العبادات لا تصحُّ إلَّا بالاتِّباع، والاتّباع لا يُعرف إلّا بالعلم، ولهذا كان العلم مقدَّمًا.

فنقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام البخاريّ في كتاب العلم مِن «كتابه الصَّحيح»، عقد ترجمةً عَنْوَن لها بقوله «**بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ**»[1] أي أنَّ العلم مقدَّمٌ، والمراد بالعلم هنا: العلم الفرض؛ لأنَّ العلم نوعان: علمُ فرضٌ، وعلمٌ ندبٌ، وأيضًا العلم نوعان: علمٌ عينيٌّ، وعلمٌ كفائيّ؛ العلم الكفائيّ: هو الّذي إذا حصل مِن البعض كفوا الباقين، وإن لم يحصل مِن الجميع أثمّوا جميعًا.

فالشَّاهد أنَّ العلم الفرض العينيّ هذا مقدَّم على القول ومقدَّمٌ على العمل؛ لأنَّه لا يستطيع أن يؤدِّيَ فرائض الإسلام ولا يستطيع أن يقوم بواجبات الدّين إلَّا إذا كان عنده علمٌ بما افترضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعنده علمٌ بكيفيَّة أداء ما افترض جَلَّ وَعَلَا، وهذا كلُّه يتطلَّب مِن العبد أن يتعلَّم فرائض دينه والواجبات الّتي أمره بها ربُّه جَلَّ وَعَلَا وأمره بها رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

«**قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: بَابُ العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ**» أي أنَّ العلم مقدَّمٌ على القول والعمل، وعباداتُ الإنسان إن لم تكن مبنيّةً على العلم فإنَّه سيقع في أنواع من الجهالات والبدع والضَّلالات الّتي ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها مِن سلطان، قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[2]؛ فالعلم مقدمٌ وبه يُبدأ.

---

(١) «صحيح البخاري» [كتاب العلم (١/ ٣٧)].

(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٥٥).

والبخاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ لمَّا قرَّر هذا الأمر في هذه التَّرجمة - وفقه البخاريّ يُؤخذ من تراجمه - استدلّ عليه بالآية الكريمة في سورة محمَّد ﷺ؛ وهي قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ فبدأ جَلَّ وَعَلَا بالعلم، وقد صحّ عن نبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه قال في سياقٍ آخر - لكنّه ينطبق أيضًا على هذا السياق ونظائره - قال: «نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»[1] لمّا صعد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى الصّفا بدأ بالصّفا وقال: «نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» وتلا الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ [البقرة]؛ فالله بدأ بالصَّفا إذاً نبدأ بما بدأ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به؛ لأنَّ البدء بالشَّيء يدلّ على تقديمه، ويدلّ على الاهتمام به.

وهنا نلاحظ: ذُكر في الآية الكريمة عِلْم وهو ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾، وذُكر فيها قول وهو: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، لكنّه قدَّم العلم على القول، فعُلم بذلك أنَّ العلم مقدَّمٌ؛ مقدَّم على التَّهليل والاستغفار والذِّكر والحمد وغير ذلك من الأذكار، ومقدَّمٌ أيضًا على العبادات؛ لأنَّ مَن يأتي بهذه الأعمال ومَن يأتي بهذه الأذكار عن غير علم سيقع في أنواعٍ مِن البدع، سيقع في أنواعٍ من الضَّلالات الّتي ما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها من سلطان، ولهذا كان العلم مقدَّما.

(١) رواه أبو داود (١٩٠٥)، والترمذي (٨٦٢)، والنسائي (٢٩٦١)، وابن ماجه (٣٠٧٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٤٥).

وقد تكاثرت النَّصوص في القرآن والسُّنّة في التّرغيب فيه وبيان فضله وفضل أهله، وعظيم ثوابهم عند الله جَلَّوَعَلَا، قد جاء في «الحديث الصَّحيح» حديث أبي الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النَّبيّ ﷺ قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[1].

قال في صدر هذا الحديث: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ**»؛ فالعلم هو الّذي يمهِّد لك الطَّريق إلى جنات النَّعيم، ومِن المعلوم أنَّ الجنّة لا تُنال بعد رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلَّا بالإيمان والأعمال الصالحة، «**وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ**»[2]، كيف السَّبيل إلى معرفة الإيمان وأصوله مِن دون العلم؟ وقد قال لنبيه ﷺ في

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٥)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٩٢)، والنسائي (٢٩٥٨)، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (ص ٤٢٤).

القرآن قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى]، فالإيمان لا يُعرف إلَّا بالعلم الَّذي هو وحي الله جَلَّوَعَلَا وتنزيله؛ كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ.

وفد عبد القيس لمَّا قالوا للنَّبيّ ﷺ: «فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ»..

قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**».

قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ»(١)، شرح لهم الإيمان.

إذاً كيف السَّبيل إلى معرفة الإيمان بعقائده الَّتي في القلوب وأعماله الَّتي تكون على الجوارح؟ إلَّا بالعلم، ولهذا العلم مقدَّم وبه يُبدأ.

ومن الخطأ الفادح أن يشتغل الإنسان بعباداتٍ وقُرباتٍ وأذكارٍ ودعوات ولا يكون قد بنى ذلك على العلم الَّذي هو وحي الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، والله يقول: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف]، ولهذا إذا فارق الإنسان

---

(١) رواه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

العلمَ وجانبه وابتعد عنه ضاعت أعماله، وذهبت، ولم ينتفع بها.

ولهذا كان طَلَبُ العلم فريضةً فيما يتعلَّق بما لا يتمُّ الواجب إلَّا به مِن فرائض الدّين وواجباته حتّى يكون المسلم في عبادته يعبد الله على بصيرة وعلى بيِّنة، والآية واضحة الدَّلالة على ذلك، بدأ بالعلم ثمّ ثنَّى بالعمل، فقدَّم ربُّنا جَلَّوَعَلَا العلم على العمل، قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾؛ وذكر هنا في هذا المقام أعظم علمٍ على الإطلاق، ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا أعظم علم، أعظم شيء يتعلَّمه العبد في هذه الحياة هو المنصوص عليه في الآية ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ليس في العلوم الّتي بين النَّاس علمٌ أشرفَ ولا أعظمَ مِن هذا العلم، ويقولون: «شرف العلم مِن شرف المعلوم»، وأيُّ أمرٍ أعظم وأشرف مِن العلم بالتَّوحيد الّذي هو حقّ الله على العبيد؟ والّذي إنَّما خُلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات]، ولأجله بَعث الرُّسلَ جَلَّوَعَلَا وأنزل الكتب، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء] فهذا أشرف العلم وأعظمه وأجلُّه على الإطلاق ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولهذا انظر إلى ما خرَّجه مسلم في «صحيحه» عن عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النَّبيّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،**

دَخَلَ الْجَنَّةَ»[(١)].

فالعلم بأنَّه لا إله إلَّا الله هو أشرفُ علمٍ على الإطلاق، ولا يوجد علم مِن العلوم أشرف منه؛ ولهذا لمَّا ذكر النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شعب الإيمان قدَّمه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[(٢)].

ولما ذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مبانيَ الإسلام قدَّمه: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[(٣)] فقدَّمه؛ قدَّمه في ذكر شعب الإيمان، وقدَّمه في ذكر مباني الإسلام فهو العلم المقدم، وهو أولى العلوم، بل هو ركيزةُ العلوم وأساسها، وقوامُ الدّين وقيامه، وأصلُ الملّة الّتي عليه تبنى، قال الله جَلَّ وَعَلَا في بيان هذا وعظم شأنه ومكانته في العلوم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم]، والكلمة الطَّيّبة «لا إله إلَّا الله» كلمة التَّوحيد، فإذا أردت أن تعرف مكانة العلم بأنَّه

---

(١) رواه مسلم (٢٦).

(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٣) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

لا إله إلا الله مِن بين العلوم فهو كمكانة الأصول مِن الأشجار والقواعد مِن البنيان؛ كما أنَّ البناء لا يقوم إلَّا على عماده، والأشجار لا تقوم إلَّا على أصولها؛ فالدّين لا يقوم إلَّا على هذا الأصل العظيم والأساس المتين «لا إله إلا الله»، ولهذا قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ما المراد بقوله: اعلم أنَّه لا إله إلّا الله؟ هل المراد العلم بهذه الألفاظ؟ أم أنّ المراد فهم معناها ومدلولها ومقصودها فهمًا صحيحًا؟

وتأمّل في هذا قول الله سبحانه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [الزخرف]، قال غيرُ واحدٍ من المفسرين: إلَّا مَن شهد بلا إله إلَّا الله وهم يعلمون معنى ما شهدوا به، فإذًا الّذي ينطق «لا إله إلا الله» لا يكفي مجرد النّطق، لا يكفي مجرد التَّلفظ، لابدّ أن يعلم معنى هذه الكلمة وأن يعرف مدلولها، وهذه الكلمة تدلّ على التَّوحيد والإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وإفراده وحده بالعبادة والبراءة مِن الشِّرك والخلوص منه؛ لأنَّ هذه الكلمة قائمةٌ على ركنين: نفيٌ واثبات، نفيٌ في أوَّلها، وإثباتٌ في آخرها، ولا يكون مِن أهلها إلَّا من عرف ما نفت فنفاه، وما أثبتت فأثبته ليكون بذلك من أهلها حقًّا وصدقا، لا أن يقول لفظًا لا يدري ما هو، وكلامًا لا يعرف معناه، قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ اشترط العلم ليكون العبد من أهلها، فـ«لا إله إلا الله» أوَّلها نفي وآخرها إثبات؛ أوَّلها نفيٌ عامٌّ للعبوديَّة عن كلِّ مَن سوى الله، وآخرها إثباتٌ خاصٌّ للعبوديَّة بكلِّ أنواعها لله

وحده؛ ذلًّا وخوفًا ورجاءً ورغَبًا ورهَبًا وذبحًا ونذرًا وغير ذلك، كلّ ذلك لله، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام] فهذه الكلمة تدلّ على التَّوحيد، تدلّ على الإخلاص، تدلّ على وجوب إفراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة والبراءة مِن الشِّرك.

والله في الآية يقول: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾؛ انتبه هنا ثمّة دلائل وبراهين عديدة وكثيرة ذُكرت في كتاب الله وذُكرت في سنّة النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تهديك وترشدك إلى الحقيقة وهي أنَّه «لا إله إلا الله» لا معبود بحقٍّ إلَّا الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، والقرآن اشتمل على ذكر دلائل كثيرة جدًّا ترشد العبد وتدلّه إلى أنّه لا إله إلّا الله.

لخّص هذه البراهين وجمع جملّة طيّبة منها الإمام العلامة الشَّيخ عبد الرّحمن بن ناصر السّعديّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية مِن [سورة محمَّد]، في كلام نفيس جدًّا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال

وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا، وعلما - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد

أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرر الباطل والشبه - إلا نموا وكمالا.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره»[(١)].

هذا كلام عظيم جدًّا يُبيِّن فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ براهين القرآن ودلائله وشواهده المتنوِّعة الدَّالة على أنَّه لا إله إلَّا الله، وهذه الطَّرائق والبراهين الّتي أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جملّة منها هي براهين تكررت في مواضع عديدة منه؛ كلُّ ذلكم ترسيخًا للعلم بأنَّه لا إله إلَّا الله، وليكون هذا في قلب المسلم أرسخ ما يكون رسوخ الجبال الرَّواسي، وكلَّما عظُمت عناية العبد بمعرفة هذه الشّواهد والبراهين مِن خلال ما دلّ عليه كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وما دلَّت عليه

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٧٨٧).

سنة النَّبيّ ﷺ زاد التَّوحيد في قلبه تمكُّنا وزاد الإيمان رسوخًا في قلبه.

وشَرْح هذه البراهين الّتي أشار إليها رَحِمَهُ ٱللَّهُ والوقوف عندها وذِكْر شيءٍ مِن شواهدها أمرٌ تطول به العبارة، لكنِّي أشير إلى إشاراتٍ ينفع الله جَلَّ وَعَلَا بها.

عندما تقرأ [آية الكرسيّ] الّتي هي أعظم آيةٍ في كتاب الله؛ بدأت أوّل ما بدأت بهذا الأمر الّذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ أن نعلمه ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بُدأت به قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا صدر [آية الكرسيّ]، ثمّ أتبع ذلك بالبراهين والدلائل والشّواهد على ذلك، قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

فعندما يقف المسلم على هذه البراهين - وفي آية الكرسي اثنا عشر برهانا - على أنّه «لا إله إلا الله» ويصحّ فهمه لها ودرايته بمدلولها ووقوفه على مقصودها؛ أيمكن أن يُقبِل قلبُه على غير الله طلبًا ودعاءً، رجاءً ورغبًا؟ أبدًا لا يمكن؛ لأنَّ هذه البراهين تأخذ بالقلب مأخذًا عظيمًا إلى التزام التَّوحيد ولزوم الإخلاص ومجانبة الإشراك واتِّخاذ الأنداد، اقرأ خواتيم سورة الحشر؛ صدَّرها بهذه الكلمة العظيمة قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ

ﵟٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ
ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤ﵞ [الحشر]، مَن يقف على هذه البراهين الجليّة والحجج الواضحة على وجوب توحيد الله وإخلاص الدّين له تَبَارَكَوَتَعَالَى أيمكن أن يتَّجه قلبه إلى غير الله سؤالًا ورغبًا ورهبًا وطلبًا؟

حاشا وكلا!

ولهذا من يتَّجهون في دعواتهم إلى غيرِ الله - مِن المقبورين أو غيرهم- طامعين راجين متذلِّلين خاضعين أين هم مِن هذه الدَّلائل؟ أين هم مِن هذه البراهين والحجج البيّنات في كتاب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؟ لولا أنَّ القلوب طمست والأبصار عميت عن الشَّواهد البيّنة والحجج الظاهرة المضيئة، والعياذ بالله.

فإذا وقف الإنسان على هذه البراهين أدرك يقينًا وعرف قطعًا أنَّه «لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحقٍّ سواه جَلَّوَعَلَا، وإذا وقف المسلم على هذه البراهين زاد توحيده رسوخًا، وإيمانه تمكُّنًا، وإقراره ثباتًا، وابتعدت عنه الشُّبهات الصَّارفة والأهواء الجارفة الّتي ضيَّعت كثيراً مِن النَّاس عن الحقِّ والهدى، ولهذا ينبغي على المسلم أن يعنى بهذه البراهين في كتاب الله الّتي تُعينه على فهم أنّه «لا إله إلا الله»، أي لا معبود بحقٍّ سواه؛ هذا

أمر.

الأمر الآخر: قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا الأمر يدلّ على وجوب هذا العلم، وأنّه فريضة، بل أنّه أعظم الفرائض؛ لأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قدَّمه وبدأ به.

وهذا يتناول العلم بمعنى هذه الكلمةِ والرُّكنين اللَّذيْن قامت عليهما - النفي والإثبات -، والعلم أيضا بشروط هذه الكلمة الّتي لا تُقبل إلَّا بها، فـ«لا إله إلا الله» شأنها شأن أمور الدّين الأخرى، الصَّلاة لا تقبل إلّا بشروط، الحجّ لا يقبل إلا بشروط، الصّيام لا يقبل إلا بشروط مبيّنة في كتب الفقه، و«لا إله إلا الله» لا تقبل إلا بشروط بيّنها أهل العلم مستنبطين لها ومستخرجين لها من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا قيل لوهب بنِ منبه - وهو من علماء التابعين -؛ قيل له: أليست لا إله إلا الله مفتاح الجنّة؟ قال: «بلى، ولكن ما مِن مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاحٍ له أسنان فتح لك، وإلَّا لم يفتح» يشير إلى شروط هذه الكلمة، وقيل للحسن البصريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أليس مَن قال «لا إله إلا الله» دخل الجنّة؟ قال: «من أدى حقَّها وفرضها دخل الجنّة» يشير إلى شروط هذه الكلمة[1].

وأهل العلم عندما تتبَّعوا كلام الله وكلام رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في بيان

---

(١) أورد هذه الآثار الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كلمة الإخلاص» (ص:١٤).

ما تتوقَّف «لا إله إلا الله» في قبولها عليه تبيّن أنّ «لا إله إلا الله» لها شروطٌ سبعة لا تكون مقبولةً إلّا بها، وهي:

أوَّلًا: العلم بمعنى هذه الكلمة نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل.

ثانيًا: اليقين المنافي للشّكّ والرّيب.

ثالثًا: الإخلاص المنافي للشِّرك والرِّياء.

رابعًا: الصِّدق المنافي للكذب.

خامسًا: القبول المنافي للرّدّ.

سادسًا: الانقياد المنافي للتّرك.

سابعًا: المحبّة المنافية للبغض.

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصِدْقُكَ مَعْ
مَحَبَّةٍ وانْقِيَادٍ والقَبُول لَهَا

فهذه شروطٌ سبعة لا تكون «لا إله إلا الله» مقبولةً إلَّا بها.

وليس المراد بهذه الشُّروط أن تُعرف فقط بل المراد بها أن تُحقَّق، ولهذا قال بعض أهل العلم: كم مِن إنسان يجري في هذه الشُّروط جري السَّهم -يعني سريعًا في ذكره لها- ولكنَّه لا يحققها!! وكم مِن عاميّ لو قيل له عدّدها لا يحسن، لكنّه محقّق لهذه الشروط.

فإذاً العبرة بتحقيق هذه الشُّروط والقيام بها والإتيان بها ليكون الإنسان بذلك من أهل «لا إله إلا الله» حقًّا وصدقًا.

أما العلم فدليله قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف]، وقوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١).

ودليل اليقين قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات] أي: أيقنوا ولم يشكُّوا، وفي «صحيح مسلم» قال نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٢)، فاشترط عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اليقين.

❖ وأمّا الإخلاص فدليله قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة].

❖ وأما الصِّدق فدليله قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون] أي: كاذبون في شهادتهم؛ لأنَّهم غير صادقين فيها مع الله جَلَّ وَعَلَا.

❖ وأمّا المحبّة فدليلها قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة].

(١) رواه مسلم (٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٧).

❖ وأمّا الانقياد فدليله قول الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر].

❖ وأمّا القبول فدليله قول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ [الصافات].

فهذه شروطٌ سبعةٌ لكلمة التَّوحيد «لا إله إلا الله»، لا تُقبل هذه الكلمة مِن العبد إلّا إذا أتى بها، قال أحد أهل العلم نظمًا:

وبِشُـــرُوطٍ ســـبعةٍ قـــدْ قُيِّـــدَتْ
وفي نُصُـــوصِ الـــوَحْيِ حقًّـــا وَرَدَتْ

فإنَّـــــهُ لا يَنْتَفِـــــعْ قائِلهـــــا
بـــالنُّطقِ إلَّا حيـــثُ يَسْـــتكْمِلُهَا

العلـــــمُ واليَقِـــــينُ والقَبُـــــولُ
والانْقِيَـــادُ فَـــادْرِ مـــا أقُـــولُ

والصِّـــدقُ والإخـــلاصُ والمحبَّـــه
وفَّقَـــكَ الله لِمَـــا أحبَّـــه

هذه في «سلم الوصول» للشَّيخ حافظ حكميّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وله شرحٌ عليها

نافعٌ ومفيد جدًّا في كتابه «معارج القبول»[١].

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾؛ الاستغفار عمل؛ ويكون باللّسان، لكن الله ذكره بعد العلم بالتَّوحيد.

ولاحظ هنا في الآية فائدةً عظيمة وهي: أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جمع بين التَّوحيد والاستغفار، اللَّذان هما أعظم الأمور الّتي يحصل بها غفران الذُّنوب، ففي الحديثِ القدسيّ حديثِ أنس بن مالك الّذي رواه الإمام التِّرمذيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره يقول النَّبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربه أنّه قال: « قَالَ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »[٢]؛ فذكر في هذا الحديث أعظمَ أسباب مغفرة الذُّنوب وهي: الدُّعاء مع الرجاء، والاستغفار، والتَّوحيد.

والتَّوحيد أساس المغفرة، ومَن لم يكن ذا توحيد فلا مطمع له في مغفرة الله إذا مات على ذلك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٣٧٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧).

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء].

والاستغفار شأنه عظيم في محو السّيِّئات، ولهذا تأتي أذكار ودعوات نبويّة عديدة فيها التَّوحيد والاستغفار معًا، مثل دعوة ذا النُّون جمعت بين الأمرين ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء]، ومثل سيِّد الاستغفار «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ**»[١]، جمع فيه بين التَّوحيد والاستغفار، وجاء في الحديث عن النَّبيّ ﷺ: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ**»[٢]، وجاء في أحاديث كثيرة يجمع فيها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بين هذين الأمرين: التَّوحيد والاستغفار؛ وذلك أنّهما أعظم ما ينال به العبد غفران الذُّنوب، ولهذا كان حريًّا بالعبد أن يُعنى بالتَّوحيد تحقيقًا له في نفسه، وأن يعنى أيضًا بطلب المغفرة له ولإخوانه.

قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ وهذا أيضًا فيه دلالة على فضيلة الاستغفار للمؤمنين وشرفه، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك صفةً للأنبياء

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).

(٢) رواه أبو داود (١٥١٧)، والترمذي (٣٥٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٨٣١).

وصفةً لأهل الإيمان قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر]، فاستغفارك للمؤمنين شأنه عظيم وثوابه عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى جزيل، وقد جاء في الطّبرانيّ بإسنادٍ جوَّده بعض أهل العلم أن النَّبيّ ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَات كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً**»(١)؛ أي أنّك إذا قلت في استغفارك «اللّهمّ اغفر لي وللمسلمين والمسلمات» كان لك بكلِّ مسلمٍ ومسلمة حسنة مِن الأولين والآخرين، فهي حسناتٌ بالملايين وليست بالآلاف تفوز بها إذا دعوت هذه الدَّعوة.

ويدلّك على عظمة هذه الدّعوة وشرفها أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قرن الأمر بها بالأمر بالتَّوحيد الّذي هو أشرف الأمور وأعظمها على الإطلاق.

قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ وهذا أيضـًا من براهين التَّوحيد ودلائله، ومن الأمور الّتي تقوّي الصّلة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كل وقتٍ وحين، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي: يعلم أحوالكم كلَّها وتصرُّفاتكم جميعها لا يخفى عليه منكم شيء، فالإنسان عندما يغدو إلى أعماله ومصالحه، ذاهبا هنا وهناك، ربُّ العالمين على علمٍ به، وإذا أوى إلى فراشه ونام في غرفته

---

(١) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٥٥)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٥٩٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦).

خاليًا أو معه غيره في مكانٍ مظلم اللهُ عليمٌ به، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾؛ فهو جَلَّ وَعَلَا عليمٌ بالعباد مطَّلعٌ عليهم.

ولهذا مِن الأمور الّتي تعين الإنسان على تتميم إيمانه وتقوية دينه وتقوية صلته بربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أن يعلم أن ربه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَى مطَّلعٌ عليه أينما كان، ويراه أينما ذهب ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك]، ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق]؛ فعِلْمُ العبد بأنَّ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَى عليمٌ به مطَّلعٌ عليه أكبر واعظٌ له.

وقد ذكر الإمام الشَّيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»[1] أنَّ العلماء أجمعوا على أنَّ أكبرَ واعظ عِلمُك بأنّ الله عليمٌ بك مطَّلعٌ عليك، قال هذا باتفاق أهل العلم أكبر واعظ، ولهذا ترى أكثر الآيات في القرآن - آيات التَّرغيب وآيات التَّرهيب - مختومةً بهذا: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ونحو ذلك من الخواتيم لكثير مِن آي القرآن الكريم، وهنا في هذه الآية ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي: على كلِّ حال وأينما تكونون، في الغدوِّ والرَّواح، في اللَّيل والنَّهار، في كلِّ وقتٍ وحين؛ الله عليمٌ مطّلعٌ عليكم لا تخفى عليه منكم خافية؛ فهذا كلّه من الأمور الّتي تعين العبد على تحقيق إيمانه وتتميم دينه وتقوية صلته بربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

---

(١) «العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ» (١/ ٣٩٢).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فبدأ بالعلم قبل القول والعمل**» أي: بدأ هذه الآية الكريمة بالعلم قبل القول والعمل، وهذا وجه استدلّال الإمام البخاريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية على البدء بالعلم وتقديمه على الأقوال والأعمال.

يقول الشَّيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على هذا الموضع: «استدل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية الكريمة على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل، كما استدل بها البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على صحة ما ترجم به. وذلك أن الله تعالى أمر نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمرين: بالعلم ثم العمل، والمبدوء به العلم في قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ثم أعقبه بالعمل في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فدل على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، وأن العلم شرط في صحة القول والعمل. فلا يعتبر إلا به، فهو مقدم عليهما، لأنه مصحح النية المصححة للعمل»[(١)].

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**اعلمْ رحِمكَ اللهُ: أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ ثلاث هذه المسائل والعملُ بهنَّ:**

الأولى: أنَّ اللهَ خَلَقَنا ورَزَقَنا ولم يتركْنا هملاً؛ بل أرسلَ إلينا رسولًا مَنْ أطاعَهُ دخلَ الجنّة ومنْ عصاهُ دخلَ النّار، والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ

(١) «حاشية الأصول الثلاثة» (ص١٨).

إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل].

الثَّانية: أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل، والدَّليل قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[الجن].

الثالثة: أنَّ مَنْ أطاعَ الرَّسول ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ له مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ. والدَّليل قوله تعَالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

الشرح:

هذه الرِّسالة الثَّانية مِن الرَّسائل الثّلاث الّتي صُدِّرت بها الأصول الثّلاثة؛ وهي رسالة عظيمة جدًّا ونافعة للغاية، جمع فيها المصنّف رحمه الله تعالى وغفر له مسائل ثلاثةً عظيمة يجب على كلِّ مسلم ومسلمة أن يتعلَّمها، وأن يعتقد مضمونها، وأن يعمل بها.

وهذه المسائل الثّلاث الّتي جمعها المصنّف هنا رَحِمَهُ اللَّهُ قال عنها الشَّيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى وغفر له: «هذه المسائل الثّلاث مِن أهمِّ

المسائل الّتي تتعلق بالتَّوحيد وحقوقه»(١)، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ نبَّه على أهميَّة هذه المسائل من جهة، ونبَّه من جهة أخرى على موضوع هذه المسائل الثّلاث وأنَّها في التَّوحيد وحقوقه.

وقد بيَّن المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسائل الثّلاث:

أولاً: أنَّ الخلق لم يُخلقوا سدى وهملًا، بل خُلقوا للعبادة وأُوجدوا للتَّوحيد، وبعث الله فيهم الرُّسل دعاةً إلى الحقّ والهدى، وأنَّ مَن أطاعهم دخل الجنّة، ومن عصاهم دخل النّار.

والمسألة الثانية: بيَّن فيها أنّ الشِّرك لا يرضاه الله بل يبغضه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويمقته أشدَّ المقت ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر]، ونهى عن ذلك جَلَّ وَعَلَا في آيٍ كثيرة مِن القرآن الكريم.

والمسألة الثالثة: بيَّن فيها رَحِمَهُ اللَّهُ ما يقتضيه التَّوحيد ويتطلَّبه مِن البراءة مِن المشركين وعدم موالاتهم ووجوب بغضهم ومعاداتهم.

فهذه رسالة عظيمة جمع المصنّف فيها رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المسائل الثّلاث؛ بدأها بقوله: «**اعلَمْ رحِمَكَ اللهُ**»، وإتيانه بـ «اعلَمْ» للتنبيه، وعرفنا سابقا أهميّة هذه الكلمة وأنّه يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة الّتي يتطلّب المقام فيها حسن الانتباه وتمام الإصغاء.

وقوله: «**رحِمَكَ اللهُ**»؛ هذا دعاء لقارئ هذا الكتاب بالرَّحمة، والدُّعاء

---

(١) «شرح الأصول الثلاثة» (ص١٣).

بالرَّحمة إذا أُفرِد يتناول غفران الذُّنوب الماضية والتّسديد في الأعمال الآتية.

قال: «**اعلمْ رحِمَكَ اللهُ**»، جمع رَحِمَهُ اللهُ بين الدَّلالة إلى الخير والدُّعاء بالخير، وهذا عمل النّاصحين؛ فالنّاصح يدلّك إلى الخير برفقٍ وحلم وحسن بيان، ويدعو لك أيضًا بالخير؛ فهذا من علامات النصح.

قال: «**اعلمْ رحِمكَ اللهُ: أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة**»؛ قوله: «يجبُ» أي: وجوبًا عينيًّا؛ لأنَّ هذه المسائل الثّلاث مِن الفروض العينيّة، ليست فرضًا كفائيًّا، وليست مِن العلم الّذي يكفي أن يتعلمه البعض فيغنون بتعلّمه الباقين عن تعلّمه، بل هو مِن العلم الّذي هو فرض عين على كلّ مكلّف؛ ذَكَرًا كان أو أنثى، ولهذا قال: «**يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ ثلاث هذه المسائل والعملُ بهنَّ**»؛ «تعلم هذه المسائل» أي معرفتهنّ والدِّراية بهنّ والوقوف على أدلتهنّ مع اعتقاد ذلك والإيمان به، يتعلم هذا الحقّ في هذه المسائل الثّلاث العظيمة ويعتقد ما دلَّت عليه.

قال: «**والعملُ بهنَّ**» وبهذا يُعلم أنّ المسائل الثّلاث الّتي سيذكرها المصنّف رَحِمَهُ اللهُ كلّهن من الأمور العمليّة، ولهذا قال: «والعملُ بهنَّ»، والعمل إنَّما يُذكر ويُطلب في الأمور العمليّة الّتي يطلب من الإنسان فيها عمل.

وأمور الإيمان عمومًا: علميّة وعمليّة؛ العلميّة: هي الأمور الّتي يُطلب

فيها مِن العبد العِلم والاعتقاد؛ مثل الإيمان بأسماء الله وصفاته، والإيمان بربوبيّته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، لكن المسائل الّتي يتحدث عنها المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى كلّها أمور عمليّة مطلوبٌ فيها العلم، وإضافةً إلى العلم العمل، وهذا منطبق على كل مسألة من هذه المسائل الثّلاث.

أنبه على ذلك من أجل أن نلحظ في كلّ مسألة من المسائل الثّلاث الآتية عند المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ جانب العمل الّذي هو مطلوب.

قال: «**اعلمْ رحِمكَ اللهُ: أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ ثلاث هٰذه المسائل والعملُ بهنَّ**»؛ إذاً هذه المسائل الثّلاث فيها كلّها جانب عمليّ مطلوب.

قال: «**الأولى**» أي: المسألة الأولى من هذه المسائل الثّلاث الواجبة على كل مسلم ومسلمة.

«**أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا ولم يتركْنا هملاً؛ بل أرسلَ إلينا رسولاً فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنّة ومنْ عصاهُ دخلَ النّار**»؛ «أنَّ اللهَ خَلَقنا ورزَقَنا» أي تفرد تَبَارَكَوَتَعَالَى بخَلْقنا وإيجادنا مِن العدم، وتفرد تَبَارَكَوَتَعَالَى برزقنا والإنعام علينا وموالاة المنن والنّعم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل]؛ فلا شريك له في الخلق ولا شريك له في الرِّزق؛ بل هو وحده تَبَارَكَوَتَعَالَى المتفرّد بذلك كلّه.

ولم يخلق هذا الخلق ويرزقهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بأنواع النّعم والعطايا

والمنن ليبقوا هملا؛ أي: مُهملين معطّلين مِن الطَّاعة والعبادة والذّل والخضوع لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال: «**ولم يتركْنا هملا**»؛ أي مُهملين دون أن نُؤمر أو نُنهى، تنزه وتقدس تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن ذلك، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] أي لا يؤمر ولا ينهى، هذا أمر ينزَّه الرّب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنه؛ فهو خلق الإنسان ومنّ عليه بأنواع النعم وتفضل عليه بصنوف المنن ليقوم بعبادة الله وطاعته، والذّل له والخضوع بين يديه، وتحقيق التَّوحيد له، وإفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده بالعبادة وطاعته جَلَّ وَعَلَا فيما يأمر به.

والكفّار زعموا في الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذلك، ولهذا يوم القيامة إذا دخلوا نار جهنّم يقال لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون] هذا يُقال للكافر فيسمعه وهو في نار جهنم، واقرأ السِّياق قبل هذه الآيات يدلّك على ذلك: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون] فهذه كلمات تُقال للكافر وهو في النّار تقريعا له

وتوبيخًا؛ لأنَّه ادَّعى في الدّنيا أنّه مخلوق للعبث، فأمضى دنياه وحياته كلّها في اللّعب والعبث؛ لا يعبد الله، ولا يذلّ له، ولا يخضع له، ولا ينكسر بين يديه، فيقال له: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: للعبث، أي: أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الخلق لا لحكمة؟! يحتمل المعنيان، والله عَزَّوَجَلَّ منزَّه عن أن يكون خلق الخلق عبثًا أو لعبًا أو باطلًا؛ ولهذا في آية أخرى قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص]؛ ظنُّ الّذين كفروا؛ أي: أنّ الله خلق الخلق باطلًا، أنَّه خلق الأرض والسّماوات باطلًا ولعبًا، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: هذه عقيدة الكفّار، ولهذا يُقرعون ويوبّخون يوم القيامة ويبكّتون فيسمعون في نار جهنم هذه الكلمات: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

الشاهد أن الإنسان لن يُترك، بل يؤمر ويُنهى وتُرسل إليه الرُّسل، فمن أطاعهم فاز برضا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وثوابه، ومن عصاهم باء بسخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وعقابه.

قال: «**ولم يتركْنا هملا**»؛ أي: أنه جَلَّ وَعَلَا خلقنا لغاية، وهذا بيَّنه في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، وليحقق النَّاس هذه الغاية بَعَث الرُّسل وأنزل الكتب كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل]،

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرسل ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أي: قبله وبعده ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١] هذه مَهمَّة الرُّسل؛ وهي الدَّعوة إلى الغاية الّتي خُلق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها.

ولما كانت معرفةُ النَّاس لهذه الغاية ولتفاصيلها وحقائقها متوقفةً على من يُبيِّن لهم ذلك ويوضِّحه؛ اقتضت حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يختار مِن النَّاس صفوتهم وخيارهم ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج] فاختار جَلَّ وَعَلَا مِن النَّاس خيارهم، واجتبى صفوتهم، وجعلهم رسلًا مبشِّرين ومنذرين ودعاة إليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وهُداة إلى صراطه المستقيم.

أرسل جَلَّ وَعَلَا رسلًا يبيِّنون للنَّاس تفاصيل الشرائع، وكيف يعبدون الله، وكيف يتقرّبون إليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على الوجه الّذي يُرضيه؛ ولهذا لو أخلص إنسان العبادة لله لكنه عبَد الله بغير ما شرع؛ كأن يقول قائل: (أنا أريد أن أعبد الله مخلصًا له الدّين، لكن أنا أخترع عبادات من عندي، لن أفعل العبادات الّتي أرشد إليها المرسلون، بل سأعبد الله بعبادات من عند نفسي جيّدة وحسنة ومفيدة، ولن أعبد الله بالأشياء الّتي دعا إليها المرسلون)؛ لا يقبل الله منه بل يُردّ عليه عمله؛ لأنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يقبل مِن

العمل إلَّا ما كان خالصًا لوجهه، موافقًا لشرعه ودينه،الّذي بعث تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به رسله.

ولهذا اقتضت حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعْثَ المرسلين، والمرسلون مَهمَّتهم بيان ما أرسلوا به، لا يأتون بشيء من عند أنفسهم بل يبلِّغون النَّاس ما أرسلوا به﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور]؛ فيأتون بالأوامر والنَّواهي في حدود ما أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، لا يزيدون ولا يُنقصون، بلَّغوا البلاغ المبين، وما تركوا خيرًا إلا دلُّوا أُمَمهم عليه، ولا شرًّا إلا حذَّروا أممهم منه؛ فهم رسل الله جَلَّ وَعَلَا، والرَّسول مَهمَّته إبلاغ كلام مرسِله.

فنلاحظ في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التّدرُّج في البيان:

أولاً: بيّن أنّ الله خلقنا ورزقنا؛ يعني تفرّد في ذلك.

ثانيا: بيّن أنّ خلْق الله جَلَّ وَعَلَا للإنسان وإيجاده له ليس هملًا أو سدى أو باطلًا أو عبثًا أو لعبًا - تنزه الله وتقدّس عن ذلك كلِّه -.

والأمر الثالث: هو أنّ الله جَلَّ وَعَلَا أرسل رسلًا للعباد يبيِّن لهم الغاية الّتي خُلقوا لأجلها، ويبيِّنوا لهم وجوب توحيدِ الله وإفرادِه بالعبادة، ويبيِّنوا لهم أنواع العبادة الّتي يتقرّبون بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويفردونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، ولهذا يقول: «**بل أرسلَ إلينا رسولًا فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنّة ومنْ عصاهُ دخلَ النّار**».

خلاصة هذه المسألة – الأولى – ومقصودها وناحيتها العلميّة: طاعة الرَّسول ﷺ؛لأنَّ الله لم يخلق الخلق هملًا ولم يتركهم سدى بل أرسل إليهم رسلاً، فما الواجب على العباد إذا عرفوا أنّهم لم يُخلقوا هملًا وأنّهم خُلقوا للعبادة وأن الله أرسل إليهم رسلا يبينّوا لهم ذلك فما هي مهمة العباد حينئذ؟ طاعة الرَّسول ﷺ.

إذاً فحوى هذه المسألة طاعة الرَّسول ﷺ، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء]، الله جَلَّوَعَلَا أرسل الرُّسل ليُطاعوا فيما يَأمرون به، وليكونوا أئمَّة للنَّاس وقدوةً لهم ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الأحزاب]، فالرُّسل هم الأئمّة، وهم الهداة، وهم دعاة الحقِّ والهدى، وهم أنصار دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، وهم الّذين يبيِّنون للنَّاس شرعَ الله ودينَه؛ فالسَّبيل إلى اللهِ ونيلِ رضاه ودخولِ جنَّته لا يكون إلّا من طريق المرسلين، ومَن طلب رضا الله مِن غير طريق المرسلين لن يفوز برضا الله، لا يمكن أن يفوز برضا الله تَبَارَكَوَتَعَالَى إلا من طريق المرسلين؛ فيعرف شرعَ الله ودينَه ومراده سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من عباده مِن طريقهم وبواسطتهم؛ فيعبد الله على بصيرة وبيِّنة.

والنَّاس مع الرُّسل فريقان: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ

عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل] «منهم مَن هدى الله» وهم الّذين اتّبعوا المرسلين، «ومنهم من حقَّت عليه الضَّلالة» وهم مَن لم يتَّبعوا المرسلين؛ أيًّا كان كفرهم وأيًّا كان ضلالهم، مَن لم ينقد للمرسلين ويتَّبع ما جاءوا به سواء كان عنادًا أو إباء أو نفاقًا أو استكبارًا أو غير ذلك، لن يفوز برضا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ رضا الله ودخولَ جنَّته له باب واحد وهو اتِّباع المرسلين، ولهذا جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِوَٱللَّهُعَنۡهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، إِلاَّ مَنْ أَبَى».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَى؟

قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[1].

سبحان الله! مَن الّذي يأبى؟! مَن الّذي يُقال له: تعال ادخل الجنّة فيقول: لا، أنا لا أريد، أنا أريد النّار؟! «**كلُّ أمَّتي يدخلون الجنّة إلَّا مَن أبى**» أمر عجيب! أليس كذلك؟ قالوا: يا رسول الله ومَن يأبى؟ مَن يقال له: ادخل الجنّة ويأبى، يقول: أنا أريد النّار، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ لأنَّ هذا أمر عجيب جدًّا، قال: «**مَن أطاعني دخل الجنّة، ومَن عصاني فقد أبى**».

إذًا مَن يعصي الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقد أبى على نفسه أن تدخلَ الجنّة، حَرَم نفسه مِن دخول الجنّة؛ لأنَّ الجنّة لا تُدخل إلَّا مِن طريق

(١) رواه البخاري ٧٢٨٠).

الرُّسل، هم الّذين يبيِّنون سبيل دخول الجنّة ويبيّنون الأمور الّتي ينال بها رضا الله ويُجتنب بها سخطه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومعصية الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على نوعين:

١- معصيةٌ له في أصول الإيمان وأركان الدّين؛ وهذه المعصية يترتّب عليها الانتقال مِن الملّة والخروج مِن الدّين.

٢- ومعصيةٌ له فيما دون ذلك؛ بارتكاب بعض الكبائر الّتي هي دون الشِّرك والكفر بالله، أو ترك بعض الواجبات الّتي لا يصل الأمر بتركها إلى الكفر بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهذه معصية دون الأولى، وهي أيضًا يستحقُّ بها فاعلها النّار وسخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه، لكنَّه إذا دخل النّار يدخلها دخول تطهير وتنقية لا دخول تخليد كما هو حال الكافر.

قال: «**بل أرسلَ إلينا رسولا**»؛ المراد بـ«إلينا» أي نحن أمّة محمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والمراد بالرَّسول المرسلُ إلينا، محمَّد ﷺ خاتم النَّبيّين وإمام المرسلين وسيِّد ولد آدم أجمعين صلوات الله وسلامه عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب].

قال: «**بل أرسلَ إلينا رسولا**» أي: منَّ علينا بهذه المنَّة، وأكرمنا بهذه الكرامة، وتفضَّل علينا بهذه النّعمة وهي بعثة محمَّد ﷺ إلينا رسولًا وداعيًا إلى الله بإذنه صلوات الله وسلامه عليه وسراجًا منيرًا، ومِن نعمة

الله علينا - أمَّة الإسلام - أنَّ نبيّنا خيرُ الأنبياء وأفضل المرسلين، وخصَّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بخصائص لم يحصل عليها ولم يُعطها نبيٌّ قبله، وأكرم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمَّته بكرامات لم تُعطها أمّة مِن الأمم، ولهذا جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ**»(١)، فالله جَلَّ وَعَلَا أكرمه بكرامات ومنّ عليه بعطايا لم يعطها نبيٌّ قبله، وهي معروفة عند أهل العلم بـ «خصائص النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ» وأفردت بمصنّفات خاصّة.

فيجب على المسلم أن يستشعر نعمة الله وفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه ومنَّته عليه بأن جعله مِن أتباع هذا الرَّسول الكريم ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨ ﴾ [التّوبة].

فأرسل إلينا جَلَّ وَعَلَا رسولًا رحيمًا - كما وصفه الله - رؤوفًا كريمًا، ناصحًا، أمينًا، مبلِّغًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ البلاغَ المبين، مجاهدًا في الله حقَّ جهاده حتّى أتاه اليقين، ما ترك خيرا إلَّا دلّ أمَّته عليه، ولا شرًّا إلَّا حذّرها منه، نصح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أتمّ النّصح، وبيّن أكمل البيان صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**أرسلَ إلينا رسولا مَنْ أطاعَهُ دخلَ الجنّة ومنْ عصاهُ دخلَ النّار**»؛

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨)، ومسلم (٨٥٥).

منْ أطاعَهُ: أي مَن أطاع النَّبيّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما يدعو إليه؛ مِن التَّوحيد والخضوع لله وفِعْل أوامره والانتهاء عن نواهيه؛ دخل الجنّة، ومنْ عصاهُ دخلَ النّار؛ وهذا معنى قول نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كلُّ أمتي يدخلون الجنّة إلّا مَن أبى**» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**مَن أطاعني دخل الجنّة، ومَن عصاني فقد أبى**» أي: أبى على نفسه دخول الجنّة.

هذه المسألة - كما قدَّمت - تتلخَّص في وجوب طاعة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومهَّد لهذه الطَّاعة بمقدِّمات وتمهيدات بيَّن مِن خلالها أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خلقنا ورزقنا، وبيَّن أنَّه لم يخلقنا هملًا لا نؤمر ولا ننهى، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرسل إلينا رسولًا؛ ينتج مِن هذه المقدّمات الثّلاث نتيجة عمليّة مطلوبة مِن الجميع وهي طاعة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنَّ مَن أطاع الرَّسول ﷺ دخل الجنّة، ومن عصاه دخل النّار.

بعد أن عرفنا فحوى المسألة ومقصودها، ما الدَّليل عليها؟

قال: «**والدَّليل قولُهُ تعالى**: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾» هذا هو الدَّليل على هذه المسألة.

قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ الرَّسول هنا هو محمَّد ﷺ والمراد بـ«إِلَيْكُمْ» أمّة محمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي: شاهدا عليكم بأعمالكم؛ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[البقرة] أي: شهيدا عليكم بأعمالكم.

قال: ﴿ شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾؛ إرسال الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إليكم ليس بدعا مِن الأمر؛ أمم مضت قبلكم وبُعث إليهم رسل؛ وكانت العواقب الحميدة لمن أطاعوا المرسلين، والعواقب الوخيمة لمن عصوا المرسلين. ومثالا على ذلك لتوضيح المقام وبيان الأمر قال: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾. وهذا المثال سيق مساق التَّحذير الشَّديد مِن عصيان الرَّسول.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ ﴾ أطيعوه، امتثلوا أوامره، اتبعوه، احذروا أن تكونوا عصاةً له، احذروا مِن ذلك ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ ماذا حصل له؟ ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴾ ما المراد بهذا المثل ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ ﴾؟ أي انتبهوا، احذروا، إياكم وعصيان الرَّسول فإن عصيان الرَّسول هلاك ودمار.

والأمثلة على ذلك في التَّاريخ كثيرة لا حدَّ لها، ومِن الأمثلة هذا المثل العجيب، كان موقف فرعون من هذا الرَّسول - الّذي هو موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - العصيان؛ عصاه، ولم يستجب له،ولم يقبل دعوته، رد وكذّب ما جاء به، واتّهمه بأنواع التّهم ﴿ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ﴾، فماذا

حصل؟

قال: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾، ما هو هذا الأخذ الوبيل؟ جاء مبيَّنا في القرآن في آي كثيرة منه، والأخذ الوبيل الّذي بُيّن في القرآن الكريم والّذي حصل ويحصل لفرعون هو أخذٌ وبيل في الدّنيا، وفي القبر - في البرزخ -، ويوم القيامة.

- **أما في الدّنيا**: فإن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أهلكه بالغرق، وكان مِن تكبُّره وتعاليه وتعاظمه وتفاخره على النَّاس قوله فيما كان يفخر به ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١] فعاقبه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالغرق، وكان إهلاكه بالغرق عجب عجاب وآيةٌ مِن آيات الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ العظيمة؛ لأنَّه لما ذهب موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومَن معه فرارا مِن فرعونَ وقصدِه قتلهم، وانطلق فرعون وجنوده خلف موسى ومَن معه إلى أن وصل موسى ومن معه إلى البحر؛ التفت مَن مع موسى إلى الوراء وإذا فرعون وجنوده وعتاولته مقبلين عليهم، عاينوا الموت؛ البحر أمامهم محيط بهم، وفرعون وصل إليهم بجنوده، وهم قلة وعُزّل ولا طاقة لهم بفرعون وجنوده، فماذا قالوا؟ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشّعراء]، وموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بكلِّ ثقة وإيمان بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشّعراء]؛ فأمره الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يضرب بعصاه البحر؛ فضرب بعصاه البحر فماذا حصل؟ أصبح الماء السّيّال جبالا واقفة، والأرض الّتي كانت رطبة

ووحلا وطينا أصبحت يابسة، أصبحت ﴿ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ [طه: ٧٧]!! آية من آيات الله، فيمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن معه على هذا الطّريق اليبس، والماء واقف عن يمينهم وواقف عن يسارهم مثل الجبال، ويمرون يمشون بين الماء، ثمّ يمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن معه كلّهم إلى الضِّفة الأخرى، ثمّ يأتي فرعون يريد أن يدرك موسى ومَن معه ويدخل هو وجنوده، فلمّا تكامل موسى ومَن معه خروجًا من البحر، وتكامل فرعون ومن معه دخولًا في البحر؛ أمر الله الماء أن يعود كما كان، وهلك فرعون ومن معه هلاك نفس واحدة، هو وهؤلاء الجنود وهذه الأعداد المهيلة كلّهم هلكوا هلاك نفس واحدة؛ هذا مِن الأخذ الوبيل في الدّنيا.

- **في القبر**– في البرزخ – كلّ يوم يعرضون على النّار؛ من حين موته ومَن معه إلى يومنا هذا عبر القرون المديدة والسّنوات الطّويلة، إلى أن تقوم السَّاعة، يوميًّا صباح مساء يعرضون على النّار، هذا من الأخذ الوبيل في البرزخ، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر] هذا في القبر.

- **يوم القيامة** ماذا سيكون؟ أشد ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر]، نكالٌ ووبالٌ وعقابٌ باء به في الدّنيا، وباء به في القبر، ويبوء به يوم القيامة، كلُّ ذلكم لماذا؟ لأنَّه عصى الرَّسول.

هنا يأتي سؤال: لِمَ ذكر الله لنا ذلك؟ هل ذكره جَلَّ وَعَلَا مجرد معلومة

نتعرف عليها؟ لا، بل فيه جانب عمَليّ مطلوب منَّا؛ وهو أن نطيع رسولنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا نعصيه؛ لأنَّ الّذي يعصي الرَّسول يأخذه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأخذ الوبيل ويعاقبه العقاب الشَّديد.

فالفوز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يكون إلا بطاعة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومَن لم يطع الرَّسول أخذه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأخذ الوبيل؛ ولهذا قال الله تعالى في القرآن في باب طاعة الرَّسول قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء]، وفي المعصية -معصية الرَّسول- قال: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء].

فإذاً هذا جانب عظيم وهذه مسألة كبيرة جدًّا ومُهمَّة للغاية يجب على كلِّ إنسان أن ينتبه لها وأن يعرفها وأن يعمل بها؛ وهي: أن يدركَ أنَّ الّذي خلقه هو الله، وأن الّذي يرزقه هو الله، وأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يتركه هملا، بل أرسل إليه رسولا، والواجب عليه طاعة الرَّسول ﷺ ولزوم ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه، ومن أطاعه دخل الجنّة، ومن عصاه دخل النّار.

ثمّ ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك المسألة الثَّانية مِن المسائل الثّلاث.

قال: «**الثانية: أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ**

مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل» أي فضلًا عن غيرهما ومَن هو دونهما؛ لأنَّ الملائكة المقربّين والأنبياء المرسلين لهم المكانة العَلِيَّة والمنزلة الرَّفيعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا كان جَلَّ وَعَلَا لا يرضى أن يُعبد معه غيرُه مِن الملائكة، ولا يرضى أن يُعبد معه غيرُه مِن النَّبيّين فغيرهم مِن باب أولى، فالعبادة حقٌّ له، خلَقَ الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها، فلا يرضى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أبداً أن يُجعل معه شريك في العبادة ولو في شيء قليل منها.

قال: «**أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه**»؛ أن يُشْرك معهُ: أي أن يُجعل معه شريك، والشريك هو المساوي والعِدْل، فلا يرضى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُجعل معه شريك في العبادة.

والعبادة: «هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»(١)، فالعبادات كلُّها حق لله؛ الصَّلاة بركوعها وسجودها، الدُّعاء، الذَّبح، النَّذر، الخوف، الرجاء... إلخ، هذه كلّها عبادات، وهي حقٌّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يرضى عَزَّوَجَلَّ أن يُصرف منها شيء ولو قليلا لغيره؛ لا للملائكة المقربّين، ولا للأنبياء المرسلين، ولا لغيرهم مِن باب أولى؛ لأنَّ مكانة الملائكة عند الله عظيمة، ومكانة الأنبياء عند الله عظيمة ولهم جاه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع هذا لا يرضى سبحانه

---

(١) من كلام الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ انظر: «العبودية» (ص٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩).

أن يُجعل له شريك في العبادة وفي حقوقه.

قال: «**أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه**» هذا فيه أنّ العبادة حق لله جَلَّ وَعَلَا، لا شريك له في ذلك، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟».

قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ».

قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ»(١)، مفهوم الحديث: أنَّ مَن يشرك بالله يعذِّبه الله ولا يغفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له ذنبه؛ لأنَّه لا يرضى جَلَّ وَعَلَا أن يُشرك به، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، والإسلام قائم على التَّوحيد، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة] وملّة إبراهيم التَّوحيد، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج]، فالله جَلَّ وَعَلَا لا يرضى الشِّرك ولا

(١) رواه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

يقبله، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣]؛ الإسلام: هو توحيد الله وإخلاص الدّين له.

فهو لا يرضى جَلَّ وَعَلَا إلّا التّوحيد، أمّا الشِّرك فلا يرضاه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ حتّى ولو كان الّذي جُعِل شريكًا مع الله ملكا من الملائكة، حتّى ولو كان الّذي جُعِل شريكًا مع الله نبيًّا مِن الأنبياء، ولو كان سيِّدَ المرسلين عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

أمّا يتعلق بالأنبياء تأتيك آيات كثيرة في القرآن تبيِّن لك أنَّا لأنبياء لا حقَّ لهم في هذا، الحقّ لله وحده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، والعبادة له جَلَّ وَعَلَا وحده؛ مثل قوله تعالى لنبيه: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾ [آل عمران] الأمر لله جَلَّ وَعَلَا، وهو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يبيّن ذلك في مقامات كثيرة؛ يقول: «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١).

وَعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قَالَتْ دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ »(٢).

ورُوي عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

(٢) رواه البخاري (٤٠٠١).

إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلاَ أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَرَفَ الْحَقَّ لأَهْلِهِ»[1].

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣١﴾[النور]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[2].

وأمّا يتعلق بالملائكة فتجد آيات كثيرة جدًّا تبيّن لك أنَّ الملائكة ليس لهم في هذا الأمر حقٌّ وأنّهم عبيد لله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا في مقام التَّحذير مِن الشِّرك في [سورة سبأ] قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: الملائكة، وهذا بيان أن هذا الخلق العظيم -الملائكة- ليس لهم من الأمر شيء وأنَّهم ضعاف فقراء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٢٣﴾ [سبأ]، جاءت السُّنة مفسّرة ومبيّنة لهذه الآية؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٨٧)، والحاكم في «مستدركه» (٧٦٥٤)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٩)، وضعَّفه الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (٣٨٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥).

ﷺ: «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا فَيُصْعَقُونَ فَلاَ يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ »، قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: الْحَقَّ.

فَيَقُولُونَ: الْحَقَّ الْحَقَّ»[(١)].

تصعق الملائكة، ثمّ إذا زال الصّعق والفزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟؛ أهؤلاء تُصرف لهم العبادة؟! يصرف لهم الذّل والخضوع والانكسار والرّغب والرّهب والرّجاء والطّمع؟! لا والله! العبادة حقّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

فالملائكة مع قوّتهم، مع كِبَر أجسامهم، مع القدرة الّتي أعطاهم الله إيّاها لا يستحقُّون مِن العبادة أيّ شيء.

والنَّاس في هذا الباب يفتنون، وأكثر ما يفتن النَّاسَ في باب الشِّرك عندما يرون أشياء خارقة للعادة، فكيف تكون حال كثير مِن النَّاس لو رأوا ملَكًا بقوَّته وشدّته وما أعطاه الله مِن القدرة؟!

عندما يخرج الدَّجال في آخر الزمان على هيئة مبيَّنة في السُّنّة؛ أعور، مكتوب على جبهته: كافر «ك ف ر» لا يراها إلَّا المؤمن، يمرُّ على المدن

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٦).

والقرى ويأمرهم باتِّباعه، إن اتبعوه وأطاعوه أمَرَ السَّماء أن تمطر فتمطر، يقول للسَّماء أمطري فينزل المطر، ويقول للأرض أنبتي فيخرج النّبات، وإذا قال لقرية اتّبعوني فأبوا قال لكنوز القرية وخيراتها اتبعيني فتمشي الكنوز وراءه، وكل من يمرّ عليهم يقول: أنا ربكم؛ هل يُصدّق ويعبد ويُقال نعم أنت ربنا؟!

ولهذا كثير من النَّاس - نسأل الله العافية والسّلامة والثّبات على الحقّ- يفتنون في دينهم وتوحيدهم بالخوارق والأشياء الّتي تبهر على العقول، وكم مِن الدَّجاجلة لبّسوا على العوام، إذا كان هذا هو الدَّجال الأكبر فقَبْله دجاجلة كثر فتنوا النَّاس في أديانهم ولبّسوا عليهم وكانت معهم الشّياطين عونًا لهم؛ فيأتون بأشياء خارقة للعادة فيُذهَل العوام وتطيش عقولهم ثمّ يطيعون هؤلاء في كلّ ما يأمرونهم به، ولو قالوا لهم اسجدوا لنا سجدوا لهم، ولو قالوا لهم ادعونا مِن دون الله دعوهم مِن دون الله، وهذا حصل في خلق كثير؛ يُصرفون عن التَّوحيد ويفتنون عمّا خلقوا لأجله بمثل هذه الأمور.

فلهذا مِن أوجب الواجبات ومِن أعظم العلوم الّتي ينبغي على المسلم أن يتعلَّمها: هذا العلم الّذي يتحدَّث عنه الشَّيخ في هذه المسألة قال: «**اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ**» كائنًا من كان بأيّ مبرِّر كان، أي صفة كانت لا يرضى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن يُشرك معه أحدٌ«**لا مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ**

مُرْسَل» فضلًا عن غيرهما.

والأدلَّة على ذلك كثيرة، لكن هذه الرِّسالة ليست مِن الرَّسائل المُطوَّلة الّتي تبسط فيها الدَّلائل، بل هي رسالة مختصرة؛ ولهذا نلاحظ أنَّ الشَّيخ يذكر المسألة ودليلًا واحدًا؛ لأنَّ المقامَ مقامُ رسالة مختصرة تُنشر بين عموم النَّاس حتّى يقفوا على المسألة بدليلها مِن كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا دليل واحد مِن عشرات ومئات الأدلَّة اقتضاه مقام هذه الرِّسالة وهو مقام الاختصار.

قال: «**والدَّليل قولُهُ تعالى**: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [**الجن**]» «أَحَدًا» ما هي هذه الكلمة؟ «لا تدعوا» نكرة في سياق النّهي؛ هل يخرج من سياق النّهي أحد؟ هل الملائكة يخرجون مِن هذا النّهي؟ الأنبياء يخرجون؟ الأولياء؟ أيًّا كان هل يخرج أحد من هذا النهي؟ حاشا وكلا!

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أيُّ أحد كان؛ لا مِن الملائكة المقربّين، ولا مِن الأنبياء المرسلين فضلًا عن غيرهم مِن المخلوقات؛ فالدُّعاء - سواء دعاء العبادة أو دعاء المسألة - كلّه حق لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس له شريك في ذلك.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ «الْمَسَاجِدَ» قيل: أماكن السّجود، وقيل: أعضاء السّجود؛ وهذه كلّها لله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ إن كان المراد بالمساجد

أماكن السّجود فالمعنى: فلا تسجدوا فيها لأحد غير الله، وإن كان المراد بالمساجد أعضاء السّجود: فلا تسجدوا بها لأحد غير الله.

«المساجد لله»، أي: أماكن السّجود لا يُسجد فيها إلّا لله «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»(١)، والمساجد - أي: أعضاء السجود - لله لا يُسجد بها إلّا لله، قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾؛ أي لا تجعلوا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شريكًا في العبادة أيًّا كان.

فإذاً من المسائل العظيمة الجليلة الكبيرة الّتي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يعرفها: أن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يرضى أن يُشرك معه أحدٌ في عبادته أيًّا كان، الدَّليل: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

والشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلّ مسائل هذا الكتاب وفي كلّ كتبه يمشي مع الكتاب والسُّنّة خطوة خطوة، كلمة كلمة، حرفًا حرفا مع كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

إذاً **المسألة الأولى**: طاعة الرَّسول؛ ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد مقدمات بين يديها.

والمسألة الثانية: توحيد الله وإخلاص الدّين له، وأنه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يرضى أن يُشرك معه أحدٌ في العبادة.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢٣).

الثالثة: أنَّ مَنْ أطاعَ الرَّسول ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ. والدَّليل قوله تَعَالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة].

الشرح:

فهذه المسألة الثَّالثة مِن المسائل الثّلاث الّتي يجب على كلِّ مسلم ومسلمة أن يتعلَّمها، وأن يعتقد مضمونها، وأن يعمل بها.

وهي مترتبة على المسألتين الأولتين ومنبنيّة عليهما، وهي بُغض الكافرين وعدم موالاتهم وتوليهم وعدم محبّتهم؛ فإن هذا أمرٌ لابدَّ منه ولا يستقيم الإيمان إلَّا به، فمَن كان مطيعًا للرَّسول ﷺ حقًّا وموحِّدً الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صدقًا فإنَّه يجب عليه أن يبغض أعداء الله وأعداء دينه وأن يبغض الكافرين المشركين؛ لأنَّ الإيمان والتَّوحيد والطَّاعة للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا تستقيم إلَّا بذلك، فلا يمكن أن يكون مطيعًا للرّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وموحِّدا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ثمّ تكون نفسه محبَّةً للكافرين مواليةً لهم غير مبغضٍ لهم، هذا لا يوجد، كما سيأتي معنا في الآية الكريمة ٱلْخِ‌لَىَّ، فإذا وُجد الإيمان الصَّحيح والتَّوحيد ووُجدت الطَّاعة للرّسول

عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنّ من لوازم ذلك ومقتضياته أن يكون مبغضًا للكافرين.

والكافر يبغضه ربُّ العالمين ولا يحبُّه؛ قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٥﴾ [الروم]، والكافر أشدّ النّاس ظلمًا؛ لأنَّ ظلمَه وعدوانَه في حقوق الله على عباده وما خلقهم تبارك وتعالى لأجله وأوجدهم لتحقيقه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة]، وقد أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في آيٍ كثيرة مِن القرآن ببُغض الكافر وعدم توليه، وذكر الله جَلَّ وَعَلَا ذلك في مقتضيات الإيمان حيث تُبدأ الآيات في هذا الباب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فبناء على هذا لا يستقيم الإيمان بالله وتوحيده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وطاعة رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلَّا ببغض الكافرين المشركين، وعدم موالاتهم، والبراءة منهم، وبُغضهم في الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، عنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قَالَ: قَالَ النَّبيّ ﷺ: «أوثق عرى الإيمان: الحبُّ في الله والبغض في الله»[1].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[2].

والله جَلَّ وَعَلَا ذكر لنا في هذا الباب أسوة وهم رسله وأنبياءه، ويجب علينا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٥٢٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٠٣٠).

(٢) رواه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

أن نأْتسيَ بهم وأن نجعلهم أئمة لنا وأن نقتديَ بهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة]، ففيها براءةُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبراءةُ أهل الإيمان معه مِن الكافرين وممَّا يعبدون مِن دون الله وإعلان ذلك، وذكر الله جَلَّ وَعَلَا لنا هذا في مقام الاتِّساء والاقتداء قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ ولهذا يجب على المسلم أن يأتسيَ بإمام الحنفاء وأن يقتدي به، والله يقول: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة]، أي: إلَّا مَن حَكَم على نفسه بالسَّفَه والغيّ.

فهذا بابٌ عظيم مِن أبواب الدّين وقواعده الّتي يجب وينبغي على كلّ مسلم أن يتعلَّمه، وأن يعتقد مضمونه، وأن يعمل به -كما نصّ على ذلك المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ في أوّل هذه المسائل- فهذا واجب دينيّ ومطلب إيمانيّ، وهو مِن مقتضيات التَّوحيد ولوازمه؛ أن يكون المسلم مُبغضًا للكافرين، وألّا يتَّخذ أحدًا منهم وليًّا يحبُّه ويتولّاه ويوادُّه ويصافيه، بل الواجب عليه أن يبغضه وأن يتّخذه عدوّا، وكيف لا يتّخذ المسلمُ الكافرَ عدوًّا والكافر عدوٌّ لله؟! فلا يجتمع إيمانٌ بالله جَلَّ وَعَلَا وحبٌّ لأعدائه؛ ولهذا جاء في القرآن آيات عديدة تقرِّر هذا الأمرَ ووجوبَ البراء مِن الكافرين وبغضهم وعدم موالاتهم.

وفي القرآن الكريم آياتٌ ثلاث في هذا الباب – باب بُغض الكافر وعدم موالاته – كلّ آية منها تبدأ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ﴾؛ **الآية الأولى** مِن هذه الآيات الثّلاث فيها عدم اتخاذ أيٍّ من الكافرين عموما وليّا، **والآية الثّانية** فيها التَّنصيص على اليهود والنّصارى مِن الكفّار خاصّة، **والآية الثّالثة** خصّت القرابة مِن الكافرين؛ أبًا أو أخًا أو غيرهما.

- **الآية الأولى**: هي قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فهذه عامة في كلّ كافر عدوٍّ لله، وكلّ كافر بالله فهو عدوّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومبارزٌ لربّ العالمين بالعداوة؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلَقَه ليعبدَه وأوجده ليذلَّ له ويخضع ويصرف له العبادة وحده دون سواه، فلمَّا أضاع حقوق الله وصرفها لغيره ممّن لا يملك لنفسه نفعًا ولا دفعًا ولا عطاءً ولا منعا ولا حياةً ولا موتـًا ولا نشوراً صار بذلك عدوًّا لله؛ يبغضه الله ولا يحبّه، فإنه لا يحب الكافرين سبحانه، وهو جَلَّ وَعَلَا لا يرضى الكفر ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، فهذه في كلّ كافر.

- **والآية الثّانية**: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]؛ فهذه فيها تخصيص النَّصارى واليهود بالذّكر، وأنّ الواجب على

المسلم أن لا يتَّخذ أحدًا منهم وليًّا؛ لأنَّهم كفّار بالله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكَم بكفرهم وعداوتهم له في آيات مِن الكتاب العظيم.

- **والآية الثالثة**: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [التوبة: ٢٣]؛ فخصّ هنا الإخوان والآباء بالذّكر، وهذا يتضمَّن عموم القرابة مِن الأعمام والأخوال ونحو ذلك مِن القرابة.

فلا يحلّ ولا يجوز لمؤمنٍ أن يتولّى أحدا من الكافرين، وأن يواليَ أحدا من الكافرين، بل يجب أن يكون في قلبه بُغضٌ لهم وكراهيّة لهم، وأن يتّخذهم أعداء كما هو مبيّن في آي كثيرة ومواضع عديدة من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وهذا هو مقتضى الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا وتوحيده ولازمِ طاعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المسألة العظيمة قال: «**أنَّ مَنْ أطاعَ الرَّسول**» وهذه المسألة الأولى «**ووحَّدَ اللهَ**» وهذه المسألة الثّانية «**لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ**»؛ «لا يجوزُ لهُ» أي: يحرم عليه ولا يحلّ له موالاة من حادّ الله ورسوله.

والموالاة: هي الموادّة والمصادقة والمحبّة؛ فهذا أمرٌ لا يحلّ له.

وضد الموالاة: المعاداة والمحادّة والبغضاء، وهذا هو الواجب.

فقوله في الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ﴾، فنفي

ذلك إثبات لضدّه، فقوله: «**لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ**»، أي: يجب عليه أن يبغضهم، وهذا الّذي يجب على كلِّ مسلم ومسلمة.

قال: «**لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ**»؛ المحادّة: هي المجانبة والمخالفة، والّذي حادّ الله ورسوله، كأنَّ المعنى والمراد - كما قرّر ذلك بعض أهل العلم – أي: مَن كان في حدٍّ غير الحدِّ الّذي أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأمره رسوله ﷺ أن يكون عليه، ولهذا النَّاس في حدَّين:

- المؤمنون في حدِّ الله ورسوله؛ أي فيما حدّه الله لهم ورسوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [النساء]، فالمؤمن فيما حدّه الله له وحدّه له رسوله ﷺ.

- والكافر في حدّ الشيطان وجنوده.

فـ «حادّ الله ورسوله» أي: كان في محادّةٍ ومعاداةٍ ومجانبةٍ لما أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به مِن التَّوحيد، ولما يجب أن يكون عليه مع الرَّسول مِن الطَّاعة؛ ولهذا قال: «**لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ**»، يعني ولو كانت تجمعه به رابطة قرابة قويّة؛ كأن يكون أبًا أو أمًّا، أو ابنًا أو بنتًا، أو أخًا أو أختًا، أو عمًّا أو عمَّة، أو خالًا أو خالة، أيًّا كانت قرابته، إذا كان كافرا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يجوز له موالاته، ولو كان أقرب قريب، وإذا كان الكافر القريب من أبٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو عمٍّ أو خالٍ لا تجوز موالاته فالكافر البعيد مِن باب أولى؛ لأنَّ هذا يجمعه به قرابة ولها مقتضياتها ولها متطلّباتها ومع ذلك يُخص بالذّكر في هذه الآية وفي الآية

الّتي مرت ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾، فالّذي يستحبّ الكفر على الإيمان ويكون كافرا بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا تجوز موالاته بل يجب بغضه، يجب أن يكون في القلب بُغض له ومجانبةٌ له وعدم محبّة له وموالاة؛ هذا هو الواجب.

قال: «**ولو كان أَقْرَبَ قريبٍ**»؛ لو كان أقرب قريب –كما أشرنا– ولوكانت القرابة شديدة.

ثمّ ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية الدّالّة على ذلك، وأشرت فيما سبق أنّ الرِّسالة مختصرة، ليس المقام فيها مقام بسط وإطناب، وإنَّما المقام مقام إيجاز واختصار؛ فيذكر المسألة ويذكر عليها دليلًا واحدًا مراعاة للاختصار، وإلّا فلأدلَّة على هذه المقاصد الّتي يذكرها في رسالته هذه في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالعشرات إن لم تكن بالمئات.

قال: «**والدَّليل قوله تَعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾**»، «لاَ تَجِدُ»: الخطاب موجّه لنبيّنا صلوات الله وسلامه عليه، ﴿لَّا تَجِدُ﴾؛ أي: أيّها النَّبيّ ﴿قَوۡمٗا﴾؛ أي: جماعة وطائفة، والحكم كذلك ينسحب على الأفراد.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ﴾ يعني: مِن صفتهم الإيمانُ بالله واليوم الآخر، ثمّ في الوقت نفسه يوادّون مَن حادّ الله ورسوله؛ أمران لا يجتمعان في قلب؛ لأنَّ مِن لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر ومقتضياته ألّا

يواليّ الكافر ولو كان أقرب قريب، ولهذا قال: ﴿لَّا تَجِدُ﴾ أي: لا يوجد.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ كثيراً ما يُجمع بين هذين الإيمانين: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر في القرآن والسّنّة، وذلك لأنَّ **الإيمان بالله** هو الغاية المقصودة، وهو أصل الأصول، وهو قاعدة الدّين، وهو الّذي خُلق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه، **واليوم الآخر** لأنَّه الدّار الّتي جعلها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ دار الجزاء للفريقين أهل الإيمان ومَن سواهم، ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ دعوة كلّ نبيّ بعثه الله ترتكز على محاور ثلاثة:

- **المحور الأول**: التَّعريف بالله، وبيان أنّه وحده المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواه، وتعريف النَّاس به بذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وعظمته وجلاله.

- **والمحور الثَّاني**: تعريف العباد بالطَّريق الّتي توصلهم إلى الله وينالون بها رضاه، وهي شرائع الدّين وتفاصيل الإيمان وشُعَبه.

- **والمحور الثَّالث**: تعريف النَّاس بدار الجزاء والعقاب وما أعدَّه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لمَن أطاعه مِن ثواب، وما أعدَّه لمَن عصاه مِن عقاب.

فعلى هذه المحاور الثّلاث ترتكز دعوة الأنبياء والمرسلين، وهنا ذُكرت في هذه الآية الكريمة كما أنها ذكرت في آيٍ كثيرة من القرآن الكريم مجتمعة ومتفرقة.

قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ المودّة عرفناها وهي: المحبّة والموالاة وعدم البغض والمعاداة.

قوله: ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا وصف لكلِّ كافر، فكلّ كافر محادّ لله ورسوله عدوٌّ لهما، لأنَّه في حدّ الشيطان وجنوده، وليس من حزب الله في شيء بل هو في حد الشيطان وجنوده.

وهنا أنبِّه على أمرٍ كم غفل عنه أقوام وأقوام، ولاسيّما في هذا الزَّمان، ألا وهو: أنَّ بعض النَّاس في هذا المقام اغترَّ ببعض تعاملات الكفّار فأعجبته وأدهشته ومال إليهم بسببها، وأصبح بعض النَّاس يفخِّم ويعظِّم أخلاق الكفّار، بل إذا أراد أن يتحدث عن الأخلاق أو أن يبيِّن مكانة التَّعامل لا يستشهد إلَّا بالكفّار ولا يذكر في هذا الباب إلا الكفّار ويقول: يتعاملون بكذا ويتعاملون بكذا وينضبطون في كذا...إلخ مما يفضي بالإنسان إلى ميل قلبه إليهم وركونه إليهم وثقته بهم إلى غير ذلك من الآثار السَّيّئة والعوائد الشّنيعة، والله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ نهى عباده أن يغترُّوا بالكفّار ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران]، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر]. فالقرآن فيه آيات كثيرة تنهى عن الاغترار بالكفّار مهما كانت أمورهم ومهما كانت أحوالهم.

وإذا أردنا – في هذا الباب – أن نتحدّث عن الأخلاق؛ فالحقيقة الجليّة

أنّ كلّ كافر لا خُلق له؛ لأنَّ أعظم الأدب: الأدبُ مع الله جَلَّ وَعَلَا، وأعظم الخُلق إقامة دين الله، ولهذا قال جماعة مِن المفسّرين؛ منهم بعض الصّحابة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم] قالوا: على دين عظيم، الخُلق: الدّين.

فعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»(١).

هذا الدّين كله، والّذي يصرف حق الله لغيره؛ يخلقه الله، ويرزقه، وينعِم عليه، ويتفضَّل عليه بأنواع النِّعم؛ الصّحّة والعافية والسّمع والبصر ثمّ يصرف حقوق الله إلى غيره، أين الأخلاق وأين الآداب؟! ولهذا مهما كانت تعاملاته مع النَّاس ومصانعته للنَّاس فكلّها لا تجدي شيئًا إذا أضاع الأساس وهدم الأصل، ولهذا قال الله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان].

ثمّ هذه الأخلاق الّتي يتعامل بها الكافر هل هو يتعامل بها يرجو بها ثواب الله والدّار الآخرة، أم أنّها مصانعة في هذا الباب لأمر الدّنيا وكسب المصالح وتحصيل الرّئاسات وجمع الأموال وغير ذلك مّن الأسباب والمبرِّرات؟ ولهذا ينبغي على المسلم أن لا يغتر، وأن يكون في قلبه

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٨٩٥٢)، والحاكم في «مستدركه» (٤٢٢١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٥).

بُغض للكافر ولو كان أقرب قريب.

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ولو كان هذا الكافر أباه الّذي خرج مِن صلبه، ولو كان هذا الكافر ابنه الّذي خرج مِن صلبه، ولو كان أخاه الّذي جمعه وإياه رحم واحدة وصلب واحد، ولو كان مِن العشيرة نفسها، وغيرُ هؤلاء من باب أحرى، فذكر تعالى أن هذا لا يجامع الإيمان، ولا يجتمع معه.

ثمّ تمّم جَلَّوَعَلَا الآية وختمها بذكر ثواب مّن كانوا كذلك ومناقبهم وفضائلهم؛ لا يوادّون مَن حادّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب؛ فذكر جَلَّوَعَلَا في هذا الباب سبعة أمور ننتبه لها.

قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، الإشارة هنا إلى مَن؟ الإشارة هنا إلى مَن لم يتَّخذ الكافرين أولياء ولو كانوا أقرب قريب، فمَن كان كذلك؛ ما شأنهم؟

❖ قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ هذا الأمر الأول؛ أي: رسّخه وثبّته ورسمه في قلوبهم، فهو إيمانٌ ثابتٌ راسخ في القلوب.

❖ الأمر الثّاني قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾؛ والتأييد: التّقوية، أيّدهم: أي قوّاهم. ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾: أي بوحي منه وبمدد وعون، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سمَّى وحيه في غير موضع مِن القرآن «روحًا»؛ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى]، سمّى الله جَلَّوَعَلَا الوحي «روحًا»؛ لأنَّه به

تحيا القلوب، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي: أيَّدهم بالوحي ونوره وضيائه وأمدَّهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعونه وتوفيقه.

❖ والأمر الثالث: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ أي أنَّ هؤلاء قد أعدَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهم أجرًا وهيّأ لهم كرامة ونُزُلا؛ جنّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، أي: أبَد الآباد.

❖ الأمر الرَّابع قال: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، وهذه أعظم كرامة وأجلُّ نعمة كما قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾[التوبة: ٧٢]، رِضا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنهم أعظم كرامة وأعظم نعمة وأعظم منقبة فازوا بها.

❖ الأمر الخامس: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾؛ وهذا أيضًا أمرٌ يُنعم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به على هؤلاء، وهو أن يملأ قلوبهم رضًا عن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فيكونون مغتبطين فرحين في غاية الفرح والسّرور بما أكرمهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به، وبما أنعم به تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليهم؛ فيكونون في تمام الرّضا.

❖ الأمر السادس: وَصْف الله جَلَّ وَعَلَا لهم بأنَّهم حزبه؛ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾، والنَّاس إمَّا حزب لله وإمَّا حزب للشَّيطان، ومن لم يكن من أهل هذا الوصف فهو مِن حزب الشَّيطان، فحزب الله هذه صفتهم وهذه نعوتهم وهذا ما وصفهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به.

❖ الأمر السابع: ختْم الآية بذكر فلاح هؤلاء: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؛ والفلاح هو: حيازة الخير والحصول عليه بمجامعه، ولهذا قيل: إنَّ أكمل أو أحسن كلمة قيلت في حيازة الخير والظّفر به هي كلمة «الفلاح»، وأهل الفلاح هم هؤلاء؛ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

وهذه الأمور الّتي ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كل واحدٍ منها وحده كافٍ بأن يحرِّك القلوب تحريكًا قويًّا وشديدًا بأن تُبغض الكافر ولو كان أقرب قريب، فكيف بهذه الأمور مجتمعة؟!

وبهذا يكون المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ قد ذكر هذه المسألة العظيمة الجليلة وذكر دليلها من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهنا ينبغي أن يُعلم في هذا الباب -باب عدم موالاة الكافر وعدم تولِّيه- ما ذكره أهل العلم في بيان الفرق بين «التَّولِّي» و«الموالاة»:

- **التَّولِّي**: الّذي ذكره الله جَلَّوَعَلَا في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ هذا بحُبِّ الكافرين، وحبّ دينهم، والفرح بانتصارهم، ومعاونتهم على أهل الإيمان، والسَّعي في نصرتهم، وهو كفرٌ أكبر ناقل مِن ملّة الإسلام.

- **الموالاة**: وضابطها: أن يحبَّ الكافر لأمرٍ دنيويّ لا لدينه، ولا يكون منه نصرة للكافر، لكن يحبّه لأمر يتعلّق بالدّنيا، مثل أن يكون للكافر عليه يد أو عطية أو نحو ذلك، فهذه موالاة، وموالاة الكافر كبيرة مِن كبائر الذُّنوب، يترتب عليها نقص الإيمان الواجب؛ لأنّه يجب على كل مؤمن

ألا يوالي الكافرين.

وممّا يلتحق بهذا الباب أيضًا وينبغي أن يُتنبه له: أنه لا يتنافى مع عدم موالاة الكافر أن يعامِل الكافر معاملّة حسنة يتألّف بها قلبَه ويستميل بها نفسه بالدُّخول في هذا الدّين؛ فيكون في قرارة قلبه مبغضًا له وفي المعاملّة الظَّاهرة يحسن إليه تأليفًا لقلبه؛ ولهذا قال الله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة]، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهْيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهْيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟

قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ»(١).

هذا لا يتنافى مع ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾، فتكون في قلبها مبغضة لها وكارهة لها لكن تصِلها وتحسن إليها وتعاملها بالحسنى تأليفا لقلبها.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي: الأبوان ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، لم يقل فعقهما، قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ﴾، أي: فيما يدعوانك إليه مِن الشِّرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان: ١٥] أي: عاملهما في الدّنيا معاملّة

---

(١) رواه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

طيِّبة، وهذه المعاملّة الطيِّبة لها أثرها على الكافر؛ ولهذا لا بأس لو مرض أن يُعاد، ولا بأس إذا كان جارًا أن يُهدى له، في «الأدب المفرد»(١) بسند جيّد عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه ذُبِحَتْ له شاةٌ، فجعلَ يقولُ لغلامِهِ: أهديتَ لجارِنَا اليهوديّ؟ أهديتَ لجارِنا اليهوديّ؟ سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما زالَ جبريلُ يوصيني بالجارِ حتى ظَننتُ أنه سيورِّثه»(٢).

وفي كتب الأدب لأهل السّنّة يعقدون أبوابًا تنصّ على هذا «باب الهدية للمشرك»؛ يُهدى له الهدية مِن الطّعام والكساء ونحو ذلك تأليفا لقلبه، بل جاء أن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استسقى لبعض المشركين - أصيبوا بقحط فدعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يغيثهم وهذا يتنافى مع بغضهم، ولكن هذا فيه تأليف لهم، يجوز أن يُعطى بل هذا من مصارف الزَّكاة أن يُعطى من أموال الزَّكاة تأليفًا لقلبه واستمالة له ليدخل في هذا الدّين.

ولهذا الإسلام وسط في هذا الباب؛ ففيه النهي عن موالاة الكافر وتولِّيه، وفيه أيضا الأمر بمعاملّة الكافر غير المحارِب ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة] فالكافر غير المحارب يعامل مثل هذه

(١) برقم (١٠٥).

(٢) رواه أبو داود (٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٧٤).

المعاملّة ويلايَن بالقول وبالهدية ونحو ذلك استمالة لقلبه لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يهديه للإسلام، وعندما نقرأ سيرة نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نرى في هذا الباب عجبا في هديه صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كان أبو الإنسان كافرًا أو أخوه أو أمّه يجب عليه أن يبغضه لكفره، وفي الوقت نفسه أن يعامله معاملّة حسنة ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]؛ يخدمه، يساعده، يعاونه في مصالح دنياه لعلّ مثل هذا يكون سببًا لهدايته.

وممَّا ينبغي أن يُعلم أيضًا في هذا الباب:- وكم زلَّ فيه مَن زل - لايعني بُغض الكافر أن يُقتل أينما وجد، والشّريعة جاءت بتفاصيلَ في هذا الباب، ومتى يكون قتله؟ وجاءت الشريعة بتحريم قتل الكافر المعاهد، أو الكافر الذّميّ، أو الكافر المستأمن، وترتّبت على ذلك في الشّريعة عقوبات شديدة، منها ما جاء في الصّحيح عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»(١).

- والمعاهَد هو: الكافر الّذي كان بينه وبين المسلمين حرب ودخل ديارهم بأمان.

- والمستأمن: هو الّذي دخل ديار المسلمين بأمان.

- والذّمي: هو الّذي في ديار المسلمين وتحت حكمهم ويدفع

(١) رواه البخاري (٣١٦٦).

الجزية.

هؤلاء كلهم كفّار ولا يحلّ قتلهم.

ولهذا مَن لا يضبط هذا الباب ولا يفهم دلائل كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهديه فيه يقع في انحرافات لا حدَّ لها ولا عدّ، وجنايات وتعدّيات على حدود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولهذا ينبغي على المسلم أن يعتنيَ بهذا الباب عناية جيّدة، وأن يحرصَ على أن يفهمه في ضوء كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأن يحرص على أن يحقّق هذا الأصل العظيم الّذي يجب على كل مسلم أن يكون عليه؛ وهو ألا يواليَ أحدًا مِن الكافرين وإن كان أقرب قريب.

وأيضـًا مما ينبغي أن يُعلم في هذا الباب: أنَّ أقسام النَّاس في الولاء والبراء والحبّ والبغض ينقسمون إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: وهم أهل الإيمان والصّلاح والاستقامة على طاعة الله؛ فهؤلاء لهم ولاءٌ وحبٌّ لا بغض معه، فإذا كان الرَّجل مؤمنا مطيعا لله محافظا على أوامر الله مبتعدا عمّا حرّم الله فهذا يُحَبُّ حبًّا لا بُغض معه.

القسم الثاني: وهو الكافر بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فهذا أيًّا كان – الكافر – يُبغض بغضا لا حبَّ معه.

القسم الثالث: مَن يُحب باعتبار ويُبغض باعتبار؛ يُحب باعتبار إيمانه وما عنده مِن صلاح وطاعة، ويُبغض باعتبار ما عنده مِن فسوق وعصيان؛

وهؤلاء عصاة الموحِّدين، هو مِن أهل الإيمان والتَّوحيد لكن عنده معاص لا تصل به إلى حدِّ الكفر بالله، فهذا يُحبُّ على ما عنده مِن إيمان ويُبغض على ما عنده مِن فسوق وعصيان.

وأختم الحديث بدعوة صحَّ عن نبيِّنا ﷺ الدُّعاء بها؛ وهي قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ»[1]؛ وهذه الدَّعوة مِن جوامع الدُّعاء وعظيمه، ومَن رُزق هذه الأمور الثّلاثة الّتي كان يدعو بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقد جمع لنفسه الخير وفاز بالفلاح ورضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: «أَسْأَلُكَ حُبَّكَ»؛ لأنَّ الواجب على كلّ مسلم أن يعمر قلبه بحبّ الله، وأن يكون حبُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أساسًا في قلبه يعمره، وأن يميل بكليّة قلبه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حبًّا، وإذا ملأ قلبه بحبّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يأتي بلازم ذلك وهو أن يحبَّ مَن يحبّه الله؛ بمعنى أن يكون منطلقًا في حبّه ممّا يحبّه الله، والّذي يحبّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويرضاه بيّنه في كتابه، وبيَّنه نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في سنّته.

«وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ» فهذا يدخل فيه حبّ الأنبياء وحبّ الصّدّيقين والشّهداء والصّالحين مِن عباد الله، وأنت إذا قلت «**وحبّ مَن يحبك**» جمعتَ في دعوتك هذا كلَّه.

(١) رواه الترمذي (٣٤٩٠)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١١٢٥).

«وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ» هذا فيه حبّ الصّالحات والطّاعات والقُرَب الّتي تقرِّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وينال بها العبد رضاه عَزَّوَجَلَّ.

وبهذا ينتهي الحديث عن هذه المسائل الثّلاث العظيمة الّتي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها، وأن يعتقد مضامينها ومدلولاتها، وأن يعمل بها، وأن يثبت عليها مستعينًا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى أن يتوفَّاه الله على خير حال، وليفوز بأحسن عاقبةٍ وأحسن مآل.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلَمْ أرشدَكَ اللهُ لطاعتِهِ أنَّ الحنيفيّة ملّة إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدّين، وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ النَّاس وخلَقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، ومعنى «يَعْبُدُونِ» يوحّدونِ، وأعظمُ ما أمرَ اللهُ به التَّوحيد وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشِّرك؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ، والدَّليل قوله تعالى:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء].

الشرح:

فهذه الرِّسالة الثَّالثة من الرَّسائل القيّمة الّتي صُدِّرت بها الأصول الثّلاثة، وبدأها المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الدَّعوة؛ بقوله: «**اعلَمْ أرشدَكَ اللهُ لطاعتِهِ**»، وعرفنا أنَّ هذا مِن نصحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث كان حريصًا على بيان الخير وإيضاحه، وفي الوقت نفسه حريصًا على الدُّعاء للنَّاس بالرَّحمة

والخير والمغفرة والرَّشاد والسَّداد، فكثيرا ما يأتي في رسائله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عموم الدُّعاء للنَّاس لمَن يبصَّرون ويرشَدون ويوجَّهون، يدعو لهم بمثل هذه الدّعوات الدّالة على نصحه وحرصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: «**أنَّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم**»؛ هذا عنوان هذه الرِّسالة وبيانٌ لمفادها وفحواها، فهي رسالةٌ مختصرة قصد بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبيِّن الحنيفيّة الّتي هي ملّة إبراهيم، والله جَلَّ وَعَلَا قد وصف نبيَّه ورسوله وخليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنَّه كان حنيفًا، وذلك في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل]؛ نعته بهذه النعوت ومِن بينها أنَّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان حنيفًا.

ومعنى «حنيفًا»: أي مائلًا إلى حبّ الله وتوحيده وإخلاص الدّين له والإقبال عليه ذلًّا ورجاء ورغبًا ورهبًا، بعيدًا عن الشِّرك مجانبًا له.

إذ الحنيف أصل معناه: المائل، والحنف: الميل، ومعنى كونه عليه صلوات الله وسلامه حنيفًا: أي مائلًا عن الشِّرك إلى التَّوحيد، وعن المعصية إلى الطَّاعة، فكان شأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو هذا كما نعته بذلك ربُّه.

ثمّ بعد هذه الآية بآيات قال الله عَزَّوَجَلَّ مخاطبًا نبيَّه محمَّدا ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: أيها النَّبيّ ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]؛ فأمره جَلَّ وَعَلَا أن يتبع ملّة إبراهيم الحنيفيّة السمحة؛ وهي الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وإفراده بالعبادة والبراءة مِن الشِّرك - كما سيأتي بيان ذلك

وإيضاحه -، وقال الله جَلَّوَعَلَا في موضع آخر من القرآن: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]؛ أي أنّ هذه الملّة الحنيفيّة السّمحة - ملّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ - لا يرغب عنها - أي: لا يعدل عنها ويتركها ويذهب إلى غيرها مِن الملل والنِّحل- إلَّا مَن حكم على نفسه بالسَّفه والغيّ.

قال: «**أنَّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم**»؛ «ملّة» بدل مِن الحنيفيّة، والخبر -خبر أن- هو قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدّين**»؛ فالحنيفيّة الّتي هي ملّة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أن تعبد الله مخلصًا له الدّين، وأن تصرفَ العبادة كلّها بجميع أنواعها لله وحده، ولا تجعل معه تَبَارَكَ وَتَعَالَى شريكًا في شيء منها.

قال: «**أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدّين**»؛ العبادة هي غاية الذّلّ مع غاية الحبّ والخضوع، وهي حقٌّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ليس لأحد شركة في شيء مِن ذلك، فهذا التّذلّل والخضوع والمحبّة والانكسار ونحو ذلك مِن العبوديّة هذا كلّه حق لله جَلَّوَعَلَا لا شركة لأحد فيه، وسيأتي ذكر الدَّليل على ذلك عند المصنّف رَحِمَهُ اللهُ.

قال: «**أنْ تعبدَ اللهَ مخلصًا له الدّين**»؛ أنْ تعبدَ اللهَ: أي أن تُفرده وتُوحِّده بالعبادة، وسيأتي معنا أنَّ الأمر بالعبادة في القرآن والسّنّة أمرٌ بالتَّوحيد، فمعنى أن تعبد الله: أي أن تفرده تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعبادة فلا تجعل معه شريكًا

في شيء منها، ولكي يحقّق المرء ذلك لابدّ أن يعرف حقيقة العبادة ليجعلها كلها خالصة لله تعالى.

أجمع ما قيل في معنى العبادة وبيان حقيقتها: أنّها «هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»(١)، وبهذا يُعلم أنّ مِن العبادة:

- ما يكون بالقلب مثل: الرّجاء والمحبّة والخوف والتّوكل والاستعانة.

- ومنها ما يكون باللّسان مثل: الذّكر والدُّعاء وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

- ومنها ما يكون بالجوارح مثل: الصَّلاة والصّيام والحجّ والبرّ ونحو ذلك مِن الأمور الّتي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بها ويحبّها منهم ويرضاها.

قال: «**مخلصًا له الدّين**»؛ أي: أن تقع منك العبادة خالصةً لله كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر] وكما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة].

ومعنى أن تكون العبادة خالصةً: أي أن تكون صافية نقيَّة ليس فيها

(١) من كلام الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ انظر: «العبودية» (ص٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

شائبةُ شرك أو رياء أو سمعة أو إرادةٌ للدّنيا بالعمل، بل هي صافية نقية لم يُرد بها إلا الله جَلَّوَعَلَا.

والخالص في اللّغة: هو الصّافي النقيّ، واقرؤوا في معرفة معنى الخالص لغةً قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في [سورة النحل] - سورة النعم -: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦]؛ وانظر في معرفة مدلول هذه اللّفظة لغةً إلى اللَّبن الّذي يخرج مِن بهيمة الأنعام؛ فقد وصفه الله بأنَّه يخرج من بين فرث ودم، حتّى إنَّ بعض أهل الخبرة يقولون إن خروجه من بين الفرث والدّم يكون وقت الحلب - والدّم والفرث معروفان -، فهل ترى في ذلك اللّبن قطرة دم؟ أو ترى فيه قطعةً مِن فرث؟ الجواب: لا، بل تراه صافيًا نقيًّا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿خَالِصًا﴾ أي صافيا نقيًّا، مع أنَّه خرج للتّوّ مِن بين فرث ودم!!

وهذه آية مِن آيات الله وعبرة مِن العبر، ولهذا صدَّر الله سبحانه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ﴾، ومِن العبرة والعظة في الأنعام هذه الآية؛ أن يخرج اللَّبن مِن بين الفرث والدّم خالصا.

قال: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾؛ أي مع علم النَّاس بمصدره ومخرجه ومنبعه فإنَّهم يستسيغونه، لا تنفر نفوسهم منه لكونه خرج مِن هذا المكان بل يستسيغونه ويستلذونه ويجدون له طعمًا لذيذًا هنيئًا؛ ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لمن يشربه.

فإذاً قول ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البيّنة] وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر] معنى الخالص: أي الصّافي النّقيّ، ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ أي: له الدّين الصّافي النّقيّ؛ بمعنى: أن تُقبِل بكُليّتك وبقلبك وبنيَّتك وبقصدك وحبّك ورجائك وذُلِّك؛ تقبِل على الله وحده، لا تجعل مع الله شريكا في ذلك؛ لأنَّك إن جعلت مع الله شريكًا في ذلك أخللت بالإخلاص، لم تكن عبادتك صافية، إن دعا أحدٌ الله ودعا معه غيره خدش دعاؤه لغير الله مع الله إخلاصَه، لم يصبح مخلصا بل أصبح مشركًا؛ لأنَّ المخلص: هو الّذي يأتي بالعبادة صافية نقية لله وحده لا يجعل مع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ شريكا فيها، والمشرك: هو الّذي يجعل مع الله شريكًا في العبادة؛ لأنَّ الشِّرك: هو تسوية غير الله بالله وجعْل غير الله ندًّا لله وعِدلاً له تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، يُصرف له مِن الحقوق ما يُصرف لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

فإذاً قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: «**مخلصًا له الدّين**» أي: أن يكون دينك وعبادتك وطاعتك وذُلّك وخضوعك كل ذلكم يكون خالصا لله ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ ﴾ [الأنعام]، أي: أمرت بالإخلاص؛ أن تكون هذه الأعمال كلُّها لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خالصة، ليس لأحد فيها مع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مشاركة.

قال: «**مخلصًا له الدّين وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ النَّاس**»، مرَّ معنا في الآية

قال: ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر جميع النَّاس بذلك، وقال في أوَّل أمرٍ ورد في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة]، وقال في أوَّل نهي في القرآن هو قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]؛ فأوّل أمرٍ في القرآن أمرٌ بالعبادة والتَّوحيد والإخلاص، وأول نهيٍ في القرآن نهيٌ عن الشِّرك والتّنديد واتخاذ الشّركاء مع الله.

قال: «**وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ النَّاس**» ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾.

«**وخلَقهم لها**»؛ أي: لهذه الغاية خلقهم وأوجدهم؛ وهي أن يعبدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخلصين له الدّين.

«**والدَّليل على ذلك قول الله سبحانه**-في [سورة الذّاريات]-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾» أي: إلّا لغايةٍ وهي عبادتي، ومعنى ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: إلا ليوحّدون، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «كلّ ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد»[1].

فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ أي وحِّدوا ربّكم بالعبادة فأخلصوها له، قوله: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: إلا ليوحّدون؛ ليفردوني وحدي بالعبادة ويخلصوا الدّين لي دون شريك.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ أخبر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية أنَّه

---

(١) «تفسير البغوي» (١/ ٧١).

تفرّد بالخلق والإيجاد والإنعام، أخبر أنّه تفرّد بذلك وأوجد الإنسان وخلقه، أوجد الثَّقلين، وحدَّد الغاية الّتي لأجلها خلهم.

فأخبر تعالى أنه فعل الأوّل وهو الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ ليفعلوا هم الثَّاني وهو العبادة ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: إلّا ليقوموا بعبادتي وتوحيدي.

فماذا كان حالهم مع ما خلقهم الله لأجله وأوجدهم لتحقيقه؟ انقسموا إلى فريقين: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فمنهم مَن هدى اللهُ فقام بهذه الغاية ووحّد الله وأفرده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة ولم يصرف شيئًا مِن العبادة لغيره، ومنهم مَن حقَّت عليه الضَّلالة فوقع في الشِّرك والكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل].

فالعبادة لا تكون عبادةً إلّا بالتَّوحيد، كما أنّ الصَّلاة لا تكون صلاةً إلا بالطّهارة؛ أرأيتم لو أنّ شخصا صلّى وأخبر عن نفسه بذلك قال: (صلّيت بغير طهارة)؛ يصح أن يُقال له: ما صلّيت؛ لأنَّ مِن شروط صحّة الصَّلاة الطّهارة، فالصَّلاة من دون طهارة كأنّها لم تكن، ويُقال لمن صلّى دون طهارة: ما صلّيت.

ومَن عبَد الله من دون توحيد شأنه كذلك؛ لم يعبد الله؛ لأنَّ عبادة الله لا تكون عبادة مقبولةً مشكورةً مرضيّة عند الله إلّا بالتَّوحيد، فإذا فقدت العبادةُ التَّوحيدُ فقدت أساس القبول، ولهذا قال ربّنا جَلَّوَعَلَا في الحديث القدسيّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، فالعبادة مع الشِّرك لا تكون عبادةً بل تُردّ على صاحبها ولا تُقبل منه، وإن مات على ذلك عاقبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة أشدّ العقاب وأحلّ به أشدّ النّكال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء].

ولهذا وجب على كلّ إنسان أن يهتمّ بهذا الأمر وبمعرفته أشدّ الاهتمام؛ لأنَّه أساسٌ عظيم وأصل متين خُلق لأجله وأوجد لتحقيقه، وهو في الوقت نفسه ألذّ شيء في هذه الحياة الدّنيا؛ ألذ شيء في هذه الحياة الدّنيا التَّوحيد، ومن عاش هذه الحياة الدّنيا وخرج منها من دون التَّوحيد خرج منها ولم يذق ألذّ شيء فيها، فهو الحلاوة واللّذة وقرّة العين وهناءة العيش ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: موحِّد لله ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، فبالتَّوحيد تكون الحياة الهنيئة والعيش الطّيّب والسّعادة واللّذة والرّاحة وقرّة العين، ومن دونه تُفقد الخيرات في الدّنيا والآخرة

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

وتحلّ على الإنسان الشّرور تلو الشّرور. ولهذا ينبغي أن يكون اهتمام العبد بالتَّوحيد أشدّ الاهتمام، وأن تكون عنايته به أعظم العناية، أعظم مِن عنايته بطعامه وشرابه ولباسه وسائر شؤونه.

«**وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التَّوحيد**»؛ أي: أعظم شيء أمر الله العباد به التَّوحيد، ويدلّ لذلك دلائل لا حصر لها وشواهد لا عد لها.

- منها: أنه المقصود بالخلق؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

- ومنها: أنّه الغاية مِن بعثة الرّسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

- ومنها: أنّه أوّل أمرٍ في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

- ومنها: أنَّه أوّل الأوامر في القرآن؛ عندما تأتي آيات الأوامر والنَّواهي في القرآن تُبدأ بالأمر بالتَّوحيد.

- ومنها: أنَّه أساس السَّعادة والفلاح في الدّنيا والآخرة؛ فإذا فُقد فقدت السّعادة وفُقد الفلاح.

- ومنها: أنّه أساس قبول الأعمال؛ فلا تُقبل الأعمال إلّا بالتَّوحيد، فإذا فَقدَت التَّوحيدَ رُدت على العامل ولم تُقبل منه.

إلى غير ذلك مِن الأمور الدّالة على أنّ التَّوحيد هو أعظم شيء أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده به.

ومعنى هذا أنَّ الله أمر عباده بأوامر كثيرة جاءت في الكتاب والسّنّة،

أعظم هذه الأوامر توحيد الله جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ سبحانه وتعالى به التَّوحيد**»، ما هو التَّوحيد الّذي هو أعظم شيء أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده به؟

هذه الكلمة «**التَّوحيد**» مصدر للفعل وحَّد يُوحِّد، وهو أصلٌ يدلّ على الإفراد، التَّوحيد هو الإفراد، ودين الإسلام سمّي توحيدا: لأنَّ مبناه على الإيمان بوحدانية الله، والله جَلَّ وَعَلَا مِن أسمائه الحسنى «الأحد»، ومِن أسمائه الحسنى «الواحد»، فدين الإسلام سمِّي توحيداً لأنَّه مبناه على الإيمان بوحدانية الله، وحدانية الله في ربوبيّته جَلَّ وَعَلَا وفي أسمائه وصفاته وفي ألوهيته.

- **في ربوبيّته**: بأن يُعتقد بأنّه وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخالق المالك الرّازق المنعم المتصرّف لا شريك له.

- **وحدانيّته في أسمائه وصفاته**: بأن تُثبت له الأسماء الحسنى والصِّفات العلا دون تعطيل أو تحريف ودون تكييف أو تمثيل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف].

- **ووحدانيّته في ألوهيّته**: بأن يُفرد جَلَّ وَعَلَا وحده بالعبادة وأن يُخلص له الدّين.

ولهذا قال العلماء: التَّوحيد أنواع ثلاثة: توحيد الرّبوبيّة، وتوحيد

الأسماء والصِّفات، وتوحيد الألوهيَّة[(١)].

وكلٌ مِن توحيد الرّبوبيّة وتوحيد الأسماء والصِّفات مستلزم لتوحيد العبادة؛ بمعنى أنَّ مَن عرف أنّ الله جَلَّ وَعَلَا متفرّدٌ بالرّبوبيّة وآمن بأسمائه وصفاته لزمه أن يفرده بالعبادة، ولهذا ترى آيات كثيرة في القرآن فيها الدّعوة إلى إفراد الله بالعبادة مِن خلال هذين الأمرين؛ مِن خلال الإقرار بالرّبوبيّة ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء]، ومن خلال الإيمان بالأسماء والصِّفات ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر]؛ أي كما أنّك تقرُّ بأنَّه وحده تفرَّد بالخلق والرّزق والإنعام لا شريك له، وتقرّ بأنّ له الأسماء الحسنى والصِّفات العلا الدّالة على كماله وجلاله وعظمته فأفرده وحده بالعبادة، لا تجعل معه شريكا في العبادة، لا تدع إلّا هو، ولا تسألْ إلّا هو، ولا تذلّ إلا له، ولا تخضعْ إلّا له ولا تصرف شيئا مِن العبادة إلّا له جَلَّ وَعَلَا.

هنا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**التَّوحيد وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة**» فسَّر هنا توحيد الألوهيَّة؛ لأنَّ توحيد الألوهيَّة متضمّن لنوعي التَّوحيد الآخرين - أعني

(١) من أراد التوسع في هذا الموضوع فليرجع إلى كتاب شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر بعنوان: «القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد».

الرّبوبيّة والأسماء والصِّفات - فتوحيد الألوهيَّة متضمن للنّوعين الآخرين، أمّا النوعان الآخران فهما مستلزمان لتوحيد الألوهيَّة كما سبق إيضاحه، أمّا توحيد الألوهيَّة فهو متضمّن لهما بمعنى: أنّ من وحّد الله فتوحيده لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فرعٌ عن إقراره بربوبيّته وإيمانه بأسمائه وصفاته؛ لأنَّ عبوديّته وذلّه له وخضوعه وانكساره له هو فرعٌ عن إقراره بأنّه الرّب الخالق الرّازق، وعن إقراره بأسمائه وصفاته.

وهذا هو الّذي حصلت فيه الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم؛ فالأنبياء لمّا قالوا للأقوام: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ وقعت الخصومة بينهم وبين الأقوام؛ لأنَّ الأمم كانت تقرّ - في الغالب الأعمّ - بأن الله هو الرّب وأنّه الخالق الرّازق، لكنّهم جعلوا معه شركاء ووسطاء وأنداد - بزعمهم- تقرِّبهم إلى الله ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، ويعتقدون في الأنداد أنَّها ليست خالقة ولا رازقة ولا مالكة ولا متصرِّفة، بل يعتقدون فيها أنّ لها مكانة عند الله فتكون واسطة وتشفع لهم عنده؛ ولهذا قالوا: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾، ما قالوا: ما نعبدهم إلّا لكونهم يخلقون ويرزقون، بل يعتقدون أنَّ الخالق الرّازق المنعم المتصرّف: الله، وجاء في القرآن آيات كثيرة تدلّ على هذا المعنى، وتدلّ على أن انحراف هؤلاء وزيغهم في اتخاذ الأنداد هو بجعل الأنداد شركاء لله في العبادة.

فإذاً هذا الأمر هو الّذي وقعت فيه الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم؛ لمَّا قال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا»[١] لكن ماذا قالوا؟ عرفوا المعنى وعرفوا المدلول وعرفوا المراد قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص]، ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: جعل المعبودات معبوداً واحداً؟! لأنَّ الإله معناه في اللّغة: المعبود، يعني جعل المعبودات الّتي تُقصد ويُلجأ إليها ويُطلب منها ويخضع لها واحدة؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أمر عجيب وغريب، ثمّ تواصوا بينهم أن لا يطيعوه في هذا الأمر العجاب بزعمهم ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص] يعني تواصوا بالصَّبر على اتّخاذ الآلهة أندادا وشركاء يعبدونها مع الله.

وإذا قيل لهم: هل هذه الأنداد الّتي تتّخذونها شركاء مع الله تخلق؟ هل ترزق؟ هل تملك؟ ماذا يقولون؟ لا؛ إذاً لِمَ تعبدونها؟ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

ولهذا كانوا يلبّون عندما يحجُّون البيت: «لبَّيك لا شريك لك، إلَّا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»[٢]؛ يعني نحن لا نتّخذ معك شريكا إلا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وانظر: «الإرواء» (٨٣٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٠٣)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٢٣٧).

شريكا هو لك تملكه، يعنون هذه الأصنام والأنداد الّتي يعبدونها، يقولون هي لا تملك والله يملكها، ولهذا لمَّا وصف جابر رَضِوَٱللَّهُعَنهُ حجّة النّبيّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ «لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ، وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»[١].

فكانوا يهلّون بالتّنديد فأهلّ نبيّنا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بالتّوحيد؛ قال: «لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ، وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»، أي: كما أنّك يا ربّنا تفرّدت بالنّعمة والملك والحمد لا شريك لك في ذلك فأنت تُفرد بالعبادة لا ندَّ لك تُفرد بالطّاعة لا ندّ لك؛ «لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ» هذه كلمات توحيد وإخلاص لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ ولهذا ينبغي على كل حاجّ أن يردّد هذه الكلمات في حجَّه كثيرا مستشعرا ما دلّت عليه مِن التّوحيد والإخلاص لله والبراءة مِن الشِّرك.

وقد دلّت على التّوحيد بنوعيه: العلميّ والعمليّ؛ العلميّ: في قوله: «لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ»، والعمليّ: في قوله: «إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ، وَالْمُلْكَ».

فالشّاهد أنَّ قول المصنّف: «**التّوحيد وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة**» هذا تعريفُ توحيد الألوهيّة، وهو متضمِّن لنوعي التّوحيد الآخرَيْن؛ أعني: توحيد الرّبوبيّة وتوحيد الأسماء والصِّفات.

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

عرّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ توحيد الألوهيَّة بهذا التعريف المختصر الجامع قال: «**إفرادُ اللهِ بالعبادة**»؛ أي أن تكون العبادة له وحده، لا يُجعل معه شريك فيها.

فالموحِّد هو الّذي لا يدعو إلَّا الله، ولا يستغيث إلَّا بالله، ولا يذبح إلَّا لله، ولا ينذر إلَّا لله، ولا يتوكَّل إلَّا على الله، ولا يصرف شيئا مِن العبادة إلَّا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده؛ فمَن نذر لغير الله أو ذبح لغير الله أو توكّل على غير الله أو صرف شيئا مِن العبادة لغير الله صار مشركا، وفارق بذلك التَّوحيد، وخرج منه، ولم يكن مِن أهله؛ لأنَّه لا يكون مِن أهل التَّوحيد إلَّا إذا أفرد العبادة كلّها لله، لم يجعل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شريكا في شيء منها[1].

والشِّرك مِن أعفن الأشياء وأقبحها وأخسِّها، وإذا دخل الشِّرك في العمل أفسده برمّته، أفسده كاملا؛ فمثلاً لو أنَّ شخصًا أخلص في صلاته أخلص في صيامه أخلص في حجّه، أشرك في دعائه؛ شِركه في الدُّعاء يُفسد كلّ شيء، ويدمّر كلّ شيء، ويخرب كلّ شيء، فالشِّرك مِن أخسّ الأشياء وأعفنها وأخطرها؛ محبطٌ للأعمال كلها ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر]، «عمل» مفرد

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حقيقة التوحيد: أن نعبد الله وحده، فلا يُدعى إلا هو، ولا يُخشى ولا يُتَّقى إلّا هو، ولا يُتوكل إلّا عليه، ولا يكون الدين إلّا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا نتخذ الملائكة والنبيّين أرباباً، فكيف بالأئمة والشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم» «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٤٩٠).

مضاف فيعمّ كلّ عمل، أي لحبطت أعمالك كلّها وفسدت جميعها.

ولهذا مَن لقيَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مشركا به تبطل أعماله كلّها وتذهب هباء وتضيع سدى ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان]، ولهذا قال العلماء ناصحين: يجب على كلّ إنسان أن يكون خوفُه مِن الشِّرك أشدَّ الخوف، وأن يكون دائما حذرًا خائفًا مِن الشِّرك أشدّ مِن خوفه مِن أيّ أمر آخر.

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟».

قَالَ: قُلْنَا بَلَى.

فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»(١).

فخاف النَّبيّ ﷺ على أمّته مِن الشِّرك أشدّ مِن خوفه عليهم من فتنة المسيح الدَّجال الّتي هي من أشدّ الفتن وأعظمها.

وهذا إمام الحنفاء عليه صلوات الله وسلامه الّذي حطّم الأصنام بيده قال في دعائه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم] كثيرٌ مِن النَّاس أضلّتهم الأصنام، أكثرُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٩٤)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٩).

النَّاس على غير التَّوحيد ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف]، وفي القرآن آيات كثيرة تقرِّر هذا، ومِن ذلك قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف] يؤمنون بالله ربًّا خالقا رازقا منعِما؛ لكنّهم يشركون معه غيره في العبادة، يجعلون معه الشّركاء، في الدُّعاء مثلا؛ تجد أحدهم إذا مسّه الضّراء ونزل به البلاء وأصيب بالمرض واللأواء فزع إلى غير الله!! "مدد يا فلان، أدركني يا فلان، ألحقني يا فلان، إن لم تدركني مّن الّذي يدركني؟ وإن لم تأخذ بيدي مَن الّذي يأخذ بيدي؟ أنا لائذ بجنابك، وأنا عائذ بأعتابك"، وبعضهم يقول: "وأنا عبدك الكسير بين يديك" يناجي مخلوقًا مثله، سبحان الله! أين عقول هؤلاء؟! أين عقولهم عن هذه الغاية الّتي خُلقوا لأجلها؟! أين إيمانهم بالله ربّهم جَلَّ وَعَلَا الّذي خلقهم وأوجدهم، يلجأ إلى مخلوقٍ مثله لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا عطاء ولا منعًا ولا خفضًا.

ثمّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأعظمُ ما نهى عنه الشِّرك**»؛ والشِّرك أقسامه ثلاثة كما أن التَّوحيد أقسامه ثلاثة.

عرفنا أن التَّوحيد: توحيد الرّبوبيّة والأسماء والصِّفات والألوهيَّة، وكذلك الشِّرك أقسامه ثلاثة: شرك في الرّبوبيّة، وشرك في الأسماء والصِّفات، وشرك في الألوهيَّة.

وعرَّف هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشِّرك في الألوهيَّة؛ لأنَّه هو الّذي فيه المعترك

والخصومة؛ قال: «**الشِّرك وهو دعوةُ غيرهِ معهُ**» هذا هو الشِّرك: دعوةُ غيرهِ معهُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ»(١)، هذا هو تعريف الشِّرك وهو أعظم الذُّنوب.

لو قال قائل: ما الشِّرك؟ قلت له هذه الكلمة الّتي قالها نبيك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»، ضُمّ إليها الحديث الآخر: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟».

قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ..»(٢)، فما هو الإشراك بالله؟ يفسّره الحديث الآخر: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**».

فالشِّرك: اتِّخاذ الأنداد؛ أن يُجعل مع الله ند في حقوقه سبحانه، والعبادة حقّ لله وحده كما في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟».

قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ».

قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

قَالَ: «أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ»(١)، فهنا فسّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشِّرك بهذا قال: «هو دعوة غير الله معه».

وأصل هذه الكلمة «الشِّرك»: التَّسوية، والمعنى هنا: تسوية غير الله بالله في شيء مِن حقوقه أو شيء مِن خصائصه، ولهذا المشركون إذا دخلوا يوم القيامة نار جهنّم يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء] يحلفون بالله أنّهم كانوا في ضلال، ما الضلال الّذي كانوا فيه؟ قالوا: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ الشِّرك: التّسوية؛ أن يسوى غير الله بالله في شيء من حقوق الله أو خصائصه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

والدُّعاء أعظم أنواع العبادة وأجلّها ولهذا قال نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»(٢) وتلا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر] سمَّى الدُّعاء عبادةً.

فمن جعل مع الله شريكًا في الدُّعاء كأن يدعوَ ميتا أو غائبا أو حجرًا أو شجرًا أو غير ذلك بأيّ حاجة أو مطلب مثل أن يقول: (مدد أو أن يقول: أدركني أو: أسألك الشّفاء، أو: الحقني أو أنا مريض فعافني أو أنا ضالّ

(١) رواه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٢٧).

فاهدني) أو نحو ذلك فقد أشرك بالله العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣﴾ [فاطر] وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف] وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢﴾ [سبأ].

والآيات الّتي فيها الأمر بإخلاص الدُّعاء لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في القرآن كثيرة، وكذلك في السّنّة النّبويّة، قال النَّبيّ ﷺ لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[(١)]، الأمر كلّه بيد الله، قال جَلَّوَعَلَا لنبيّه: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران]، وقال النَّبيّ ﷺ مقرِّرا هذه الحقيقة: «**وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[(٢)]، وقال الله له في القرآن: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ أي: على هدايتهم

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٢) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف]، حرص على هداية عمّه ولم يهتد، فالهداية بيد الله، وأنزل الله قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص].

فالشِّفاء بيد الله ليس بيد أحد، نبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان إذا طلب الشفاء لنفسه أو لغيره قال: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ مُذْهِبَ الْبَاسِ اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لاَ شَافِيَ إِلاَّ أَنْتَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا**»(١)، فكيف بإنسان يذهب إلى قبر أو قبّة أو ضريح يطلب مِن الميّت أن يشفيه؟! أو يطلب مِن الميّت أن يعطيّه ولدا؟ أو يطلب من الميّت أن يهديه؟ هذا الميت لو كان حيًّا لم يملك لنفسه هو شفاءً، ولم يملك لنفسه هو ولدا، ولم يملك لنفسه هدايةً؛ هذا كلّه بيد الله جَلَّ وَعَلَا فكيف يطلب مِن غيره؟! كيف يلتجأ فيه إلى غيره؟! يا سبحان الله! لا إله إلا الله، والله يقول: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: ٦٧]، أين عقول هؤلاء عن التَّوحيد الّذي خُلقوا لأجله والإخلاص الّذي أوجدهم الله لتحقيقه؟ يذهبون هذه المذاهب وينحرفون هذه الانحرافات ويقعون في الشِّرك العظيم.

والشِّرك أظلم الظّلم وأكبر الإثم، وعرفنا ذلك في الحديث: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟».

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤٢)، ومسلم (٢١٩١).

قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ..»(١).

فالشِّرك أظلم الظّلم على الإطلاق وأبطل الباطل، وهو هضمٌ للرّبوبيّة وتنقص للألوهيّة وسوء ظنّ برب العالمين، المشرك سيّء الظنّ بربّه، وإلّا لو كان حسنَ الظّنّ بالله لما لجأ إلّا إليه وحده، ولما دعا غيره، ولما توكّل إلّا على الله، ولما صرف ذلّه وانكساره وخضوعه إلّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ هذا حقّه سبحانه، فالمشرك هضم ذلك كله، وتلوث بهذا التّلوث الّذي هو أشرّ وأشدّ ما يكون ضررا على الإنسان، والمشرك سيّء الظّنّ ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾[الفتح: ٦].

قال: «**الشِّرك وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ**»؛ دعوةُ غيره أيًّا كان المدعوّ؛ لأنَّا عرفنا أنَّ العبادة حقٌّ لله وحده، فمقام الإنسان والشّخص ومكانته عند الله ليست مسوّغا أن يُجعل شريكا لله، الشّخص إذا كان له مكانة عند الله مكانته تحفظ ويُقرّ بها ويُعترف، لكنّها ليست مسوِّغا أن يُجعل شريكا مع الله جَلَّوَعَلَا يُدعى ويُستغاث به ويُلتجأ إليه وتصرف له أنواع العبادة؛ لأنَّها حقٌّ لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لا يجوز أن يُجعل مع الله فيها شريك أيًّا كان، لا ملَك مقرّب ولا نبيّ مرسل فضلا عن غيرهما كما يأتي دليل ذلك في الآية الّتي ساقها المصنّف وهي قول الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

شَيۡـٔٗاۖ﴾.

هذه الآية جمعت دلائل عديدة لما سبق ذكره عند المصنّف، وليكن حاضرًا في ذهنك الأمور العديدة الّتي قرّرها:

قرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن التَّوحيد أعظم ما أمر الله به وأنّه إفراد الله بالعبادة، وأن الشِّرك أعظم شيء نهى الله عنه؛ وأنه دعوة غير الله معه.

وهذا كله اجتمعت الدّلالة عليه في هذه الآية الكريمة ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾؛ هذه الآية جاءت في [سورة النِّساء]، وتُعرف عند بعض أهل العلم بآية الحقوق العشرة، لأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذكر فيها عشرة حقوق، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ [النساء]، بدأها بأعظم الحقوق وأهمّها وأكبرها على الإطلاق وهو قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

ولهذا لمَّا تتبع القرآن في آيات الأوامر والنّواهي ويأتي في القرآن في مواضع عديدة ذكر الأوامر والنواهي متوالية في موضع واحد تجدها في جميعها مبدوءة بهذا الأمر العظيم.

مثلها تماما قول الله سبحانه في [سورة الإسراء] قال: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ

إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء] ثمّ ذكر حقّ القرابة، ونهى عن التّبذير، نهى عن الزّنا، نهى عن القتل، نهى عن أشياء كثيرة، لكنه صدَّر هذه الأوامر والنَّواهي بالنّهي عن الشِّرك والأمر بالتَّوحيد.

ومثلها قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [الأنعام].

ومثلها قول الله تعالى في «صفات عباد الرَّحمن» قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان].

فترى هذا في آي القرآن عندما تُذكر الأوامر والنّواهي تُبدأ بالأمر بالتَّوحيد الّذي هو أعظم الأوامر، وبالنّهي عن الشِّرك الّذي هو أخطر النّواهي.

وقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أمرٌ بالتَّوحيد، ومرّ معنا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كلّ ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد»(١)، فمعنى قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحِّدوا الله، أي: أفردوا الله بالعبادة.

﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾؛ وَلا تُشْرِكُوا: أي لا تسوّوا بالله غيره، الشِّرك: التسوية، والشِّرك: العدل ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام]، أي: يعدلون به غيره، يسوُّون به غيره.

---

(١) «تفسير البغوي» (١/ ٧١).

﴿شَيْـًٔا﴾ جاءت في هذا السِّياق نكرةً، والسّياق سياق نهي فتفيد العموم، ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ أي: أيَّ شيء، مثلها مثل ما مرّ معنا ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن] أي: أيُّ أحدٍ كان، لا ملَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل ولا غيرهما مما هو دونهما، فالعبادة حق لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يجوز أن يُجعل مع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ شريك فيها.

هذه المسألة الّتي تضمَّنتها هذه الرِّسالة العظيمة هي في بيان الحنيفيّة ملّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهذه المعاني والمضامين فلتكن منك دوما حاضرة، استذكرها يوميًّا، راجعها يوميًّا، لا تفوِّت يوما إلّا وأنت تراجع هذه الحنيفيّة، ولتكن مراجعتك لها واستذكارك لها في الصَّباح الباكر في أذكار الصّباح كما كان نبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في حديث عبد الرَّحمن بن أبزى في «المسند» وفي غيره بسند ثابت؛ قال كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[(١)].

كل يوم في الصّباح يصبِّح الإنسان ويبدأ يومه باستحضار الحنيفيّة، التَّوحيد، الفطرة، الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويبدأ يومه بعهد مع الله بأن يمضي يومه بالتَّوحيد، لكن تجد بعض النَّاس - نسأل الله العافية والسّلامة - يصبح على التّوجه للقبور وللأضرحة هنا وهناك يسأل

(١) رواه أحمد في مسنده (١٥٣٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٨٠٣).

ويستغيث ويهيّئ نفسه مِن اللّيل ليذهب إليها ليسأل غير الله ويصرف العبادة لغيره.

فالمسلم الحقّ الموحّد الصّادق كل يوم يصبح على التَّوحيد، على الفطرة، على الإخلاص، على الحنيفيّة، على إفراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده بالعبادة.

ولهذا يُحفظ هذا الدُّعاء وهذا الذكر المبارك ويردِّده المسلم، يأتي به في الصّباح الباكر، كلّ يوم في جملة أذكار الصّباح.

ويومٌ تشرق عليك شمسه وأنت صحيح معافى تصبِّح ذلك اليوم بإعلان التَّوحيد والبقاء على الفطرة، وعلى الحنيفيّة، وعلى ملّة أبينا إبراهيم؛ يومٌ أنعم به يوما وأكرم، يومٌ مبارك عليك، تصبح وأنت تعلن هذا الإعلان وتردّد هذا الكلام معلنا بقاءك، في النَّاس وفي العالمين مَن غيّر ومَن بدَّل تبديلًا ومَن تلوّث بأنواع من اللّوثات، وأنت يكرمك الله وينعم عليك وتصبح هذا الصّباح الكريم، تعلن في صباحك: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، وتبدأ يومك من صباحه الباكر وأنت على هذه الفطرة وعلى هذا التَّوحيد وعلى هذا الدّين القويم وعلى هذه الملّة الحنيفيّة السّمحة، وتمضي يومك كذلك في عهد مع الله وفي أمن وأمان وحفظ من الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام]؛ أمنٌ واهتداء في الدّنيا والآخرة.

وبهذا انتهت الرَّسائل الثّلاث الّتي جاءت في مقدِّمة الأصول الثّلاثة، والأصول الثّلاثة الآتي عرضها يظهر - والله تعالى أعلم - أنَّها رسالة مستقلَّة مفردة.

بعض طلاب الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وتلاميذه وضع هذه الرّسائل الّتي هي للشّيخ نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ بين يدي دراسة هذه الأصول الثّلاثة؛ تتميمًا للفائدة وإكمالًا للنَّفع وجمعًا لهذه المسائل العظام في موضع واحد، وإلى مثل هذا المعنى أشار الشَّيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على الأصول الثّلاثة، فلما بدأ بشرحها قال: «وما تقدّمها مِن المسائل – أي في الرسائل الثّلاث – فلعل بعض تلاميذه قرنها بها»[١]، أي بعض تلاميذ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قرنها بها؛ أي بالأصول الثّلاثة، وذلك تتميما للفائدة وجمعًا لهذا الخير العظيم في موضع واحد ليعظم انتفاع طالب العلم بهذا المجموع المختصر الجامع النّافع.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثّلاثةُ الّتي يجبُ على الإنسان معرفتُها؟

فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمَّدًا ﷺ.

فإن قيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

(١) «حاشية الأصول الثلاثة» (ص٤٠).

فقلْ: ربّي اللهُ الّذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ، والدَّليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ مِن ذلكَ العالَمِ.

فإذا قيلَ لكَ: بِمَ عرفتَ ربَّك؟

فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه؛ ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما، والدَّليل قولُه تَعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف]. والرّب هو المعبودُ، والدَّليل قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة]، قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ اللهُ تعالى: «الخالقُ لهٰذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادةِ».

الشرح:

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالكلام على الأصول الثّلاثة العظيمة وهي: معرفة العبد ربّه ودينه ونبيّه محمّدًا ﷺ، وهذه الأصول ينبغي ويجب على كلّ مسلم أن

يدرك إدراكًا تامًّا عظمتها وأهمِّيّتها وحاجته الملحَّة إلى معرفتها وضرورته الشّديدة إلى الدّراية بها والعمل بها وتحقيقها؛ إذ إنّ سعادة العبد في دنياه وأخراه ونجاته لا تتحقَّق إلّا بتحقيق هذه الأصول الثّلاثة، وقد صحّ في الحديث عن نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه مّن حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره أنّ الميّت إذا أدخل القبر أتاه ملكان وسألاه عن هذه الأصول الثّلاثة «**من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟**»، كلّ من مات وأدرج القبر وُجهت له هذه الأسئلة.

وجاء عن نبيّنا ﷺ أنّه قال: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»[1]، وطعم الإيمان: لذّته وحلاوته، فالإيمان له حلاوةٌ لا يمكن أن يذوقها القلب إلّا بالرّضا بهذه الأصول، والرّضا بهذه الأصول الثّلاثة يكون: بالعلم بها، وباعتقاد ما دلّت عليه، وبالعمل بها.

فهذه حقيقة الرّضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمَّد ﷺ رسولًا؛ حقيقة الرِّضا بذلك أن يتعلّم هذه الأصول تعلُّما صحيحا وأن يفهمها فهما صحيحا، وأن يعتقد ذلك اعتقادًا راسخا ويؤمن به إيمانا جازما، وأن يعمل بموجبات ذلك ومقتضياته.

ومِن عناية نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذه الأصول توجيهُه ﷺ المسلمَ عند

---

(١) رواه مسلم (٣٤).

سماع الأذان عندما يقول المؤذّن: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أنّ محمّدا رسول الله**» يُشرع للمسلم أن يقول: «**وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمّدًا رسول الله، رضيتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد ﷺ رسولاً**» لِما روى مسلم في «صحيحه» عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»[(١)].

وورد أيضا قول ذلك في أذكار الصّباح والمساء؛ أن يقول إذا أصبح ثلاثا: «**رضيتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمّد ﷺ رسولًا**» وثلاثًا إذا أمسى، على خلافٍ بين أهل العلم في تحسين الحديث الّذي ورد في ذلك أو تضعيفه، روي في الحديث: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَقُولُ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)].

كلُّ ذلكم يؤكِّد المكانة العظيمة لهذه الأصول الثّلاثة وحاجة المسلم إليها واستذكارها وتحقيق مضامينها وترسيخ الإيمان بها وتجديد ذلك

---

(١) رواه مسلم (٣٨٦).

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (٥٠٧٢)، وَابْنُ مَاجه (٣٨٧٠)، وَحسَّنَهُ الإِمَامُ ابْنُ بَاز رحمه الله فِي «تُحْفَة الأَخْيَار» (ص ٣٩)، وَضعَّفَهُ الأَلْبَانِي فِي «السِّلْسِلَة الضَّعِيفَة» (٥٠٢٠).

كلّ يوم؛ في أذكارك وعند سماعك للأذان وأنت تستحضر هذه الأصول الثّلاثة مستذكرًا لها، مجدِّدا الإيمان بها، حريصًا على تتميمها وتكميلها؛ كلّ ذلكم يؤكّد على أهميّة هذه الأصول الثّلاثة وعظم شأنها وحاجة كلّ مسلم إلى دراستها ومذاكرتها.

وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكرمه الله جَلَّ وَعَلَا ومَنَّ عليه بأن أفرد هذه الأصول الثّلاثة في رسائل؛ كتبها بصيغٍ تناسب طلّاب العلم، وكتبها أيضا بصيغة تناسب العوام - عوام النَّاس -، وأيضا مَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن نفع بهذه الأصول نفعًا عظيمًا واعتنى بها النَّاس عناية بالغة؛ تدريسًا ودراسة ومذاكرة وحفظًا[1].

وعاش على هذه الأصول أقوام أكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وماتوا عليها غير مغيّرين ولا مبدِّلين، وهذا فضل الله عَزَّوَجَلَّ يؤتيه مَن يشاء والله ذو

---

(١) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «وقد وُفِق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ توفيقـًا عظيمـًا، ونصح للناس نصحـًا بالغـًا عندما أفرد هذه الأسئلة الثلاثة في رسالة عمَّ نفعها وشاع ذكرها وانتشرت بين الناس، منهم من حفظها، ومنهم من قرأها غير مرة، ومنهم من درسها مرات، وتُرجمت إلى لغات كثيرة.

ومن نصحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشدة عنايته بهذه الأصول الثلاثة أنَّه كتبها بأكثر من أسلوب، كتبها لطلبة العلم، وكتبها للعوام وللصبيان، كلٌّ باللهجة التي تناسبه، ووقفت على نسخة من الأصول الثلاثة كتبها الشيخ بلهجة العوام، حتى إنَّه كتب: (وإذا قيل: وش ربك؟ قل ربي الله)» «تذكرة المؤتسي» (ص٢٨٧).

الفضل العظيم.

فينبغي على كلّ إنسان أن يغنم حياته في معرفة هذه الأصول الواجب على كل مسلم أن يتعلّمها، وأن يعتنيَ بدراستها، وأن يكثرَ مِن قراءتها ومطالعتها ومراجعتها، وأن يسعى في نشرها بين أهله وأولاده وقرابته وجيرانه؛ نشرًا للخير وتعميمًا للفائدة؛ فإنَّ الدَّال على الخير كفاعله، «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»(١)؛ ولهذا مِن أعظم ما يكون هديةً يقدِّمها الحاجّ أو المعتمر لأقاربه ولزملائه هذه الأصول الّتي سيُمتحنون عليها عندما يُدخلون في قبورهم حيث كلّ واحد منهم يُقال له: «مّن ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟».

والشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكرمه الله ومنّ عليه بأن جمع خلاصات عظيمة وزبد مفيدة تتعلّق بهذه الأصول الثّلاثة جمعها من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وسنة رسول الله ﷺ.

والشَّيخ كما يعلمه كلّ من اطلع على مؤلفاته ورأى مصنّفاته هذا دأبه؛ يذكر المسألة مضموماً إليها دليلها "يُشرع كذا والدَّليل: قال الله تعالى كذا"، فيذكر المسألة مضمومًا إليها دليها من كتاب الله أو سنة النَّبيّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا هذا الكتاب «الأصول الثّلاثة» هو عبارة عن

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

مسائل عظيمة ومهمّة للغاية مضموما إلى كلّ مسألة دليلُها مِن كتاب الله تبارك وتعالى أو سنَّة النَّبيّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ولهذا أقول: إنَّ هذه الأصول الثّلاثة خيرُ زاد ليوم المعاد، وجديرٌ بكل مسلم أن تكون عنايته بهذه الأصول واهتمامه بها أعظم من اهتمامه بأيّ أمرٍ آخر؛ لأنَّها أساس السّعادة وسبيل الفوز والفلاح في الدّنيا والآخرة.

ثمّ إنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لما أفرد هذه الأصول الثّلاثة بالتّأليف حرص أن يكتبها رَحِمَهُ اللَّهُ على صيغة سؤال وجواب، تيسيرًا للفائدة وتقريبًا للمنفعة جعلها على صيغة سؤال وجواب؛ إذا قيل لك كذا فقل كذا، وإذا قيل لك كذا فقل كذا... إلى آخر الرِّسالة، فكتبها على صيغة السّؤال والجواب؛ لأنَّ هذه الصيغة مِن الصيغ البليغة القويّة في تمكين الفائدة لدى المتلقّي، وكثيرا ما تأتي هذه الصّيغة في أحاديث النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ مثل قوله ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟»[1]، ومثل قوله: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟»[2]، ولهذا نظائر كثيرة في أحاديثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ يطرح سؤالاً ويجيب عليه، ويطرح سؤالاً آخر ويجيب عليه؛ فهذا يكون أبلغ، ومِن ذلكم قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات عديدة في القرآن: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن

(١) رواه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

ﭐلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ويأتي البيان.

فالشاهد أن الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حرص على كتابة هذه الأصول الثّلاثة بصيغة السّؤال والجواب، ولمّا كتبها للعوام أيضا كتبها بصيغة سؤال وجواب واختصر فيها المعلومات، وصاغها بأسلوب قريب من أساليب العامّة في الحديث واللّهجة؛ كلّ ذلكم من حرصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والّتي كُتبت للعوامّ مشهورة بـ«**الأصول الثّلاثة**»، وهذه مشهورة بـ«**ثلاثة الأصول**»؛ تفريقًا بين الرِّسالتين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثّلاثةُ الّتي يجبُ على الإنسان معرفتُها؟**»؛ قوله: «الّتي يجبُ على الإنسان» أي على كلِّ مكلّف، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى.

قوله: «معرفتُها» أي: معرفتها واعتقاد ما دلّت عليه والعمل بها.

«**فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمَّدا** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ وهنا بدأ كتابه «الثّلاثة أصول» بذكر الأصول الثّلاثة مجملة، ثمّ شرع بعد ذلك في تفصيلها أصلا أصلا، وكلّ أصل يذكر جملة مِن التّفاصيل المتعلِّقة به مع شيء مِن الدَّلائل مِن كتاب الله أو سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «**فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمَّدا** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن قاسم: «ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأصول الثّلاثة مجملة، ثمّ ذكرها بعد مفصَّلة أصلًا أصلًا تتميمًا للفائدة وتنشيطًا للقارئ؛ فإنَّه إذا

عرفها مجملة وعرف ألفاظها وضبطها بقي متشوّقا إلى معرفة معانيها، وهي المقصود بهذه النّبذة»[١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإذا قيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟**»؛ هنا شرع في التَّفصيل في بيان الأصل الأوَّل مِن الأصول الثّلاثة وهو معرفة العبد ربّه؛ إذا قيل لك من ربك؟ ماذا تقول؟ وإذا قيل لك من ربك؟ أي من خالقك؟ من رازقك؟ من المنعم عليك؟ من المتفضِّل عليك؟ من الرّب الّذي تعبده وتخضع له وتسجد له وتركع وتتقرّب إليه بأنواع القربات وتصرف له أنواع الطّاعات والعبادات وتخلص له دينك؟ «**فقلْ: ربّي اللهُ الّذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ**»؛ هذا هو جواب هذا السّؤال «من ربّك؟»، من هو؟ قلْ: ربّي اللهُ الّذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ.

«**قلْ: ربّي**»؛ الرّب معناه: الملك الخالق الرّازق المتصرّف السيّد، الّذي له التدبير لا شريك له في ذلك.

«قلْ: ربّي اللهُ»؛ و«الله» هذا اسم علَم على الله جَلَّ وَعَلَا، وهو دالّ على ألوهيّته وعبوديّته سبحانه؛ أنّه ذو الألوهيَّة والعبوديّة على خلقه أجمعين.

دالّ على ألوهيّته؛ أي على كماله وجلاله وعظمته وأنّه سبحانه له الأسماء الحسنى والصِّفات العلا، ودالٌّ على أنّه ذو العبوديّة على خلقه

---

(١) «حاشية الأصول الثلاثة» (ص٤٠).

أجمعين؛ أي يجب عليهم أجمعين أن يذلّوا له وحده وأن يخضعوا له وحده وأن يصرفوا له وحده جميع أنواع العبادة دون سواه.

قال: «**قلْ: ربّي اللهُ الّذي ربّاني**» وهذا مِن معاني الرّبوبيّة، مِن معاني الرّبوبيّة التّربيّة، والتربّية عامّة وخاصّة.

- **عامَّة لجميع المخلوقات**؛ بالإنعام وبالصّحة وبالطّعام وبالشّراب وبالغذاء وغير ذلك، فالله جَلَّوَعَلَا ربّ العالمين، فكلّ ما يكون في المخلوقات مِن إنعام وآلاء وعطاء ومِنَن إلى غير ذلك كلّه مِن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فهو ربّ العالمين، ربّى جميع العالمين بنعمه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل]، ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل].

- **وتربّية خاصّة**؛ وهي خاصّة بأنبيائه وأوليائه وعباده الصّالحين، بأن ربّاهم على الإيمان ووفَّقهم لهذا الدّين وهداهم لصراطه المستقيم، فهذه منَّة الله عليهم ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾[الحجرات]، وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات]. فإذاً التوفيق للإيمان والهداية للإسلام والإعانة على طاعة الله تَبَارَكَوَتَعَالَى والسَّير على صراطه المستقيم هذه تربّية خاصّة يتفضَّل

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها على مَن شاء مِن عباده، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقوله هنا: «**الّذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ**» المراد بالرّبوبيّة هنا العامّة؛ لأنّه قال: «جميعَ العالمينَ».

أمّا التّربيّة الخاصة ليست لجميع العالمين، وتكون على الإيمان والطّاعة والتّوحيد والإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذه التربيّة على من يختصّهم جَلَّ وَعَلَا بكرامته ويجتبيهم لصراطه المستقيم ويتفضل عليهم بالهداية لدينه القويم.

قال: «**الّذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ**»؛ أي بنعمه وآلائه ومننه الظّاهرة والباطنة، وكلّ نعمة بالعباد فهي مِن الله؛ فهو المانّ والمنعم والمتفضّل لا شريك له، الفضل فضل الله والإنعام إنعامه والأمر بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ يخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويقبض ويبسط، ويحيي ويميت، ويعزّ ويذلّ، يتصرّف في ملكه كيف يشاء ويقضي فيه بما يريد، لا معقِّب لحكمه ولا رادّ لقضائه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

قال: «**وهو معبودي**»؛ أي هذا الرّب العظيم الّذي ربّاني وربّى جميع العالمين بنعمته هو معبودي، أي: هو الّذي أقصده وحده بعبادتي؛ ذُلِّي وخضوعي ورجائي ورغبي ورهبي ودعائي وذبحي ونذري وصلاتي

ونسكي وغير ذلك مِن أنواع العبادة كلّ ذلكم أخصّه جَلَّوَعَلَا به، ولا أجعل معه شريكا في ذلك؛ لأنَّه وحده الّذي خلقني، لا شريك له في الخلق، وهو وحده جَلَّوَعَلَاالّذي ربَّاني وربَّى جميع العالمين بنعمه «**فهو معبودي ليس لي معبود سواه**» لا أعبد إلَّا إيَّاه، كما أنّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى تفرَّد بالخلق والرِّزق والإنعام وحده فأنا أفرده وحده بالعبادة ولا أصرف شيئًا مِن العبادة إلا له.

«**ليس لي معبودٌ سواهُ**» أيًّا كان، سواء كان ملكا أو نبيًّا أو وليًّا أو غير ذلك «ليس لي معبودٌ سواهُ»؛ أي: سوى الله، لا أدعو إلّا الله ولا أذبح إلّا لله ولا أنذر إلّا لله ولا أصلِّي إلّا لله ولا أصرف شيئًا مِن العبادة إلّا له ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام].

قال: «**وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ**» ما الدَّليل على ذلك؟ الأدلَّة على ذلك كثيرة جدًّا لكن الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الرِّسالة يذكر المسألة ودليلًا واحدًا عليها.

قال: «**والدَّليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكلُّ مَن سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ**».

الدَّليل هو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

«**الحمد**»: هو الثَّناء على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مع حبِّه سبحانه، حمدًا له على نعمائه وفضله وعطائه، وحمدًا له على أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله العظيمة سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

«لله» عرفنا معنى هذا الاسم ودلالته؛ قد قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «الله: أي ذو الألوهيَّة والعبوديّة على خلقه أجمعين»[١].

«ربّ العالمين» معناه في كلام الشَّيخ؛ قال: «وكلُّ من سِوَى اللهِ عالَمٌ»؛ العالَم: مَن سوى الله، والله ربّ العالم كلّه، ومعنى كونه جَلَّوَعَلَا ربّ العالمين: أي أنّه مالكهم ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران]، ومعناه أيضا أنّه خالقهم ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ [فاطر]، معنى ذلك أنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ سيِّدهم ومولاهم المتصرِّف فيهم؛ خفضًا ورفعًا، حياة وموتًا، عزًّا وذُلًّا، ليس لأحد غير الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ذلك، هو وحده المتصرِّف في هذا الكون لا شريك له، هو النّافع الضّارّ، هو المعطي المانع، هو القابض الباسط، هو المعزّ المذلّ، هو كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ۝٤٤﴾ [النجم]، هو المتصرِّف في هذا العالم كله لا شريك له في شيء من ذلك.

«ربّ العالمين» أي مالكهم وخالقهم وموجدهم من العدم، والمتصرِّف فيهم والمدبِّر لشؤونهم، والمخلوقاتُ كلُّها طوع تصريفه ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس]، وإذا حكم بشيء وقضى بشيء كان، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، الملكُ ملكه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ والخلق خلقه والعبيد عبيده ونواصي العباد بيده عَزَّوَجَلَّ ﴿كُلَّ

(١) «تفسير الطبري» (١/ ١٢٣).

﴿يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن] في ملكه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، يحيي ويميت، يعزُّ ويذلُّ، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، الأمر لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أولًا وآخرا، ظاهرا وباطنا، وليس لأحد من الأمر شيء، وفي القرآن قال الله سبحانه لنبيه محمَّد ﷺ سيد ولد آدم: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران] الأمر لله، والملك لله، والخلق تصريفهم بيد الله جَلَّ وَعَلَا.

«ربّ العالمين» هي أوّل آية تواجهك في القرآن بعد البسملة، وهي دعاء أهل الجنّة إذا دخلوا جنّات النّعيم – نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يكرمنا أجمعين بذلك – ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس].

فأنت عندما تقرأ «**الحمد لله ربّ العالمين**» وتتأمّل فيها وتتدبّر دلالتها تعرف قدر نفسك، إذا قرأتها ثمّ تساءلت في ضوء هذه الآية: مَن أنا؟ ماذا أكون؟

«**الحمد لله ربّ العالمين**» العالم: كلُّ من سوى الله.

الوجود وجودان: وجود الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ووجود مَن سواه، ووجوده جَلَّ وَعَلَا أولٌ بلا ابتداء وآخرٌ بلا انتهاء، ووجود المخلوقات بإيجاده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

العالم كلّه وُجد بإيجاد الله، والإنسان كان عدمًا ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان]، خلقه الله وجعل له السّمع والبصر

والحواس والقوى ومَنَّ عليه باللِّباس والغذاء والطعام.

فإذا قرأت «**الحمد لله ربّ العالمين**» ثمّ في ضوء ذلك تأمّلت وقلت: مَن أنا؟ ماذا أكون؟ العالم: مَن سوى الله وأنا واحد مِن هذا العالم، أنا فرد مِن ملايين وبلايين المخلوقات الّتي هي خلق الله جَلَّوَعَلَا، وجميع هذه المخلوقات ربُّ العالمين مطّلع عليها، وهي مخلوقات بالملايين والبلايين لا يحصي خلق الله إلا الله جَلَّوَعَلَا، لا يحصيهم إلا الّذي خلقهم سبحانه ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ۝٢٨﴾ [الجن]، جميع هذه المخلوقات، مِن أناس، مِن بهائم، مِن حشرات، مِن غير ذلك، جميعها ربُّ العالمين يعلم بها ويحيط بها ويرى حركاتها وسكناتها ولا تخفى عليه منها خافية، وأنت واحد مِن هذا العالم، مخلوق لله مربوب أوجدك الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من العدم.

ثمّ عجيبٌ حال بعض النَّاس! عندما ينسى نفسه، ينسى أنّه خُلق مِن نطفة، وينسى أنّه يحمل دومًا في بطنه العذِرة، وينسى أنّه سيكون يوما في حفرة تأكله الدِّيدان، ينسى أنّه خرج مِن مخرج البول مرتين؛ مِن أبيه وأمه، ينسى ذلك ثمّ يمشي على الأرض متكبراً متعاليًا مختالاً!! حتّى إنه ليوجد في بعض النَّاس مَن يقول: أنا ربُّكم الأعلى، ويقول: ما علمت لكم مِن إله غيري، ويقول ويقول ويقول، كل هؤلاء ما عرفوا أنفسهم، ما عرفوا إلَّا الشيطان؛ صاروا عبيدًا له مطيعين له في كلِّ ما يأمرهم به وما

يدعوهم إليه.

ولهذا لا يعرف نفسَه حقيقة إلَّا المسلم الّذي يعرف ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الّذي أوجده، ويعرف لِمَ أوجده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجاهد نفسه ليذلّها له جَلَّ وَعَلَا وينكسر بين يديه ويخضع لجنابه سبحانه؛ يركع له ويسجد، ويناجيه سبحانه ويبكي بين يديه، ويرجو رحمته سبحانه ويخاف عذابه، ويجاهد نفسه في حياته كلّها على تحقيق طاعته والذلّ والعبوديّة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلا يعرف نفسه حقيقة إلّا المسلم الّذي منَّ الله عليه بالإسلام وهداه لهذا الدّين العظيم والصِّراط المستقيم.

قال: «**فإذَا قيلَ لكَ: بِمَ عرفْتَ ربَّك؟**»؛ ما الآيات وما الدَّلالات وما البراهين الّتي بها عرفت ربَّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

قال: «**فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه**»؛ الآيات: جمع آية، والآية: العلامة والدَّلالة والبرهان والحجّة. والمخلوقات: جمع مخلوق وهو: ما أُوجد بعد العدم.

وقل في تتميمك الجواب على هذا السؤال: «**ومِنْ آياتِه اللّيلُ والنّهارُ والشّمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السّمٰواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما**».

«وَسُئِلَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ عَنْ هَذَا وَمَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى

فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللهِ إِنَّ الْبَعْرَ لَيَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ وَإِنَّ أَثَرَ الْأَقْدَامِ لَيَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟!»[١].

أي: هذه المخلوقات وهذه الآيات العظيمة العجيبة هي برهان ودليل على أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرّب المدبِّر المالك المتصرِّف الّذي لا شريك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شيء من ذلك «**ومِنْ آياتِه**».

ثمّ قال: «**ومِنْ مخلوقاتِه**»، و«مِنْ» هنا للتّبعيض؛ إشارةً إلى بعض الآيات العظيمة، وإلّا فحقيقة الأمر كما قال القائل:

وفي كـــلِّ شـــيءٍ لَـــهُ آيـــةٌ تـــدلُّ علـــى أنَّـــه الوَاحِـــدُ

جميع ما تراه مِن المخلوقات دليل على خالقها ومبدعها ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور]، فالخالق لهذه لمخلوقات والموجد لهذه الكائنات بهذا الانتظام البديع والخلق العجيب والتّصريف والتّدبير؛ هذه آيات باهرات وحجج ساطعات ودلائل بيِّنات على أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الرّب الّذي لا إله إلّا هو ولا معبود بحقّ سواه.

---

(١) «معارج القبول» (١/ ١٠٠)، وقد ذكر العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الأمثلة والحكايات في الاستدلال على الله في كتابه القيم: «البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله» (ص٢٦).

قال: «**ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ**»؛ الليلُ والنهارُ آية من آيات الله العجيبة، حيث إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل هذه الآية العظيمة تمرُّ على النَّاس بمرّ الأيّام واللّيالي؛ ليل ونهار وشمس وقمر، وتمشي بانتظام ودقّة عجيبة كما أمرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] كلّ منهما يسير بانتظام عجيب ليس أحد منهما يسبق الآخر، ويمشيان بانتظام عجيب ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف]، فهذه مِن آيات الله العجيبة؛ تصبح وتمسي وأنت ترى هذه الآية الدَّالة على كمال الخالق وعظمة المبدع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**والشمسُ والقمرُ**» كلّ منهما يجري بحُسبان وبأمر الرحمن سبحانه ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]، هذه آيات من آيات الله العظيمة جعلها أمام العباد يشاهدونها ويرونها مع تكرّر الأيّام واللّيالي ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

قال: «**ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبع**»؛ هذه مخلوقات عجيبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دالّة على كمال ربوبيّته وعظمته جَلَّ وَعَلَا؛ الأرضون السّبع وما أبدع فيها مِن جبال وأنهار وأشجار وأودية ومخلوقات، والسّماوات وما جعل فيها مِن العبر والعظات والآيات.

قال: «**ومَا فيهنَّ وما بينهما**»؛ «ومَا فيهنَّ» أي السّماوات والأرضين،

«وما بينهما» أي ما بين السَّماء والأرض من هواء وسحاب ونحو ذلك؛ فهذا كلّه من خلق الله جَلَّوَعَلَا الدالّ على أنه الرّب المعبود بحقّ، وأنّه لا معبود بحقّ سواه.

قال: «والدَّليل قولُه تَعَالىٰ» هذا الدَّليل على الأول وهو الآيات ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ هذه آيات من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدالّة على وحدانيّته.

قال: ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ نعم هذه آية عظيمة تشدّ القلوب والأبصار، وحركتُها عجيبة وانتظامها عجيب؛ لكن كلّ ما ترونه في هذا الكون من أمور عجيبة أو عظيمة أو جميلة كلّ ذلكم لا شيء منه يستحق العبادة لأنّها كلّها مخلوقات لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والمخلوق أيًّا كان ومهما بلغ من العظمة والحسن والجمال والقدرة ونحو ذلك لا يستحقّ من العبادة شيئا، العبادة لمن خلقه وأوجده، أمّا المخلوق لا يستحقّ من العبادة ولا شيئا يسيرا.

قال: ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ٣٧ ﴾؛ وهذه قاعدة يستفيدها المسلم في هذا الباب؛ يعني مهما ترى في هذه المخلوقات من الأشياء العظيمة، إما في حسنها وجمالها، أو في قوّتها وقدرتها، أو في مكانتها ومنزلتها، أو نحو ذلك كلّ ما تراه لا يستحقّ العبادة.

الّذي يستحق العبادة هو الخالق لهذه الأشياء الموجد لها مِن العدم.

قال: «**وقولُهُ تعالى**»؛ هذا الدَّليل الثَّاني لقوله: «ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ.. الخ».

قال: «**وقولُهُ تعالى**: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾»؛ فهذه مخلوقات عظيمة وكبيرة دالّة على أنّ خالقها ومبدعها هو المستحقّ للعبادة دون سواه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ثمّ ذكر مخلوقاته الدّالة عليه؛ ذكر أولًا: خلق السّماوات والأرض في ستّة أيّام، وخلق السّماوات والأرض بهذه الهيئة العجيبة والصّفة العظيمة آية مِن آيات الله الدّالة على وحدانيته وفردانيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرش المجيد العظيم الكريم أيضًا هذا من مخلوقات الله العظيمة، والعرش سقف المخلوقات وأعلاها، وقد وصفه الله في القرآن بأنه عرش مجيد، وأنه عرش عظيم، وأنه عرش كريم لحسنه وبهائه.

وصفه الله جَلَّ وَعَلَا بهذه الصِّفات، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ

عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»[(١)]، فعرش الرحمن جَلَّ وَعَلَا هو أكبر المخلوقات وأوسعها وأعظمها، ولهذا وصفه الله بالمجيد قال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥]، والمجيد يدل على السعة.

فالعرش أكبر المخلوقات وأوسعها؛ وهذا من آيات الله العظيمة ومن مخلوقاته الكبيرة الدالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى.

وحتّى نتفكر قليلاً ونتدبر في هذا الأمر نستذكر حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتيت النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو جالس في المسجد الحرام وسألته عن الكرسي؛ قول الله سبحانه وتعالى في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فقال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»[(٢)]، يعني قطعة من حديد صغيرة ألقيت في صحراء؛ ماذا تكون نسبة الحلقة الصغيرة من الحديد الّتي ألقيت في صحراء واسعة؟! السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «العرش» (٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٦١)، وللحديث طرق أخرى ذكرها الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩)، وقال: « وجملة القول أن الحديث بهذه الطرق صحيح ».

كحلقة فالكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ألقيت في فلاة، والأرض الّتي أنت عليها ما نسبتها لعموم الأرض؟ وما نسبتها للأرضين السبع؟ وما نسبتها للسماوات المحيطة بالأرضين؟ كل هذه نسبتها للكرسي كحلقة حديد صغيرة ملقاة في صحراء، هكذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والكرسي نسبته للعرش كحلقة من حديد صغيرة ألقيت في صحراء.

هذه آيات عظيمات تدلّ على الله سبحانه وتعالى، ولهذا جاء ذكر الكرسي في [آية الكرسي] تمهيداً لذكر عظمة الله، لأنَّه قال: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، فذكر الكرسي تمهيداً لذكر عظمته سبحانه.

والرّب جل وعز عظُم شأنه وتعالى جدُّه ولا إله غيره أخبر عن نفسه في سبع آيات من القرآن الكريم أنه استوى على العرش؛ أي علا وارتفع عليه.

ونحن نؤمن بما أخبر به ربنا عن نفسه وبما أخبر عنه رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ونقول كما قال الله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ونقول كما قال الله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ [طه: ٥].

ولو قال لنا قائل: أين الله؟

نقول له: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾، فالجواب آية تتلى في القرآن الكريم في [سورة طه].

ودعك من أقاويل المبطلين وكلمات الضالين المنحرفين الزائغين، أجب بكلام الله وبكلام رسول الله ﷺ، وإياك أن تؤخَذ هنا وهناك بعيداً عن القرآن الكريم وبعيداً عن سنة النَّبيّ صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا وارتفع عليه، الاستواء معناه في اللغة: العلو والارتفاع، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا وارتفع عليه.

فإذا قال لك قائل: كيف استوى على العرش؟

فتقول له: الله جَلَّ وَعَلَا أخبرنا في القرآن أنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى، فالّذي أخبرنا الله سبحانه وتعالى به نقوله ونؤمن به ونعتقده ونعلن اعتقادنا له، والّذي لم يخبرنا الله سبحانه وتعالى به لا نخوض فيه ولا نتكلم فيه بحرف واحد.

ولهذا لما قال رجل للإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام دار الهجرة، لما قال له: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ غضب رَحِمَهُ ٱللَّهُ غضباً شديداً حتّى إن جسمه تصبب عرقاً تعظيماً لله سبحانه وتعالى؛ علته الرُحضاء؛ أي تصبب عرقاً، وقال كلمته العظيمة المشهورة؛ قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥)، والصابوني في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (ص٣٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٤)، وانظر: طرق هذه =

«الاستواء معلوم»: أي معناه معلوم أي: علا وارتفع.

«والكيف مجهول» لأنَّا لم نخبر بالكيفية، أُخبرنا بالاستواء ولم نخبر بكيفيته فلا نخوض في ذلك؛ ولهذا طريقة السلف في الصِّفات هي: «أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف»(١) يعني لا تخض بالتكييف، لأنه باطل، وهو قول على الله بلا علم والله يقول: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولࣰا﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ هو جَلَّ وَعَلَا مستوٍ على عرشه العظيم المجيد الكريم ويدبر مخلوقاته ويتصرف في الكائنات كيف يشاء، وتتنزل تدابيره وأوامره وأحكامه وقضاؤه سبحانه، ولا يتخلف شيء مما قضاه وقدَّره جَلَّ وَعَلَا.

ولهذا ينبغي على المؤمن أن يقوِّي هذه الإيمانيات في نفسه لتقوى

القصة والكلام عنها في كتاب شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله «الأثر المشهور عن الإمام مالك في صفة الاستواء دراسة تحليلية» وهو مطبوع ضمن العددين (١١١، ١١٢)، من «مجلة الجامعة الإسلامية».

(١) انظر: «شرح الاعتقاد للالكائي» (رقم ٨٧٥، ٩٣٠)، و«الصفات» للدارقطني (ص٧٠)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص١١٨).

(١) انظر: «شرح الاعتقاد للالكائي» (رقم ٨٧٥، ٩٣٠)، و«الصفات» للدارقطني (ص٧٠)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص١١٨).

صلته بربه.

زينب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ماذا كانت تقول في قصة زواجها؟

«فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»[1] ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

زوَّجها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات فكانت تفخر بذلك؛ فانظر إلى هذا الإيمان بالله جَلَّوَعَلَا وأنه من فوق سبع سماوات يقضي ويحكم ويدبر ويسخِّر ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع عَزَّوَجَلَّ سبحانه.

ولهذا عندما يكون العبد ساجدًا يذكر هذه العقيدة العظيمة ويسبح الرّب الأعلى في سجوده قائلاً: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»[2]، «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[3].

قال: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ»: أي يغطي الليل النهار، «يَطْلُبُهُ حَثِيثًا» أي يطلبه سريعـًا.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ كل هذه المخلوقات ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي تسير وتتحرك بتسخيره وتدبيره سبحانه وتعالى، ليس لها من

(١) رواه البخاري (٧٤٢٠).

(٢) رواه مسلم (٧٧٢).

(٣) رواه مسلم (٤٨٢).

الأمر شيء، الأمر لخالقها ومالكها ومسخرها سبحانه وتعالى.

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾؛ له الخلق وله الأمر، أي هو متفرد بالخلق والأمر.

والخلق وهو: إيجاد هذه الكائنات.

والأمر: هو أوامره سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وأمره: كلماته سبحانه وتعالى، وكلماته نوعان: كلمات كونية قدرية، وكلمات شرعية دينية.

فالخلق لله والأمر لله وفرّق سبحانه وتعالى بين الخلق والأمر؛ وهذا فيه دلالة على أن القرآن وهو من كلام الله سبحانه وتعالى ليس مخلوقًا، لأنَّ الله فرّق بين الخلق وبين الأمر جَلَّ وَعَلَا.

قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَبَارَكَ: أي تعاظم وجلّ وعز شأنه سبحانه وعظم؛ وهذا لا يطلق إلا على الله، «تَبَارَكَ» هذه الكلمة لا يجوز أن تطلق إلا على الله، لا يجوز أن يقال في أي مخلوق «تبارك»، هذا أمر لا يطلق إلا على الله، يمكن أن يُقال: «مبارك» ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١]، ويمكن أن يُقال: "بارك الله فيك" أو نحو ذلك، أما «تبارك» هذه كلمة لا تطلق إلا على الله سبحانه. قال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال: «**والرّب هو المعبودُ**»؛ أي الرّب الّذي خلق هذه المخلوقات

وأوجد هذه الكائنات وأبدعها سبحانه وتعالى وأوجدها بعد أن لم تكن هو المعبود؛ أي الّذي لا معبود بحق سواه، له العبادة وله الذل وله الخضوع كما قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

قال: «**والرّب هو المعبودُ**» أي الّذي يجب أن تصرف له العبادة وحده دون سواه.

«**والدَّليل قولُه تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾»؛ هاتان الآيتان الكريمتان هما أول آيتين وردتا في القرآن في باب الأمر والنهي، فأول ما تقرأ في الأوامر في القرآن: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، وأول ما تقرأ في النواهي في القرآن: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾، فأول أمر في القرآن أمر بالتَّوحيد، وأول نهي في القرآن نهي عن الشِّرك والتنديد.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فهذا نداء لجميع النَّاس أن يفردوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، وكما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّه قال: «كلّ ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد»[1].

(١) «تفسير البغوي» (١/ ٧١).

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي أفردوه بالعبادة ووحدوه سبحانه وتعالى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي الّذي تفرد بخلقكم وخلْق من قبلكم، أي كما أنه سبحانه تفرد بالخلق للعالمين لا شريك له في ذلك فيجب أن يُفرد وحده بالعبادة، لا أن يكون هو الخالق والعبادة تصرف لغيره، وهذا من النبأ العظيم والأمر الغريب في حال كثير من النَّاس؛ تفرّد رب العالمين بخلقهم ورزقهم والتصرف فيهم ثمّ يفزعون إلى غيره ويلجؤون إلى من سواه! !

فإذا أراد حاجة ومطلباً ورغبة فزع إلى غير الله: من شجر أو حجر أو ميت أو غير ذلك، يفزع إليهم في حاجاته ورغباته، فهذا من الأمر العجيب في حال بعض النَّاس والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي أفردوه - جَلَّ وَعَلَا - بالعبادة ولا تجعلوا معه شريكاً في ذلك.

ثمّ ذكر جَلَّ وَعَلَا من آياته ومن مخلوقاته الدالة على وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي مفروشة ممتدة، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: أنزل المطر من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: من أنواع الثمّار والزروع رزقاً لكم؛ وهذا كله تفرد به رب العالمين.

قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والخطاب هنا للمشركين الّذين جعلوا مع الله سبحانه وتعالى الأنداد والشِّركاء؛ يعبدونهم مع الله ويدعونهم مع الله ويستغيثون بهم مع الله ويلتجئون إليهم مع الله، قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي لا تجعلوا لله شركاء ونظراء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ الخطاب للمشركين فما معنى قول الله لهم: ﴿وَأَنتُمْ﴾ أي أيها المشركون ﴿تَعْلَمُونَ﴾؟ ماذا يعلم المشركون؟

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يوضح معنى الآية: «أي: لا تشركوا بالله غيرَه من الأنداد التي لا تَنفع ولا تضرّ، وأنتم تعلمون أنه لا ربّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه»[1]؛ المشركون يعلمون أنه لا خالق لهم غير الله، إذا قيل لهم: من خلقكم؟ من خلق السماوات؟ من خلق الأرض؟ من خلق الجبال؟ كل ذلكم يقولون: الله؛ ولهذا يقول رب العالمين: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ أي أيها المشركون ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي لله شركاء في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا خالق لكم غير الله.

وفي آية أخرى قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]؛ أي وما يؤمن أكثرهم بالله ربًا خالقًا رازقًا منعمًا إلا

(١) تفسير «الطبري» (١/ ٣٧٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٥٨).

وهم مشركون غيره معه في العبادة؛ يدعون غيره ويستغيثون بغيره ويلتجئون لغيره سبحانه وتعالى. قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

«**قَالَ ابنُ كثيرٍ**»؛ «ابنُ كثيرٍ» الحافظ الإمام المفسر صاحب التفسير العظيم الموسوم بـ: «تفسير القرآن العظيم» وهو من أنفع كتب التفسير وأنفعها وأجودها.

قال رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «الخالقُ لهٰذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادةِ»[١]؛ هذه خلاصة بديعة مستنبطة ومأخوذة من هذه الآية؛ أي الخالق لهذه الأشياء؛ أي الخالق لكم ولمن قبلكم وللسماء وللأرض وللسحاب وللنبات؛ الخالق لهذه الأشياء كلها هو المستحق للعبادة، أي لا أحد يستحق العبادة سواه، الّذي يستحق العبادة ذلاً وخضوعاً وانكساراً ودعاءً ورجاء هو الخالق لهذه الأشياء، أما من سوى الله من الملائكة والأنبياء وغيرهم كل هؤلاء لا يستحقون من العبادة أي شيء، لأنَّ العبادة حقٌّ للخالق الجليل والرّب العظيم الخالق لهذه الأشياء الّذي لا شريك له في خلقها. وسيأتي عند المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان عظيم للعبادة وذِكر أفراد عديدة لها مع ذكر الدلائل على ذلك من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

فهذا كلام يتعلق بالأصل الأول؛ وهو معرفة العبد ربه، ولا يزال لهذا

---

(١) ونصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غَيره» «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٩٤).

الموضوع صلة في بيان أنواع العبادة، لأنَّه تحصَّل لنا مما سبق أن العبادة حق لله، لا يستحق العبادة إلا الخالق لهذه الأشياء وهو رب العالمين لا شريك له؛ وهذا يستوجب على كل مسلم أن يعرف العبادة ما هي؟ وأن يعرف أفرادها ليفردها ويخلصها لله جَلَّ وَعَلَا، ولا يجعل مع الله شريكًا في شيء من ذلك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأنواعُ العبادةِ الّتي أَمَرَ اللهُ بها: مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ؛ ومنهُ الدُّعاء، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والأَنَابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنذرُ، وغيرُ ذلك من أنواعِ العبادةِ الّتي أمرَ اللهُ بها كلُّها لله تعالى، والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]. فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغير الله فهو مشركٌ كافرٌ، والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وفي الحديثِ «الدُّعاء مُخُّ العِبَادَة» والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

ودليلُ الخوفِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل

عمران: ١٨٥].

ودليلُ الرَّجاءِ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهبَةِ والخُشوعِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ودليلُ الخَشيةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

ودليل الأَنَابةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

ودليل الاستعانةِ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي الحديثِ: «إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ».

ودليل الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ [الفلق: ١]، و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [النَّاس: ١].

ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٩].

ودليل الذَّبحِ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، ومِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

ودليلُ النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]».

الشرح:

ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملّة من أنواع العبادة بيانـًا لها وتذكيراً ودلالةً بها على ما سواها من أنواع العبادة مما لم يذكره، والّذي ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا وهو سبعة عشر نوعـًا من أنواع العبادة ذكرها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، مبينـًا في كل نوع من هذه الأنواع وفرد من هذه الأفراد دليله من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، والمسائل الّتي لا تقوم على دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والتي ليس لها مستند من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة نبيه ﷺ فهي مردودة، ولهذا نرى الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على طريقة أهل العلم وجادة السلف أهل السنة يذكرون المسألة مضمومـًا إليها دليلها إما من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا أو سنة نبيه ﷺ، فهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم ولا يخترعون - وحاشاهم ذلك - بل يبنون كل ما يقررونه على الدلائل البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات من كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهم أئمة هدى ودعاة حقٍ إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإلى صراط الله المستقيم.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في الأصل الأول -الّذي هو معرفة العبد ربه- أن معرفة العبد ربه تكون باعتقاد أن الرّب الّذي تفرد بالخلق والرزق والّذي يُعرف

بآياته ومخلوقاته لا يُعبد إلا هو كما مر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والرّب هو المعبود» وتلا قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١]، ونقل كلام الإمام المفسر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة»؛ فإذا تقرر ذلك وجب على المسلم أن يعرف العبادة وأن يعرف أنواعها ويجتهد في معرفة أفرادها ليصرفها كلها لله، ولكي لا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكًا في شيء منها.

ولهذا أخذ يعدِّد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواعًا من العبادة مستدلًّا على كل نوع من هذه الأنّواع بدليله من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ولهذا قال: «**وأنواعُ العبادةِ الّتي أَمَرَ اللهُ بها**» ولنتنبه إلى قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الّتي أَمَرَ اللهُ بها»؛ لأنَّ العبادة هي شرع الله الّذي أذن هو جَلَّ وَعَلَا لعباده أن يتقربوا به إليه كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣] قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فالدّين هو ما أذن الله به ورضيه لعباده وأمرهم به في كتابه أو في سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ**» وهذه الأمور الثّلاثة الّتي بدأ بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي الدّين كله، كما هو مبين في حديث جبريل المشهور لما سأل النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الإسلام ثمّ سأله عن الإيمان ثمّ سأله عن

الإحسان ثمّ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في تمام الحديث: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[١]؛ فالدّين يجمعه هذه المراتب الثّلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان؛ هذه مراتب الدّين.

وأعلى هذه المراتب الإحسان؛ وهو أن يعبد المسلم ربه جَلَّ وَعَلَا كأنه يراه، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

ثمّ يلي هذه المرتبة مرتبة الإيمان وقد فسر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الإيمان بذكر أصوله الّتي عليها يبنى، قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

ثمّ يلي هذه المرتبة مرتبة الإسلام، وفسره النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».

فهذه الثّلاثة هي الدّين؛ الدّين إسلام وإيمان وإحسان، وكلٌّ من هذه الأسماء - الإسلام والإيمان والإحسان - جاء بيانها مجملاً ومفصلاً في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا؛ ولهذا من العبادة ومن الدّين الّذي نتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به أن نحقق العلم بهذه المراتب الثّلاثة ونجتهد تحقيق في

---

(١) رواه مسلم (٨).

ذلك، وأن نحقق أيضاً العمل بهذه المراتب وما تقتضيه من ذل وعبودية وخضوع لله تبارك وتعالى. فهذا من العبادة؛ الإسلام والإيمان والإحسان، وهو من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله جَلَّ وَعَلَا بل هو الدّين كلّه؛ الدّين كلّه يجتمع في هذه الكلمات الثّلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، وسيأتي ذكر الدَّليل على هذه المراتب الثّلاثة عند المصنّف رحمه الله تعالى لاحقاً.

قال: «**ومنهُ الدُّعاء**»؛ من العبادة الّتي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ويفرد به وتُخلص له سبحانه وتعالى ولا يُجعل معه شريك فيها: الدُّعاء؛ بل إن الدُّعاء هو أعظم العبادة وأجلُّها، وسيأتي ذكر الدَّليل عليه وكذلك ذكر الأدلة على بقية العبادات الّتي ساقها المؤلف رحمه الله تعالى؛ فذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من العبادة: «**الدُّعاء، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والأَنَابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبحُ، والنذرُ**»؛ قال: «وغيرُ ذلك من أنواع العبادةِ»، وسيأتي الكلام على هذه العبادات واحداً واحداً مع ذكر الدَّليل الّذي ساقه المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه العبادات.

قال: «**وغيرُ ذلك من أنواع العبادةِ الّتي أَمرَ اللهُ بها كلُّها لله**» قال: «كلُّها» أي ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ من العبادة وما لم يذكره، لأنَّ الّذي ذكره ذكره على سبيل المثال، فما ذكره من العبادة: الدُّعاء والذبح والنذر والاستغاثة

والاستعانة وغيرها هذه كلها وغيرها أيضاً مما لم يذكره العبادة كلها حق لله جَلَّ وَعَلَا، العبادة الّتي هي غاية الذل مع الخضوع والحب لله هذه لله، لا يكون ذل الإنسان وخضوعه وانكساره وإتيانه بهذه العبوديات إلا للذي خلقه جَلَّ وَعَلَا وأوجده من العدم ومنَّ عليه بصنوف النعم وأنوع المنن؛ فلا يدعو إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يرهب إلا منه، ولا يصرف شيئاً من هذه العبادات ولا غيرها إلا لله تبارك وتعالى، فإن العبادة حق له لا شريك له في شيء منها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهما.

قال: «**والدَّليل**» أي والدَّليل على أن هذه العبادات كلها لله وأن أحداً ليس له شركة مع الله سبحانه وتعالى في شيء منها الدَّليل على ذلك:

«**قوله تعالى**: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾» أي لا تعبدوا مع الله أحداً، العبادة حق لله تبارك وتعالى؛ لا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا دعاء مسألة من سؤالٍ وطلبٍ ورغبةٍ، ولا تدعوا مع الله أحداً دعاء عبادة؛ فلا تذلوا وتخضعوا وتصرفوا العبادة إلا لله تبارك وتعالى، فالعبادة حق له وحده.

وقوله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾؛ «الْمَسَاجِد» تحتمل أحد معنيين:

١. تحتمل المساجد أي مواضع السجود[1]؛ ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ أي

(١) «تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٢).

مواضع السجود والأماكن المبنية للصلاة والسجود والعبادة لله تبارك وتعالى، ويكون المعنى ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾: أي مواضع السجود وأمكنة السجود لله فلا يُعبد فيها إلا الله، لأنَّها بيوت الله وأحب الأماكن إلى الله سبحانه وتعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، فهي أماكن لعبادة الله تبارك وتعالى فلا يُعبد فيها إلا الله، وفي الحديث: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[١].

٢. والمعنى الثاني: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾ أي أعضاء السجود[٢] وهي: الوجه الجبهة والأنَّف والكفين والركبتين وأطراف القدمين ﴿لِلَّهِ﴾ أي لا يسجد بها إلا لله؛ فلا يكون من العبد سجود وركوع وخضوع وذل إلا لله تبارك وتعالى.

﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ «أَحَدًا» نكرة جاءت في سياق النهي فتفيد العموم؛ أي أيُّ أحد كان، لا من الأنبياء المرسلين ولا من الملائكة المقربّين ولا من الأولياء الصالحين ولا من غيرهم؛ لا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا: أي أيّ أحد كان، فكل أحد مهما علا قدره وعلت منزلته وعظم جاهه ليس له أحقية في العبادة وليس له مشاركة في العبادة، العبادة ليست إلا لله وحده الّذي تفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعطاء والمنع

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢٠).

(٢) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢٣/ ٣٤٢).

والتدبير، العبادة له جَلَّ وَعَلَا وحده فلا يُصرف شيء منها لأحد سواه.

قال: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ هذا دليل صريح على أن العبادة كلها لله؛ من دعاء أو ذبح أو نذر أو استغاثة أو رجاء أو توكل أو غير ذلك كل ذلك لله لا يُصرف شيء منه إلا لله سبحانه وتعالى.

قال: «**فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغير الله فهو مشرِكٌ كافرٌ**»؛ مَنْ صَرَفَ منها أي من العبادات لغير الله فهو مشرِكٌ كافرٌ؛ مشرِكٌ: أي متخذ الأنداد مع الله، وكافرٌ بالله العظيم، وكل مشركٍ كافرٌ بالله سبحانه وتعالى؛ الّذي يتخذ الأنداد والشِّركاء مع الله هو كافر بالله غير مؤمن به، لأنَّه لا يكون الإيمان بالله إلا بتوحيده وإخلاص الدّين له، فمن لم يخلص الدّين لله جَلَّ وَعَلَا فهو كافر بالله، ومن كان كافراً بالله فأعماله كلها حابطة ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ﴾ [المائدة: ٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ فجعْل الشِّركاء مع الله تبارك وتعالى مبطل للأعمال محبط لها، ومن جعل مع الله الشِّركاء فهو مشرك كافر بالله تبارك وتعالى.

قال: «**فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغير الله فهو مشرِكٌ كافرٌ**» ما الدَّليل؟

قال: «**والدَّليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾**»؛ فسمى جَلَّ وَعَلَا من يدعو غيره ويعبد غيره كافراً بالله، والكافر أعماله كلها باطلة وعباداته كلها حابطة ولا

يقبل الله سبحانه وتعالى منها شيء، وإن مات على كفره بالله أدخله الله يوم القيامة نار جهنم مخلداً فيها أبد الآباد لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ٣٦﴾ [فاطر: ٣٦]، فكل كفور هذا مآله وهذا مصيره دخول النّار يوم القيامة والخلود فيها أبد الآباد.

قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي من يجعل مع الله آلهة أخرى أنداداً مع الله وشركاء مع الله يدعوهم كما يدعو الله ويذبح لهم كما يذبح لله وينذر لهم ويستغيث بهم ويلتجئ إليهم ويتوكل عليهم ويرجوهم ويخافهم ويصرف لهم أنواع العبادة فهو كافرٌ بالله تبارك وتعالى.

قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾ «لا بُرْهَانَ»: أي لا حجة ولا سلطان، وهذا كما بيَّن العلماء رحمهم الله وصفُ لازم لا ينفك؛ فكل من دعا مع الله إلهاً آخر لا برهان له، فهذا وصف لازم لا ينفك عن كل من دعا مع الله تبارك وتعالى إلهاً آخر.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي عقوبته وجزاؤه على شركه وكفره بالله عند ربه يوم يلقى الله جَلَّ وَعَلَا؛ فلا يغفر الله له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، ويدخله النّار مخلداً فيها أبد الآباد.

قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: لا سبيل لمن مات على الكفر بالله أن يحصِّل فلاحـًا، ولا مطمع له في مغفرة الله والفوز برحمته، لأنَّ الله توعد سبحانه وتعالى أن من مات على الشِّرك بالله لا يغفر الله له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فالّذي يموت على الشِّرك لا مطمع له في فلاح ولا سبيل له لنيل رحمة الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا فإن الكافر يوم القيامة يطالب بأمور لا يحصِّل شيئًا منها:

- يطالِب بأن يُعاد مرة ثانية للحياة الدّنيا ليعمل صالحـًا غير الّذي كان يعمل فلا يستجاب له.
- يطالب أن يخفف عنه العذاب في النّار وأن تخف عليه شدة العذاب فلا يستجاب له.
- يطالب ويتمنى أن يكون ترابـًا، يُقضى عليه فيموت فلا يستجاب له.

بل يأتيه كلام يسمعه هو أشد كلام يسمعه أهل النّار في النّار؛ وهو ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠]، يعني ليس هناك موت، وليس هناك تخفيف، وليس هناك عودة للحياة الدّنيا، بل ليس أمامكم إلا زيادة العذاب ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾؛ فهذه حال من يكفر بالله ويشرك بالله ويجعل مع الله تبارك وتعالى الأنداد. قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

لما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذين الدَّليلين:

❖ الدَّليل الأول: على أن العبادة كلها لله سبحانه وتعالى.

❖ والدَّليل الثاني: على أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو كافر مشرك.

لما ذكر الدَّليلين على ذلك؛ بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر الأدلَّة دليلا دليلاً على ما ذكره من أفراد العبادة، وسبق أن ذكر الدُّعاء والخوف والرجاء والتوكل.. الخ، فبدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر الأدلَّة من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا ومن السنة الدالة على أن هذه عبادات وأنها حق لله وأنه لا يجوز صرف شيء منها ولا من غيرها من العبادات لغيره سبحانه وتعالى.

فبدأ بالدُّعاء؛ وبدؤه بالدُّعاء: لأنَّه أعظم أنواع العبادة، ولهذا بدأ بالحديث الدال على ذلك قال: «**وفي الحديثِ** «**الدُّعاء مُخُّ العِبَادَة**»[(١)]»، ومعنى «مُخُّ العِبَادَة»: أي خالص العبادة ولب العبادة وصفو العبادة. فهذا فيه دلالة على أهمية الدُّعاء، وقد ثبت عن النَّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال في الحديث الآخر: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَة**»[(٢)]، وهذا فيه أن الدُّعاء أعظم أنواع العبادة لأنَّ النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أتى بهذه الصيغة بضمير الفصل والخبر المعرَّف

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٠١٦).

(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٢٧).

بالألف واللام ليدلّ على الحصر، وهذا فيه الدلالة على عظم مكانة الدُّعاء في العبادة وأن له المكانة العلية والمنزلة الرفيعة. نظيره قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»(١) وقوله: «**الْحَجُّ عَرَفَةٌ**»(٢) ونحو ذلك من الأحاديث.

فالدُّعاء عبادة عظيمة وطاعة جليلة لا تصرف إلا لله، ولهذا قال النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ**»(٣)؛ أي لا تسأل غير الله، لا تتوجه في سؤالك وطلبك ورغباتك وحاجاتك إلا لله تبارك وتعالى، لأنَّه وحده الّذي بيده العطاء والمنع، والخفض والرفع، والقبض والبسط، والعز والذل؛ كل ذلك بيده هو مالك الملك، وهو جَلَّ وَعَلَا مدبر الأمر وهو المعطي المانع الخافض الرافع القابض الباسط فلا يدعى إلا الله سبحانه وتعالى. والنَّبيّ ﷺ لما قال: «الدُّعاء هو العبادة» تلا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] أي حقيرين صاغرين ذليلين.

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

(٢) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٤١).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

فالدُّعاء عبادة والعبادة حق لله تبارك وتعالى، والأنبياء كلهم بُعثوا بالدعوة إلى دعاء الله وحده وصرف العبادة كلها لله جَلَّ وَعَلَا دون أن يجعل معه شريك في شيء من ذلك.

قال: «**والدَّليل**» على أن الدُّعاء عبادة قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ وهذه الآية تلاها النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما قال: «الدُّعاء هو العبادة»، وهي نص صريح في أن الدُّعاء عبادة لأنَّ الله قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ فسمى جَلَّ وَعَلَا من يستكبر عن الدُّعاء مستكبراً عن العبادة، فالدُّعاء عبادة والعبادة حق لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿۞وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]؛ فالدُّعاء هو من جملّة العبادات بل هو من أعظم العبادات الّتي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى.

ولهذا من دعا غير الله من ميت أو غائب أو شجر أو حجر وسأله وطلبه وعرض عليه حاجاته فقد أشرك بالله العظيم، لأنَّ الدُّعاء عبادة لا تصرف إلا لله ولا يتوجه فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى.

والمصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس المقام عنده في هذه الرِّسالة مقام بسط الأدلّة، ولهذا يكتفي في كل ما يذكره بذكر دليل واحد على ذلك من كتاب الله

وسنة نبيه ﷺ، وإلا لو تطالع القرآن في موضوع الدُّعاء خاصة تجد الأدلَّة على وجوب الإخلاص لله وبيان أن من دعا غير الله تبارك وتعالى بأنه مشرك بالله كثيرة جدًّا في القرآن الكريم، ومع كثرتها وصراحتها ووضوحها فإن الدُّعاء أكثر العبادات الّتي تصرف لغير الله!! وكثيراً من النَّاس ولاسيما عند الضراء وعند نزول البلاء وعند حلول الأمراض والأسقام وعند اشتداد الحاجات والطلبات يفزعون إلى غير الله سبحانه وتعالى ويلجؤون إلى غير الله ممن لا يملك له، لا يملك لنفسه فضلاً أن يملك لغيره.

ولهذا يجب على المسلم أن يدرك هذه الحقيقة وأن يعلم هذا الأمر جليـًا؛ فلا يصرف دعاءه إلا لله سبحانه وتعالى؛ لا يدعو ملكـًا، لا يقول في دعائه وحاجته: "يا جبريل أو يا إسرافيل أو يا ميكائيل أو يا ملائكة الله" لا يقول ذلك، الملائكة لهم مكانة عظيمة ومنزلة علية لكن مع مكانتهم ومنزلتهم ما يجوز أن يُجعلوا آلهة مع الله يدعون وتصرف لهم العبادة الّتي هي حق لله، وكذلك لا يجوز دعاء الأنبياء، لا يقول: "يا أنبياء الله أدركوني أو الحقوني أو أنا عائذ بكم أو لائذ بجنابكم أو مستجير بكم"، ولا يقول: "يا نبي الله أو يا رسول الله الحقني أدركني أنقذني"، ولا يقول: "يا أولياء الله أو يا سيدي فلان أو يا شيخ فلأنَّ الحقني أدركني"؛ لا يقول ذلك لأنَّ هذا دعاء والدُّعاء لله ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ**»[١].

ولا أنسى قصةً مرّت عليَّ مع شخصٍ كان جالسًا إلى جنبي في المسجد بعد صلاة المغرب منذ سنوات، وكنت أقرأ القرآن وكان مادًّا يديه يدعو، ثُمَّ ازداد في اجتهاده بالدّعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه؛ فأثّر فيَّ خشوعه، ثُمَّ رفع صوته قليلا في دعائه فإذا به يقول في دعائه متذللا: (يا رسول الله)، ويعرض حاجاته، مستغيثًا مستنجداً! فتحدثت معه طويلاً: بدأت حديثي معه أوّلا بسؤاله عَنْ صحته وعَنْ بلده وعَنْ أولاده وعَنْ سفره وعَنْ أمور عديدة، ثُمَّ لما اطمأنَّ للحديث معي انتقلتُ إلى جانب آخر وهو أَهَمِّيَة الدُّعاء ومكانته في الدين، وأخذتُ أسوقُ له آيات وأحاديث عديدة في فضله، ففرح بها لأنَّه كان يدعو، ثُمَّ التفتَ إليَّ وكأنَّ الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم أو حاجات ويبكي يريد مِنَ الرَّسول ﷺ أنْ يكشفها عنه ويجلّيها، ثُمَّ انتقلتُ إلى حديث آخر أبيِّن فيه أنَّ الدُّعاء حقٌّ لله سبحانه وتعالى وحده، وأنَّ هذه المسألة بُيِّنتْ في القرآن بيانًا واضحًا لا خفاء فيه، وأخذتُ أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ [سُورَةُ].

وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ].

وقوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ [سُورَةُ سَبَإٍ].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ [سُورَةُ الأَحْقَافِ].

وآيات في هذا المعنى عديدة، ثُمَّ انتقلتُ إلى السُّنَّة وبدأتُ أذكر له أحاديث نبوية في ذلك، وكل ذلك وهو يصغي إليَّ، ثُمَّ ذكرت له أمثلة مِنْ أدعية النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قلت له: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا»[١].

وكان إذا خرج عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من بيته قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

عَلَيَّ»(١).

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى رَجُلاً فَقَالَ: «إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ»(٢).

وذكرت له نماذج واضحة لا لُبس فيها يفهمها العاميُّ فضلًا عَنْ غيره، أنْهَيتُ وهو يسمع بكلِّ إصغاءٍ وإنصاتٍ، فأحببتُ أنْ أطمئنَّ هل فهم الرجل أم لا؟ وهل استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرحتُ عليه سؤالاً: ما رأيك؟

فقال لي: تقول لي ما رأيك؟! وأنت تقرأ عليَّ آيات وأحاديث؟!

فقلت: لأنني سمعتك تقول في دعائك: كذا وكذا، فأقصد بقولي: ما رأيك؟ هل استوعبت وفهمت وعقلت معاني هذه الآيات والأحاديث أم لا؟ فقال لي كلمة عجيبة: أنا من بلد كذا وكذا - سمى لي بلده - ما أعقل أن أحدا قال لي هذا الكلام! أي أنه نشأ في بلدة إذا سمع الخطيب يوم

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

الجمعة عرض له شبهات، وإذا حضر درسًا أيضًا عُرضت عليه شبهات، وإذا قرأ كتابا من الكتب الَّتِي حوله تعرض عليه كذلك، ثُمَّ ينشأ ويكبر ولا يسمع إلا هذا الكلام الباطل، وأما آيات التوحيد الَّتِي هي واضحة حُجبت وغُيِّبت عنه، وحُذِّر أيضا من فهمها بقواعد باطلة.

وكثير من النَّاس يبتلى في بلده أن دعاة الضلال يفهمونه أن دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله توسل ويقولون هذا واسطة بيننا وبين الله، هذا واسطة وشفيع لنا عند الله سبحانه وتعالى؛ فيدعون غير الله ويستغيثون بغير الله ويصرفون هذه العبادة الّتي هي حق لله لغيره بزعم أنه واسطة يقربهم إلى الله، وهذا نظير ما جاء في القرآن: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] في الآية الأخرى: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي وسطاء لنا عند الله.

من الّذي قال لك اتخذ في باب الدُّعاء بينك وبين الله واسطة؟ الله يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ﴾ ماذا؟ ﴿ ٱدۡعُونِيٓ ﴾ اتجهوا إلي، التجئوا إلي، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٠] من الّذي قال لك اتخذ وسطاء بينك وبين الله؟ الأنبياء واسطة بيننا وبين الله في إبلاغ الدّين يبلغوننا دين الله، لكن العبادة ليس بين الله وبين خلقه واسطة فيها؛ يُعبد الله مباشرة، يُتجه إلى الله سبحانه وتعالى مباشرة، لا يجعل العبد بينه وبين الله واسطة في دعائه أو في عبادته أو في سجوده أو في ذله أو في خضوعه،

فالّذي يتخذ الوسطاء والشفعاء تكون حاله كحال من قال الله عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

فالشاهد أن الدُّعاء نظير سائر العبادات بل هو أهم العبادات لا يصرف إلا لله؛ فلا يدعى إلا الله، ولا يستغيث العبد إلا بالله، ولا ينزل حاجاته ورغباته إلا بالله.

بعض النَّاس قد يخاطب مخلوقين ويقول في مخاطبته لمخلوق: "إن لم تدركني من الّذي يدركني؟ إن لم تأخذ بيدي من الّذي يأخذ بيدي؟ "، ويقول بعضهم لبعض المخلوقين مستغيثًا به: "أنا عبدك اللائذ بجنابك، المنكسر عند بابك، الواقف بأعتابك يرجوك ويطمع في نوالك" ويبدأ يلح ويسأل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، العبد لا يُعبد مهما كانت مكانته ومهما علت منزلته، العبادة حق لله سبحانه وتعالى وحده، والعبد مهما عظمت مكانته وعلت منزلته لا يُعبد، ولا يُعطى شيئًا من العبادة، نبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال في الحديث الصحيح: «وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[1]؛ منزلة العبودية والرِّسالة.

فالشاهد أن الدُّعاء عبادة وهي حق لله سبحانه وتعالى ولا يجوز صرفها

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٥١)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٠٩٧).

لغيره، والدَّليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾.

قال: «**ودليلُ الخوفِ قول الله تعالى:** ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾»؛ الخوف عبادة قلبية مكانها القلب؛ وهو فزع القلب ووجله، وهو عبادة لا تُصرف إلا لله جَلَّوَعَلَا، والمراد بالخوف الّذي هو عبادة ولا يجوز صرفه لغير الله: خوف السر، الخوف الباطن الّذي في القلب؛ الّذي يكون في قلب الإنسان بحيث يخاف في قلبه من شخصٍ ما بأن يدَّعي فيه بأنه عنده قدرة مثلاً على زيغ القلوب أو على قبض الأرواح أو يعتقد فيه أنه عنده قدرة على إنزال الضر به أو نحو ذلك؛ فيخافه خوف السر الّذي لا يكون إلا لله جَلَّوَعَلَا.

أو نحو ذلك من الاعتقادات والظنون والمخاوف الّتي قد ينزلها بعض النَّاس بغير الله جَلَّوَعَلَا.

مثال ذلك: أن يخاف بعض النَّاس من المقبورين؛ فيكون خائفًا من صاحب القبر وتجده يترك بعض الأعمال لا يفعلها خوفًا من صاحب القبر.

أحدهم قيل له احلف بالله وكان كاذبًا؛ فحلف، فقيل له احلف بالولي الفلاني؛ فامتنع لأنه خاف في باطنه وقلبه من الولي أشد من خوفه من الله سبحانه وتعالى والعياذ بالله، لما حلّفوه بالله حلف، ولما حلّفوه بالولي

امتنع؛ هذا خوف السر، يخاف من الولي أن يصيبه خوف سر في باطنه أشد من خوفه من الله؛ فهذا شرك بالله.

قال لي مرة أحد التجار في إحدى الدول؛ صاحب أموال وجاهل في الدّين وناصحته فيما قال لي، قال لي: أنا أبيع على النَّاس حاجات وأحيانًا أبيع بالدّين، يعني يأخذون مني بالدّين ويوفون فيما بعد، قال فبعضهم يجحد أحيانًا أن لي عنده شيء، يقول: جربت إذا حلفتهم بالله يحلفون وإذا حلفتهم بالشَّيخ فلان ما يحلفون، ويقول: أنا دائمًا ما أحلفهم بالله أحلِّفهم بالشَّيخ؛ لأنَّهم أبداً إذا حلفتهم بالشَّيخ ما يجحد.. يخاف من الشَّيخ من الولي خوف سر، ورب العالمين لا يخاف منه هذا الخوف الّذي يخافه من الشَّيخ.

فهذا العمل شرك بالله، لأن خوف السر عبادة لا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى.

أحد هؤلاء قيل له: احلف بالله فحلف، قيل له: احلف بالولي الفلاني فحلف، فغضب صاحبه، أنا لما قرأت هذه الكلمة «فغضب صاحبه» ظننتُ أنه غضب للشرك لكن قال: "فغضب صاحبه وقال: تحلف بالولي الفلاني وأنت تعلم أنه يعلم أنك كاذب؟!" فسبحان الله الولي ميت في قبره، ولما حلف بالله ما قال له: تحلف بالله وأنت تعلم أن الله يعلم أنك كاذب، ما قال له هذه الكلمة، لكن لما حلف بالولي غضب، ولما حلف

بالله لم يغضب!.

فمثل هذا التعلق - تعلق القلوب - بالأولياء والمقبورين وأن يخاف منهم هذا شرك بالله سبحانه وتعالى، وبعضهم قد يمتنع من أعمال كالزنا.. يخوفونه بالولي وما يخفونه بالله، فيكون هذا الخوف الّذي وقع في قلبه ومنعه من الفاحشة شرك بالله سبحانه وتعالى ناقل من الملّة، فعل الزنا لا ينقل من الملّة، والسرقة ما تنقل من الملّة لكن الشِّرك بالله ينقل من الملّة ويخرج من الدّين ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ الشِّرك محبط للأعمال كلها.

عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أحلف بغيره صادقًا»(١)؛ لأنَّ الحلف بالله كاذبًا كبيرة وليس شركًا، والحلف بغيره صادقًا شرك بالله سبحانه وتعالى، وعندما توازن بين الكلمتين تدرك فقه الصحابة؛ يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأنَّ أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أحلف بغيره صادقًا»، وفي كل من الأمرين حسنة وسيئة:

❖ الأمر الأول: الحلف بالله فيه حسنة: حسنة التَّوحيد، وفيه سيئة: سيئة الكذب.

❖ والأمر الثاني: فيه حسنة الصدق وفيه سيئة الشِّرك.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢٢٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٩٠٢)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٦٦٢).

فإذا وازنت تدرك فقه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأنَّ أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أحلف بغيره صادقًا»؛ لأنَّ الحلف بالله كاذبًا كبيرة، والحلف بغيره صادقًا شرك بالله جَلَّ وَعَلَا كما قال نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(١).

الشاهد أن خوف السر عبادة لا يجوز صرفه لغير الله، وخوف السر عرفنا معناه وهو أن يخاف من غير الله من ميت أو غائب أو نحو ذلك يخاف أن يقبض روحه، يخاف أن يطّلع على عمله، يترك المحرمات خوفًا منه، يفعل الواجبات خوفًا منه أو نحو ذلك؛ هذا يسمى خوف السر وهو عبادة لا يجوز أن تُصرف إلا لله رب العالمين وسيأتي الدَّليل على ذلك عند المصنّف رحمه الله تعالى.

أما الخوف الطبيعي؛ خوف الإنسان من عقرب أمامه، أو من حية، أو من نار مشتعلة، أو من عدو أمامه؛ هذا خوف طبيعي، جاء في الحديث أن النبي ﷺ: «كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ»(٢).

وفي القرآن: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ لما ألقى السحرة بعصيهم

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٥٦١).

(٢) رواه أبو داود (١٥٣٧)، صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٧٥).

وأصبحت حيات تسعى ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾ [طه: ٦٧-٦٨]؛ فهذا خوف طبيعي، يعني إذا كان أمام الإنسان أسد أو عقرب أو حية أو نار مشتعلة أو عدو متسلط فيخاف منه هذا خوف طبيعي ولا شيء على الإنسان فيه، لكن الخوف الّذي هو عبادة هو خوف السر؛ كأن يخاف غائبًا أو يخاف ميتًا أو نحو ذلك فيترك مثلاً المحرم خوفًا منه أو يفعل الواجب خوفًا منه أو نحو ذلك؛ هذا خوف سر لا يكون إلا لله تبارك وتعالى، ومن صرفه لغير الله فقد أشرك.

والخوف من الله هو عبادة قلبية عظيمة تسوق الإنسان إلى فعل الطاعات واجتناب المحرمات، لأنَّ العبد كلما كان من الله أخوف كان لعبادته أطلب، وقد قيل: «كل شيء تخاف منه تفر منه؛ إلا الله سبحانه وتعالى إذا خفته فررت إليه»، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] لا ملجأ من الله إلا إليه، ليس لك ملجأ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ [القيامة: ١١] لا مفر لك ولا ملجأ إليك إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ فالعبد إذا خاف الله سبحانه وتعالى في قلبه ترك المحرمات وابتعد عن الآثام وعن المعاصي خوفًا من الله.

فالخوف عبادة قلبية عظيمة، والعلماء رحمهم الله يقولون: العبادات عمومًا تقوم على أركان ثلاثة في القلب وهي: المحبة والرجاء والخوف(١)، وسيأتي ذكر الرجاء عند المصنّف.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَمَا حَفِظَتْ حُدُودَ اللهِ وَمَحَارِمَهُ وَوَصَلَ الْوَاصِلُونَ
=

فالمحبة عبادة، والرجاء عبادة، والخوف عبادة؛ وهي للعبادات كلها بمثابة الأركان، تقوم العبادات كلها على هذه الأركان الثّلاثة: الحب والرجاء والخوف.

فإذا قيل لك مثلاً: لماذا تصلي؟ لماذا تصوم؟ لماذا تحج؟ تقول: أنا أؤدي هذه الطاعات حبًا لله ورجاء لثوابه وخوفًا من عقابه كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧] فهذا شأن أهل الإيمان وأهل الطاعات يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بأنواع القرب وأنواع العبادات حبًا لله ورجاءً لثواب الله وخوفًا من عقاب الله سبحانه وتعالى. وبهذا يُعلم أن هذه الثّلاث - الحب والرجاء والخوف - أركان قلبية للعبادات كلها، وبها أيضًا يُعلم مكانة الخوف من الدّين؛ الخوف من الله سبحانه وتعالى.

قال: «**ودليلُ الخوفِ قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾»؛ أول الآية: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ أي يخوفكم بأوليائه، قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ يعني لا تخافوا أولياء الشيطان

إِلَيْهِ بِمِثْلِ خَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَمَحَبَّتِهِ فَمَتَى خَلَا الْقَلْبُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ فَسَدَ فَسَادًا لَا يُرْجَى صَلَاحُهُ أَبَدًا وَمَتَى ضَعُفَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ ضَعُفَ إيمَانُهُ بِحَسَبِهِ» «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١).

﴿وَخَافُونِ﴾ أي ليكن خوفكم من الله وحده ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي بالله سبحانه وتعالى وبما أمركم جَلَّ وَعَلَا بالإيمان به؛ فلا تخافوا إلا الله، لا تخافوا الشيطان ولا تخافوا أولياء الشيطان، لا تخافوا إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جعل الخوف شرطًا في صحة الإيمان قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فكما أنه إذا دعا غير الله أو سأل غير الله انتفى عنه الإيمان فكذلك إذا خاف غير الله خوف السر مثل أن يخاف أن يفعل به شيئًا بسره فإن الخوف أنواع منه خوف السر، فإذا خاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر بالله سبحانه وتعالى. وهذا له أمثلة أشرت إلى بعضها، مثل لو خاف من أحد غائب أو ميت أو نحو ذلك أن يُزيغ قلبه أو أن يُضله أو أن يقبض روحه أو نحو ذلك؛ هذا كله خوف سر وهو شرك بالله سبحانه وتعالى.

قال: «**ودليلُ الرَّجاءِ**» والرجاء عبادة قلبية من أجلِّ العبادات، والرجاء: هو الطمع والأمل؛ طمع القلب وأمله بالله سبحانه وتعالى وبما عنده وطمعه في رحمة الله ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وهو عبادة لا تصرف إلا لله جَلَّ وَعَلَا قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]، ومر معنا ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ فالرجاء عبادة.

قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات يقدمها المسلم في هذه الحياة يرجو بها لقاء الله على

خير حال.

فالرجاء عبادة وهي عبادة قلبية، عبادة مكانها القلب بل هو من أركان التعبد القلبية وهي: الرجاء والخوف والمحبة[1].

قال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾؛ «أَحَدًا» نكرة في سياق النهي فتفيد العموم، من كان يرجو لقاء الله ويطمع في ثوابه ويخاف من عقابه ويعلم أنه سيقف يومًا بين يديه يحاسبه ويجازيه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ أي ليتقرب إلى الله وليكثر من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

وهذه الآية كما نبّه العلماء جمعت بين شرطي قبول العمل، فإن الأعمال لا تقبل إلا بشرطين: إخلاص للمعبود ومتابعة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ الإخلاص في قوله: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾، والمتابعة في قوله: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾، لأنَّ العمل الصالح هو ما وافق السنة، والله

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب في سيره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بمنزلة الطائر: فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر » «مدارج السالكين» (١/ ٥١٧).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً لوجهه صواباً على وفق هدي نبيه صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا جاء عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في معنى قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك: ٢] قال: «أخلصه وأصوبه» قيل: يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه؟ قال: « فإنه إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل؛ حتى يكون خالصا والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة »[1].

قال: «ودليلُ التَّوكُّلِ»؛ والتوكل أيضاً عبادة قلبية، عبادة مكانها القلب وهو التفويض والاعتماد ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[غافر: ٤٤] اعتماد القلب، الاعتماد والتفويض لا يكون إلا على الله سبحانه وتعالى.

قال: «ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾» إن كنتم مؤمنين فابرؤوا من حول أنفسكم وقوَّتها ومن حول النَّاس وقوتهم واعتمدوا في أموركم وحاجاتكم ورغباتكم وشؤونكم كلها على الله وحده، فوضوا الأمور كلها إلى الله، اعتمدوا فيها بقلوبكم على الله سبحانه وتعالى؛ أموركم الدّينية والدنيوية.

ولهذا وجَّه نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من يخرج من بيته أن يقول: «بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله»، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ،

لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَيَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ»[١].

وهذه الكلمات الثّلاثة كلها كلمات استعانة وتوكل «بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ» قال: «يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ» أي هداك الله ووقاك الله وكفاك الله لأنَّك متوكل على الله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، من توكل على الله لو كادته السماوات والأرض ومن فيها فالله سبحانه وتعالى ناصره ومؤيده وحافظه وكافيه، «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[٢].

فالتوكل عبادة ولا تكون هذه العبادة إلا على الله سبحانه وتعالى.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والتّرمذي (٣٤٢٦)، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا - قَالَ - وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ - قَالَ - فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ: «إِنَّ رَجُلاً أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي فَلَمْ أَشْعُرْ إِلاَّ وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟

قَالَ قُلْتُ: اللهُ.

ثُمَّ قَالَ: فِي الثَّانِيَةِ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟

قَالَ قُلْتُ: اللهُ، قَالَ فَشَامَ السَّيْفَ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ»، ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ(١).

وهذا موسى عليه السلام لما تراءى الجمعان قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؛ يرون حقيقة مفزعة؛ البحر أمامهم وفرعون بجيشه وعتاده وجنوده وقوته وصلوهم؛ قالوا إنا لمدركون، ﴿فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢] فهذا توكل على الله واعتماد على الله سبحانه وتعالى.

والتوكل عبادة قلبية لا يجوز أن تصرف إلا إلى الله، وهي عبادة تصحب المسلم في كل أموره الدِّينية والدنيوية؛ إذا أردت أن تصلي تصوم تحج تتصدق تفعل أي طاعة فعليك أن تتوكل على الله سبحانه وتعالى فيها، تعتمد فيها عليه سبحانه وتعالى.

(١) رواه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

وإذا أردت أيضًا حاجاتك الدنيوية من بيع وشراء وطعام وشراب ولباس وغير ذلك أيضًا تتوكل على الله.

ولهذا ينبغي أن يُعلم أن التوكل عبادة قلبية تصحب المسلم في حياته كلها في أموره الدّينية وأموره الدنيوية، يجب على المسلم أن يكون شأنه في أموره وأعماله وشؤونه وأحواله كلها متوكلاً على الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه، ومن توكل على غير الله وكل إلى الخسران والحرمان في دنياه وأخراه وفي الحديث: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»(١).

ولا يعني التوكل ترك الأسباب(٢)، بل التوكل على الله حق التوكل يكون مع فعل الأسباب؛ ولهذا إمام المتوكلين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يفعل الأسباب ويباشرها، الأسباب في الأمور الدّينية والأمور الدنيوية كان يباشر ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويأمر بذلك؛ ولهذا جاء عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»(٣)، قال ﷺ: «تغدو»

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٧٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٤٥٦).

(٢) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد» «مدارج السالكين» (٢/ ١١٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصححه الألباني في «السلسلة =

الطير ما جلست في أوكارها تنتظر أن يأتيها الطعام! بل تمشي وتذهب المسافات تبحث عن الشراب وعن الطعام، ولهذا التوكل لابد فيه من فعل الأسباب، ولهذا قال نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث آخر: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ**»[١] يعني: افعل الأمور الّتي تنفعك واجتهد على فعلها ولا تتوكل إلا على الله، قال: «واستعن بالله» أي توكل على الله.

وروى الإمام الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «سننه» عن أَنَس بْن مَالِكٍ قال: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟

قَالَ «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[٢].

فهذا الصحابي سأل النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن ناقته قال: «أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟» يعني هل أعقل الناقة؟ أضع لها عقال في قدمها حتّى لا تذهب وأتوكل على الله؟ أو أتركها طليقة بدون عقال وأتوكل على الله؟

فأرشده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى فعل السبب قال: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» يعني ضع في رجلها العقال وتوكل على الله؛ أرشده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى فعل

الصحيحة» (٣١٠).

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (٢٢).

السبب.

فالمتوكل هو الّذي يضع بذره ويتوكل على الله، لابد أن يفعل السبب، أما أن يجلس معطلاً بدون سبب ويريد أن يحصّل فلا!!

فلابد من فعل الأسباب، ولا يُعتمد على الأسباب فقط وإنَّما يُعتمد على الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا لو أن شخصاً قال: "إن كتب الله لي أولاد يكون لي أولاد لكن أنا لن أتزوج إلى أن أموت"، أو شخص مثلاً يقول: "إن كتب الله لي أن أكون من كبار العلماء المحققين سأكون لكن لن أطلب العلم يوماً ولن أذهب إلى عالم ولن أقرأ كتاباً ولن أحفظ درساً ولن أتفقه" هذا لا يكون عالماً لأن النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ**»[1].

أرشد إلى فعل السبب، ولهذا قال من قال:

تمنيتَ أن تمسي فقيهاً مناظراً
بغير عناءٍ والجنونُ فنونُ
وليس اكتساب المال دون مشقةٍ
تلقَّيتها فالعلم كيف يكونُ

يعني العلم لا يكون إلا بفعل السبب، فإذاً التوكل عبادة قلبية عظيمة

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٦٣) وغيره، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٢٨).

جدًّا تصحب المسلم في أموره كلها وشؤونه جميعها الدّينية والدنيوية، وهي شرط في الإيمان؛ قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ أي كافيه، في الآية الأخرى قال: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ فمعنى ﴿حَسۡبُهُۥٓ﴾ أي كافيه، الحسب هو الكافي؛ فالّذي يتوكل على الله يكون الله سبحانه وتعالى كافيه ومؤيده وناصره وحافظه.

فهذا دليل التوكل، ذكر رحمه الله تعالى على التوكل دليلين ثمّ استمر رحمه الله تعالى في سوق الأدلّة على بقية العبادات الّتي ذكرها.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهبَةِ والخُشوعِ قولُه تعالى:** ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

ودليلُ الخَشيةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

ودليل الاستعانةِ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥]، **وفي الحديثِ:** «**إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ**».

ودليل الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾[الفلق: ١]، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾[النَّاس: ١].

ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾

[الأنفال: ٩].

ودليل الذَّبْحِ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، ومِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

ودليلُ النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧]».

الشرح:

المصنّف رحمه الله تعالى يذكر هنا أنواعـًا من العبادات الّتي أمر الله تبارك وتعالى عباده بها وخلقهم لتحقيقها وأرسل إليهم رسله لبيانها وإيضاحها، وهذه العبادات كلها صفات ذلٍ وخضوعٍ وطواعيةٍ وانكسارٍ لله تبارك وتعالى، ووظائف الشرع وطاعاته سميت عبادات لأنَّها هيئات يذل فيها العبد وينكسر ويخضع لربه جَلَّ وَعَلَا.

والعبادة أصلها وأصل مدلولها في اللغة: من الذل؛ يقال طريق معبَّد: أي مذلل. والعبادات سميت عبادات لما فيها من الذل لله والخضوع له جَلَّ وَعَلَا، وجميع ما يقوم به العبد من قُرب وطاعات وأعمال وأقوال يحبها الله جَلَّ وَعَلَا ويرضاها من عباده هذه كلها عبادات يذل فيها العبد لله جَلَّ وَعَلَا.

والعبادات منها ما هو في القلب؛ مثل الخشية والإنابة والتوكل والرجاء

والخوف، ومنها ما هو في اللسان؛ كذكر الله ودعائه وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها ما هو بالجوارح؛ كالصَّلاة والصيام والحج وغير ذلك من العبادات المقربة إلى الله سبحانه وتعالى.

والواجب على المسلم أن يعرف العبادة ما هي؛ لأمرين:

- **الأمر الأول**: لكي يصرفها لله وحده ذلاً وخضوعاً وطاعةً وامتثالاً، ولكي لا يصرف شيئًا منها لغيره؛ فصرفُها لله تبارك وتعالى وحده توحيدٌ، وصرفُها لغيره شرك. والتَّوحيد قَوام الأمر، والشِّرك ناقضٌ للدين وقادحٌ في الإيمان وناقلٌ من الملّة؛ ولهذا كان متأكداً على كل مسلم أن يعرف العبادة لكي يصرفها كلها لله، يصلي لله، يصوم لله، يذبح لله، ينذر لله، يرجو رحمة الله، يخاف عذاب الله، يتوكل على الله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، يجعل ذلك كله لله وحده سبحانه وتعالى.

- **والأمر الثاني**: لكي لا يجعل شيئًا منها لغيره، لأنَّه إن جعل شيئًا منها لغير الله تبارك وتعالى صار بذلك مشركًا، وإذا صار مشركًا انتقض دينه وحبط عمله وخرج من الملّة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي وحده ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦] فالعبادة حق لله وحده.

فإذاً مقام العبادة مقام عظيم، ويجب على كل مسلم أن يعرف العبادة ما

هي؛ لكي يصرفها بأنواعها وأفرادها لله جَلَّ وَعَلَا وحده، محققاً قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾، ولكي لا يصرف شيئًا منها لغيره فيكون بذلك – والعياذ بالله– من المشركين، فينتقض عليه دينه وينتقل من الملّة.

ولهذا كان من نصح المصنّف رحمه الله تعالى هنا أن ذكر بعض العبادات على سبيل التمثيل من العبادات القلبية والعبادات البدنية والعبادات المالية؛ نوّع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر العبادات حتّى يفقه المسلم أنواع العبادة لكي يصرفها كلها لله ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ ﴾[الجن: ١٨]، ولكي لا يصرف شيئًا منها لغير الله تبارك وتعالى.

ولهذا ينبغي أن يكون منا على بال - ونحن نقرأ هذه العبادات مع دلائلها– لآيتين اللتين قدَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام على هذه الأنواع بها؛ وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ ﴾ فهذه فيها الدَّليل على أن العبادات كلها لله، والآية الثانية قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وهي تدلّ على أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فإنه يكون بذلك مشركًا بالله عَزَّوَجَلَّ ويكون بذلك كافراً ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهبَةِ والخُشوعِ**»؛ الرغبة والرهبة والخشوع هذه ثلاث عبادات جاءت مجتمعةً في آية واحدة وصفًا لأنبياء

الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه، لأنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر عدداً من الأنبياء وذكر شيئًا من خبرهم وطرفًا من قصصهم ثمّ ختم ذلك كله بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي هؤلاء الأنبياء ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ فوصفهم بأنهم راغبون إلى الله ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧-٨] أي إليه وحده دون سواه، فوصفهم بالرغبة إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ووصفهم بالرهبة منه؛ فهم إليه راغبون ومنه جل وعز راهبون، وختم الآية بأنهم له جَلَّ وَعَلَا خاشعون؛ فذكر ثلاث عبادات امتدح بها الأنبياء وأثنى عليهم بها، وهذا مقام ثناء ومدح، وهذا أيضـاً دليل على أن الله يحب هذه الأعمال.

وعرفنا ضابط العبادة الجامع «هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»(١)؛ فالرغبة والرهبة والخشوع هذه كلها أعمال وطاعات يحبها الله، إذاً فهي عبادات لا يُتقرب بها إلا إلى الله ولا تصرف إلا له سبحانه وتعالى، فلا تكون الرغبة إلا إلى الله، ولا تكون الرهبة إلا من الله، ولا يكون الخشوع إلا لله.

فهذه عبادات لا تُصرف إلا لله هي حق له جَلَّ وَعَلَا دون سواه، صرفها له

(١) من كلام الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ انظر: «العبودية» (ص٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩).

توحيد، وصرفها لغيره شرك وتنديد.

وهي عبادات قلبية:

❖ أما الرغبة ففيها معنى الطلب؛ فيها معنى طلب القلب للأعمال والطاعات والقربات الّتي تدني العبد من الله سبحانه وتعالى وتقربه منه، ومر معنا قريبًا ذكر الرجاء عبادة من العبادات المقربة إلى الله، وتلا المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾[الكهف: ١١٠]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾[الإسراء: ٥٧]، الرجاء عبادة والرغبة عبادة ومعناهما متقارب لكن ثمّة فرق بينهما، قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «والفرق بين الرغبة والرجاء أن الرجاء طمع والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء؛ فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه»[(١)]؛ الرجاء طمع يعني طمع القلب وأمله فيما عند الله سبحانه وتعالى من ثواب ومن جزاء ومن إنعام وفضل وإحسان.

والرغبة طلب فهي - أي الرغبة - ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، يعني إذا وقع في قلبه رجاء للشيء سعى قلبه في طلب ذلك الشيء.

فهذا يبين لنا الفرق بين الرجاء والرغبة: أن الرجاء طمع والرغبة طلب، وتكون بذلك الرغبة ثمّرة للرجاء بمعنى إذا وقع في القلب رجاء أي طمع

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٥).

فيما عند الله ﷻ من الثواب والأجر وُجدت الرغبة إلى الله سبحانه وتعالى بالجد والاجتهاد فيما يقرب إليه سبحانه ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧-٨].

❖ والرهبة: هي الإمعان في الهرب من الشيء، إذا كان الإنسان راهب من شيء - يعني خائف منه - فإن هذا يعطي معنى خوف القلب، ولهذا قال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] أي أنهم في دعائهم لله سبحانه وتعالى بين الرغب والرهب؛ الرغب فيما عند الله من فضل وعطاء وخير وإنعام، والرهبة أيضًا من سخطه ومن أن يُردَّ على الإنسان عمله أو لا يُقبل دعاؤه فيكون راغبًا راهبًا.

وهذان الأمران - الرغبة والرهبة - يجب على كل مسلم أن يستصحبهما في كل طاعة، بحيث يكون في كل طاعة يأتي بها وعبادة يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها أن يكون في ذلك كله راغب وراهب؛ راغب فيما عند الله، وراهب أيضًا من سخط الله جَلَّ وَعَلَا، فتكون طاعاته بين الرغبة والرهبة وبين الرجاء والخوف؛ وهما للعامل بمثابة الجناحين للطائر، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة عظيمة تسطَّر، قال: «إذا أراد بعبده خيرا وفقه لاستفراغ وسعه وبذل جهده في الرغبة والرهبة اليه فانهما مادتا التوفيق فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق».[1]

(١) «شفاء العليل» (١/ ١٠٧).

بمعنى أن العبد مادام عنده رغبة ورهبة بتوازن وماضيًا حياته كذلك على هذه الحال راغب وراهب هذه مادتا التوفيق، يعني تمده بإذن الله تبارك وتعالى ليسير سيراً حثيثًا فيما يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ويدني من رحمته، فرغبته تحدوه وتسوقه لفعل الصالحات وأنواع الطاعات، وخوفه ورهبته تزجره عن ارتكاب المعاصي والخطيئات.

ولهذا قال بعض السلف عن الرجاء والخوف والرغبة والرهبة: «الرَّجَاءُ قَائِدٌ، وَالْخَوْفُ سَائِقٌ»(١)، الرجاء يقود الإنسان إلى الخيرات، والخوف يسوقه من الوراء للتقدم والمضي في الخيرات، ويمنعه أيضًا إذا أراد أن يلتفت إلى شيء من الحرام أو أراد أن يدخل في شيء من الآثام فيأتيه الخوف ويمنعه – خوفا من الله –؛ يمضي في الطاعات راجيًا ثواب الله مقبلاً على الله طامعًا في ثواب الله، إذا التفتت نفسه إلى باب من أبواب الحرام جاءه الخوف ومنعه، وجاءته الرهبة وحجزته فيمتنع خوفًا من الله.

ولهذا المؤمن كلما عظم خوفه من الله ازداد بُعده عن المعاصي والذُّنوب، وكلما أحضر في قلبه الخوف من الله عندما تقبل نفسه عن المعصية امتنع منها، لأنَّ الخوف يمنع الإنسان أي خوفه من الله من عقابه من سخطه من بطشه يمنعه.

ولهذا القرآن والسنة كلاهما قائمان على الترغيب والترهيب؛ الترغيب

---

(١) رواه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٠٤٨).

بذكر آيات الرجاء والثواب والإنعام والفضل والإكرام، والترهيب بذكر العقاب والسخط والانتقام والبطش والشدة، ولهذا ترى في القرآن الجنّة والنّار يذكران معًا، والثواب والعقاب يذكران معًا ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]؛ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ هذا يحرك الرجاء، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ هذا يحرك الخوف. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]

عندما يقرأ المسلم في آيات الرجاء يقوى في قلبه الرجاء وعندما يقرأ في آيات الخوف تحجزه عن المعاصي؛ واقرأ هذا في السورة الّتي تكررها فرضًا واجبًا كل يوم وليلة سبع عشرة مرة- [سورة الفاتحة] -، عندما تقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ وتتأمل في هذين الاسمين العظيمين وما دلا عليه من ثبوت الرحمة الواسعة والواصلة، فعندما تقرأ في هذين الاسمين متدبراً يتحرك في قلبك: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾، فإذا انتقلت إلى الآية الّتي بعدها ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ وذكرت أن يوم الدّين يوم الحساب والعقاب ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٧-١٩] فإذا قرأت: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ دخل إلى قلبك الخوف، الصّلاة تؤديها حبًا لله، وعندما تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ يتحرك في قلبك الحب، وعندما تقرأ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ يترك الرجاء، وعندما تقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يتحرك الخوف؛ وبهذه الثّلاثة تكون الصَّلاة وبها تكون كل الطاعات.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله: «الحب والرجاء والخوف أركان قلبية للتعبد» بمعنى أنها تكون مستصحَبة في كل العبادات حاضرة مع المسلم في كل الطاعات يؤديها راجيًا خائفًا، راغبًا راهبًا، وبهذين الأمرين كما يقرر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتحقق التوفيق فهما مادتا التوفيق كما سبق.

قال الله تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ هذه العبادة الثالثة في هذه الآية ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ والخشوع: هو السكون والطمأنينة، وهي عبادة عظيمة مقربة إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وهي في معناها قريبة من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن وأما الخشوع فإنه يكون في القلب فنقول: قلب خاشع، ويكون أيضًا في البصر ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾[المعارج: ٤٤] فكذلك البصر يخشع، ويكون أيضًا في اللسان؛ إذا الخشوع في القلب واللسان والبصر، والخضوع في البدن أي يخضع عندما يركع لله ويسجد هذا خضوع لله جَلَّ وَعَلَا، والخشوع معنى أوسع من ذلك يكون بالبدن ويكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بالجوارح.

وهي عبادة يحبها الله ويرضاها وامتدح أنبياءه بها، قال: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

ولهذا ينبغي على المسلم أن يكون خاشعاً لله في صلاته، أن يكون خاشعاً لله جَلَّوَعَلَا في دعائه وفي طلبه وفي سؤاله، فهي عبادة جليلة تصرف لله ولا يجوز صرفها لغيره سبحانه وتعالى.

﴿خَاشِعِينَ﴾: أي خاضعين متذللين لله جَلَّوَعَلَا منكسرين لجنابه.

فدلت هذه الآية على أن هذه الثّلاث: الرغبة والرهبة والخشوع أنها كلها عبادات مقربة إلى الله جَلَّوَعَلَا، فلا تكون إلا له ولا تصرف إلا له سبحانه وتعالى. فإذا وقف إنسان أمام ضريح من الأضرحة أو موقع من المواقع متجهاً إلى مخلوق من المخلوقات وقامت فيه هذه الأمور الثّلاثة متقرباً بها من هذا المخلوق، فجمع بين الرغبة والرهبة والخشوع عند ضريح أو عند مكان أحد الأموات من الأولياء أو غيرهم فقام أمامه راغباً راهباً خاشعاً تكون جوارحه فيها ذلك؛ قلبه فيه الرغبة وفيه الرهبة وفيه الخشوع ويتحرك لسانه أمام ذلك المخلوق في الطمع والطلب، وبعضهم يصرّح منادياً مخلوقاً من المخلوقات "يا فلان أنا راغب فيما عندك، يا فلان أنا خاشع بين يديك"، بعضهم بهذا اللفظ ينطق بلسانه ما قام في قلبه من ذل وخضوع وانكسار وعبودية لغير الله تبارك وتعالى!!

فإذا كانت الرغبة والرهبة والخشوع عبادات يحبها الله سبحانه وتعالى ويرضاها لعباده وامتدحهم بها في مواضع كثيرة من القرآن؛ فإن صرفها لغير الله شرك بالله أياً كان الّذي صرفت له هذه العبادة، سواء صُرفت

لملك أو صرفت لنبي أو صرفت لولي أو لأي أحد كان كائنًا من كان.

أنبياء الله وصفوة عباده مدحهم الله بأنهم راغبون إلى الله راهبون من الله خاشعون لله، وأنهم دعوا أقوامهم إلى ذلك وبينوا لهم ذلك، فمن صرف هذه الأعمال لغير الله تبارك وتعالى فإنه يكون بذلك مشركًا، والعياذ بالله.

وبعض النَّاس ممن بلي بهذه المفاسد والعظائم ربما عندما يأتي إلى ضريح من الأضرحة يقوم في قلبه من الرغبة والرهبة والخشوع ما لا يقوم في قلبه إذا قام يصلي بين يدي الله تبارك وتعالى!! وهذه مصيبة عظمى وبلية كبرى وكارثة من أشد الكوارث وعظيمة من أشد العظائم؛ ولهذا كان المقام مقامًا ينبغي أن يتفطن له المسلم وأن يعرف العبادات لأجل أن يصرفها كلها لله تبارك وتعالى، ولأجل ألا يجعل لغير الله سبحانه وتعالى كائنًا من كان مشاركة لله في شيء منها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ودليلُ الخَشيةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾».

«ودليلُ الخَشيةِ» الخشية أيضًا عبادة قلبية، الخشية فعلة من خشِيه أي خافه، وهو بمعنى الخوف إلا أنه أخص من الخوف؛ لأنَّ الخشية عن معرفة والباعث إليها المعرفة بمن يخشاه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ولهذا العبد كلما ازداد معرفة بالله وبأسمائه

الحسنى وصفاته العلا ازداد خشية من الله، وكلما عظمت فيه الخشية من الله سبحانه وتعالى انكف عن الحرام وابتعد عن الآثام، ولهذا ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن أحدهم قال: «من كان بالله أعرف كان له أخوف»(١)؛ فمعرفة الله والعلم بأسمائه وصفاته سبحانه تورث حبه وتورث أيضًا خشيته جَلَّ وَعَلَا.

وإذا قامت في قلب العبد الخشية من الله جَلَّ وَعَلَا كانت سائقًا له إلى كل خير وفضيلة وحاجزاً له عن الوقوع في كل سوء ورذيلة.

قال: «**ودليلُ الخَشيةِ**»؛ أي والدَّليل على أن الخشية عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تبارك وتعالى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾»؛ قول الله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي النَّاس ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ أي اخشوني وحدي، لتكن خشيتكم مني وحدي ولا تخشوا النَّاس، لتكن خشيتكم من الله تبارك وتعالى وحده.

قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ أي لا تخافوا النَّاس ولا تخشوهم ولتكن خشيتكم من الله؛ لأنَّ الأمور كلها بيده ونواصي العباد بيده وحكمه جَلَّ وَعَلَا ماضٍ فيهم؛ فلتكن خشيتكم من الله لأنَّ العبد مهما أوتي من القوة والقدرة لا يستطيع أن يصل إليك بأي أذى إلا شيء كتبه الله عليك قال ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٣٨).

بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(١)، إذاً اجمع قلبك في الخشية ولتكن من الله سبحانه وتعالى وحده؛ فهذه عبودية قلبية لا يجوز أن تصرف إلا لله لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ هذا نهي ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ هذا أمر؛ نهى جَلَّ وَعَلَا عن خشية سواه وأمر جل وعز بخشيته جَلَّ وَعَلَا وحده، فدل ذلك على أن الخشية عبادة من العبادات العظيمة وأن صرفها لغير الله تبارك وتعالى شرك بالله(٢).

قال: «ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾»؛ الإنابة هي: الرجوع والأوبة إلى الله تبارك وتعالى، ومعناها أوسع من معنى التوبة، لأنَّ الإنابة إلى الله جَلَّ وَعَلَا هي توبة وزيادة، لأنَّ التوبة: الرجوع من الذنب وتركه وعدم العودة إليه.

والإنابة: رجوع عن الذنب وإقبال على الله جَلَّ وَعَلَا وعلى طاعته وعلى ما يقرب إليه؛ فالمنيب: الراجع إلى الله الآيب إلى الله المقبل على الله تاركـًا للذنوب مقبلاً على الطاعات والعبادات وأنواع القربات.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٢) وللإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام جميل يقول فيه: «فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية» «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣).

قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ أي لتكن الإنابة منكم إلى الله وحده؛ لأنَّ الإنابة عبادة لا تكون إلا لله ولهذا أمر بها قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي أقبلوا على الله، ارجعوا إلى الله، أوبوا إلى الله سبحانه وتعالى بالإقبال على الطاعات وترك الذُّنوب والتخلي عنها ومجاهدة النفس على فعل أنواع القرب، فالإنابة عبادة لا تكون إلا لله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ أي: أقبلوا عليه طاعةً وذلاً وخضوعـًا وانكساراً واجتنابـًا لما نهى عنه جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**ودليل الاستعانةِ**»؛ الاستعانة: طلب العون، والسين للطلب، عندما نقول الاستعانة الاستغاثة الاستغفار هذه كلها فيها معنى الطلب، والسين الّتي في أولها للطلب؛ فالاستعانة: طلب العون، والاستغاثة: طلب الغوث، والاستعاذة: طلب العوذ، والاستسقاء: طلب الإغاثة وهكذا.

فالاستعانة عبادة والمراد بها: طلب العون، وإذا أردت العون للقيام بأي مصلحة دينية أو دنيوية وأردت التسديد فيها فاطلب ذلك من الله، لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو المعين وحده وهو المستعان سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾[يوسف: ١٨]، فهو وحده المستعان هو الّذي يُطلب منه وحده العون، عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمـًا وَقَالَ: «يَا مُعَاذٍ، وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذٍ، لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أَنْ

تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[١]، ومن الدُّعاء المأثور عن نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِي ﷺ يَدْعُو: «رَبِّ أَعِنِّي وَلاَ تُعِنْ عَلَي وَانْصُرْنِي وَلاَ تَنْصُرْ عَلَي وَامْكُرْ لِي وَلاَ تَمْكُرْ عَلَيَ وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ هُدَاي إِلَيَّ وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَ عَلَي..»[٢] إلى آخر الدُّعاء، وهو دعاء عظيم بدأه بقوله: «رَبِّ أَعِنِّي وَلاَ تُعِنْ عَلَي » فالعون بيد الله والله هو المستعان، فالّذي يريد العون في حاجاته الدنيوية أرزاقه معاشه متاعه، ويطلب العون في عباداته وطاعاته وقرباته لا يطلب ذلك إلا من ربه سبحانه وتعالى الّذي بيده أزمة الأمور، فطلب العون الاستعانة عبادة لا تصرف إلا لله جَلَّ وَعَلَا.

قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبدك يا الله ولا نعبد غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أي نطلب منك العون يا الله ولا نطلبه من غيرك.

فالأسلوب هنا أسلوب حصر؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هذا من أساليب الحصر في اللغة العربيّة، لأنَّ تقديم المعمول على العامل يفيد

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

(٢) رواه أبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٥٣).

الحصر، أصل الجملّة: نعبدك، نستعين بك؛ فقدَّم المعمول على العامل قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فحصر العبادة بأنها لله وحده، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ حصر طلب العون بالله وحده، فأفادت هذه الجملة وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ أفادت في قوتها ودلالتها إفادة قولك «نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين بغيرك»، وهذا معنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

وهذا أيها الأخ الموفق عهد بينك وبين الله تكرره كل يوم فرضًا واجبًا عليك سبع عشرة مرة في الصلوات المكتوبة، وهو عهد بينك وبين الله، تعاهد الله، فماذا تقول في عهدك مع الله؟ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ تعاهد الله أنك تعبده ولا تعبد غيره وتستعين به ولا تستعين بغيره.

والواجب على كل مسلم أن يفي بهذا العهد وأن يفي بالعهود عمومًا وأن يفي بهذا العهد الّذي هو أعظم العهود ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾ [الإسراء: ٣٤]، هذا عهد بينك وبين الله وهو أعظم عهد يجب أن تفي به وأن تؤديه على التمام لأنَّك تعاهد الله رب العالمين أن تعبده ولا تعبد غيره وأن تستعين به ولا تستعين بغيره.

فيا من يقول كل يوم سبع عشرة مرة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ لا تعبد إلا الله، لا تدعُ إلا الله، لا تستغيث إلا بالله، لا ترجُ إلا الله، لا تطمع إلا فيما عند الله، لا تطلب العون والمدد والتوفيق والسداد إلا من الله

سبحانه وتعالى.

ومن توجه لغير الله قائلاً: "مدد يا فلان أو أغثني يا فلان أو أدركني يا فلان أو عونك يا فلان" فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى فهذا نقض عهده ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١](١)، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢].

فالواجب على من عاهد الله سبحانه وتعالى هذا العهد العظيم وتكرر منه عهده هذا مرات وكرات أن يفي به، فلا يصرف شيئاً من العبادة إلا لله تبارك وتعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إعلان إخلاص العبادة لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه إخلاص طلب العون من الله، العبادة غاية، والاستعانة وسيلة، فالغاية الّتي هي العبادة لله وحده، والوسيلة لأداء هذه الغاية لا تُطلب إلا من الله جَلَّ وَعَلَا وحده.

وقد قدَّم جل وعز العبادة على الاستعانة لكون العبادة هي الغاية الّتي خلق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها، والاستعانة وسيلة لأداء هذه

---

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برا، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة» «تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٤٧).

الغاية؛ أنت خلقت لأجل عبادة الله، هذه الغاية الّتي خلقت لأجلها، لكن هذه العبادة هل تستطيع أن تؤدي شيئًا منها إذ لم يُعنك الله؟ إذا لم يكن لك عون من الله لا تستطيع أن تصلي ولا تستطيع أن تحج ولا تستطيع أن تصوم ولا تستطيع أن تؤدي أي شيء ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١] فالأمر بيده جَلَّ وَعَلَا والتوفيق بيده العون بيده، فالعبادة غاية والاستعانة وسيلة.

قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذا تحقيق لـ «لا إله إلا الله» وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»، وقولك: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا تحقيق لـ «لا حول ولا قوة إلا بالله»، لأنَّ «لا إله إلا الله» كلمة توحيد، و«لا حول ولا قوة إلا بالله» كلمة استعانة، «لا إله إلا الله» معناها نعبدك ولا نعبد غيرك، و«لا حول ولا قوة إلا بالله» معناها نستعين بك ولا نستعين بغيرك، «لا حول ولا قوة إلا بالله» هذه كلمة تبرأ فيها أنت من حول نفسك وقوتها تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله: أي أن ما عندي من حيلة وما عندي من قوة لا أستطيع أن أصنع بها شيئًا إلا بالله؛ أي إلا إذا أعانني الله ووفقني، فمعنى قولك «لا حول ولا قوة إلا بالله»: أي لا تحول من حال إلى حال من ضلال إلى هدى، من فقر إلى غنى ومن مرض إلى صحة، من ضعف إلى قوة إلى غير ذلك لا يمكن أن يكون تحول من شيء إلى شيء إلا بالله، لا يمكن أن يكون فيه قوة أباشر بها أعمالي وأحقق بها مصالحي وغاياتي إلا إذا أمدني

الله جَلَّ وَعَلَا بقوة منه وعون منه سبحانه وتعالى. فـ«لا إله إلا الله» تحقيقها ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، و«لا حول ولا قوة إلا بالله» تحقيقها ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وقد قال العلماء رحمهم الله: الأذكار الشرعية لا يستفيد منها العبد إلا إذا عرف معناها وحقق مقتضاها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِي ﷺ قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»[1].

وقال ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟».

قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي.

قَالَ: «لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ»[2].

فهذه كلمة عظيمة جدًّا ويحتاج المسلم أن يكررها دائمًا وأن تكون بين يدي مصالحه مثل ما أرشد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من خرج من بيته أن يقول: «بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ:

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٨١٠٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٢٨).

(٢) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَيَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ»[1]، ومعنى ذلك أن الإنسان كل مرة يخرج من بيته في أكثر من شيطان ينتظرونه لإغوائه وصده، فإذا قال: «باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله» رجعت الشياطين خاسئة ولا تجد عليه سبيلاً، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥]، قال بعض المفسرين في معنى الآية: إن عبادي الذاكرين لله جَلَّ وَعَلَا ليس للشيطان عليهم سبيل[2]، إنَّما سبيله على الغافلين عن ذكر الله ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦].

الشاهد أن قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ كلمتان عظيمتان لا غنى للعبد عنهما أبداً، وهذا من الحكمة الَّتي لأجلها تتكرر هذه الكلمات في حياتنا وتمضي في ليالينا وأيامنا؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ نكررها مستحضرين معناها، متدبرين في مدلولها، مجتهدين في تحقيق ذلك؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبدك يا الله ولا نعبد غيرك،

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والترّمذي (٣٤٢٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٩).

(٢) «الوابل الصيب» (ص١٨).

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي نطلب منك العون يا الله وحدك ولا نطلبه من غيرك.

قال: «**وفي الحديثِ: «إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ»**؛ «في الحديثِ» هذا قاله النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في جمل عديدة قالها لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من ضمنها قال: «إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ»، وإذا أردت لنفسك ما يعينك على تحقيق هذا المطلب وتتميم هذا المقصد فأحضر ما بينه النَّبيّ ﷺ بعد هذه الجملة قال: «وإذا استعنت فاستعن بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1]، فالأمر كله بيد الله جَلَّ وَعَلَا؛ فلا. يطلب العون إلا منه، لا تُطلب الهداية إلا منه، لا يُطلب التوفيق إلا منه، لا يُطلب الغنى إلا منه، لا يُطلب السداد إلا منه، لا تُطلب الذرية إلا منه، لا تُطلب أي مصلحة دينية ودنيوية إلا منه لأنَّ الأمر كله بيده جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ**»؛ «إذَا اسْتَعَنْتَ» أي إذا طلبت عونـًا على أي مصلحة دينية أو دنيوية «فَاسْتَعِنْ باللهِ» أي: اطلب العون في تحقيق مصالحك ونيل حاجاتك ومطالبك من الله جَلَّ وَعَلَا، «إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ» أي ليكن طلبك للعون من الله سبحانه وتعالى وحده.

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمَّلتُ أنفعَ الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾»(١).

يعني أخذت أتأمل في الأدعية أريد أن أصل إلى ما هو أنفع دعاء للمسلم فانتبه لكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه أثمن ما يكون، قال: «إذا هو سؤال الله العون على مرضاته»، الله سبحانه وتعالى رضي لك أن تكون عبداً له ذليلاً تؤدي العبودية الّتي خلقك لأجلها وأوجدك لتحقيقها ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزمر: ٧]؛ فطلب العون منه على هذا المقصد الّذي خُلقت لأجله هذا أفضل الدُّعاء، مهما بحثت فأفضل وأنفع شيء تطلبه من الله سبحانه وتعالى هو طلب العون على مرضاته؛ أن يعينك على ما خلقك لأجله وأوجدك سبحانه وتعالى لتحقيقه.

ثمّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ودليل الاستعاذةِ**»؛ الاستعاذة: طلب العوذ، أي أن يعيذك من شيء تخافه.

الاستعاذة: هي الاعتصام والالتجاء إلى من تطلب منه أن يعيذك من هذا الّذي تخافه، وهي هربٌ من شيء تخافه إلى من يخلِّصك وينجيك

(١) نقله عنه تلميذه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مدارج السالكين» (١/ ٧٨).

ويحميك، والملجأ دائماً وأبداً إلى الله، فالمسلم دائماً يفزع ويلجأ ويعتصم بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

فالاستعاذة الّتي هي طلب العوذ عبادة؛ وتكون من كل شيء تخافه ليكن طلبك العوذ من الله وحده لأنَّه جَلَّ وَعَلَا القدير على كل شيء، ونواصي الدواب والمخلوقات كلها بيده.

وقد كان نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في دعائه كما صح عنه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخَذْنَا مَضْجِعَنَا أَنْ نَقُولَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا..»(١).

وفي القرآن: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، ولهذا المسلم دائماً في خوفه من كل من يخافه وكل من يخشاه يلجأ إلى الله تعالى.

نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثبت في الحديث أنه كان إذا خاف من قوم قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ»(٢).

فالمسلم إذا خاف من عدو خاف من شيطان ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) رواه أبو داود (١٥٣٧)، صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٧٥).

ﭐلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [سورة النَّاس]، الشيطان وسواس خناس؛ إذا غفل الإنسان عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكر المسلم ربه خنس؛ أي ذهب وانطرد وابتعد عن الإنسان.

ولهذا يكون المسلم دائمًا مستعيذاً بالله لا يستعيذ إلا بالله ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ [المؤمنون: ٩٧].

فالتعوذ عبادة لا تكون إلا بالله؛ تتعوذ بالله من الشيطان، تتعوذ بالله من شر نفسك، تتعوذ بالله من شر سمعك، من شر بصرك، تتعوذ بالله تبارك وتعالى من شر الشياطين، تتعوذ بالله جَلَّ وَعَلَا من كل دابة هو جَلَّ وَعَلَا آخذ بناصيتها، الاستعاذة باب عظيم من أبواب العبادة وهي عبادة لا تصرف إلا لله، وفي كتاب النسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «السنن» كتاب عظيم جدًّا سماه «الاستعاذة» وجمع فيه الأحاديث الواردة في الاستعاذة جمعًا نافعًا ومفيداً وفيه التعوذات:

عن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»[(١)].

«..اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ

(١) رواه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦).

نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»(١).

فكل شيء تخافه تعوذ بالله منه، واستعذ بالله، واطلب من الله أن يعيذك منه، وأي شيء تخاف أن يضرك أو أن يأتيك بما يسوؤك اطلب العوذ من الله؛ فإذا استعذت بالله أعانك فهو جَلَّ وَعَلَا المستعاذ وإليه الملجأ، لا ملجأ إلا إلى الله ولا مفر إلا إلى الله ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالاستعاذة عبادة عظيمة لا يجوز أن تصرف إلا لله.

وأورد المصنّف رحمة الله عليه آيتين من خواتيم كتاب الله جَلَّ وَعَلَا؛ أول [سورة الفلق] وأول [سورة النَّاس]: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾، وقد جاء عن النَّبيّ ﷺ أنه «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا وَلاَ اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا»(٢).

فهما أعظم ما يتعوذ به الإنسان من الشرور كلها، ولهذا المسلم يحافظ على هذه التعوذات: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ إلى تمام السورة، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ يحافظ عليها إلى تمام السورة دبر كل صلاة مكتوبة: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ الْمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) رواه النسائي (٥٤٣٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٤٨).

(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (١٥٢٣)، والنَّسَائِي (١٣٣٦)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح أَبِي دَاوُد» =

«وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُعَوِّذَات هَاتَانِ السُّورَتَان [الفَلَق وَالنَّاس]، مَعَ [سُورَةِ الإِخْلَاص]، وَأُطْلِقَ ذَلِكَ تَغْلِيبًا، وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَد»(١).

وفي صباحه وفي مسائه ثلاث مرات؛ ثلاثـًا إذا أصبح وثلاثـًا إذا أمسى ولا يضره شيء، وفي الحديث: « ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»(٢).

«(تَكْفِيكَ) أَيْ هَذِهِ السُّوَرُ الثَّلَاثُ (مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أَيْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ أَوْ كُلِّ وِرْدٍ يَتَعَوَّذُ بِهِ»(٣).

فيكون العبد محصنا محفوظا محميا بحماية الله تبارك وتعالى، ويكون في حصن حصين وفي حرز مكين لا يقربه شيطان رجيم، يعيذه الله سبحانه وتعالى من الشياطين ومن السحرة ومن الشرور الّتي يخافها لأنَّه لجأ إلى الله واعتصم بالله واحتمى بالله جَلَّ وَعَلَا وطلب من الله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

قال: «ودليل الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق:

---

١٣٤).

(١) « فَتْحُ البَارِي » (٨/ ١٣١).

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاود (٥٠٨٢)، والترمذي (٣٥٧٥)، وصحَّحَه الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح التَّرْغِيب» (٦٤٩).

(٣) «عَوْنُ المَعْبُود» (١٣/ ٢٩٠).

١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾ [النَّاس: ١]» عرفنا معنى الاستعاذة وهي مما يكرهه الإنسان، يعني الطلب إذا كان في جانبٍ يكرهه الإنسان يسمى «استعاذة»، وإذا كان الطلب في جانب يريده الإنسان يسمى «لياذة»؛ ولهذا يفرقون بين العوذ واللوذ: أن العوذ مما تكره، واللوذ فيما تحب وترغب فيه.

يعني إن كان الطلب في شيء تخشى منه وتحاذره هذا استعاذة، وإن كان في شيء تؤمله وترجوه فهذا لوذ.

قال رحمه الله تعالى: «**ودليل الاستغاثةِ**»؛ الاستغاثة: طلب الغوث.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»[1]، يطلب الغوث من الله؛ فالاستغاثة الّتي هي طلب الغوث من الله، إما طلب الغوث بنزول المطر، أو طلب الغوث بمجيء المدد والعون من الله لينتصر العبد على العدو، فالاستغاثة لا تكون إلا من الله سبحانه وتعالى.

في معركة بدر لما تلاقى الجيشان؛ جيش المسلمين وهم في قلة من

---

(١) رواه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧).

العدد والعتاد والسلاح، وجيش المشركين وهم في كثرة، فلما تلاقى الجيشان وتلاحم الصفان توجه النَّبيّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مستغيثًا بالله؛ يطلب الغوث من الله، يطلب النصر من الله، لأنَّ الغوث بيد الله والنصر بيد الله، فاستغاث بالله؛ أي طلب من الله سبحانه وتعالى أن يغيثه بأن ينصره على هؤلاء الأعداء، فأغاثه وأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك وحياً يُتلى عبرةً للعباد وعظة وتبصرة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]؛ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي تطلبون منه الغوث فيما حصل لكم من شدة عند ملاقاة الأعداء يوم بدر ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فاستجاب لكم بأن أدرككم رب العالمين بغوثه ومدده وعونه ونصره فأجاب الدُّعاء وأنزل تبارك وتعالى جنوداً من جنوده، وكان النصر لأهل الإيمان. فهذا دليل على أن الاستغاثة لا تكون إلا بالله.

فنبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبدٌ يستغيث بالله ولا يُستغاث به، عبد يستغيث بالله يطلب غوثه من الله ولا يُستغاث به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الغوث لا يُطلب إلا من الله.

بعض الضُّلال ينادي في دعائه النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويقول: «يا غياث المستغيثين، يا مجير المستجيرين، يا ملجأ المضطرين» يخاطب النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا!!

ولكن النَّبيّ ﷺ عبد يستغيث بربه وهذه عبوديته لله في باب الاستغاثة

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ يطلب من الله الغوث؛ الغوث بالنصر على الأعداء، الغوث بنزول المطر لا يطلبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا من الله، والعبد لا يُعبد، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عبدٌ يستغيث بالله، يطلب غوثه من الله ولا يُطلب منه الغوث: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]. فهذا باب تزل به أقدام وتضيع فيه أفهام ويقع فيه أقوام في الردى والهلكة – والعياذ بالله – لعدم البصيرة بالتَّوحيد وعدم البصيرة بضده.

قال: «**ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾**»؛ دلت الآية دلالة واضحة أن الاستغاثة عبادةٌ لا تُطلب إلا من الله، ومن طلبها من غير الله تباك وتعالى فقد أشرك.

وقد يأتي بعض النَّاس ويلتبس عليه هذا التَّوحيد الّذي تدلّ عليه الآية فيفهم أن الطلب عندما يقال أن طلب الغوث من المخلوقين شرك فيأتي ويريد أن يناقض هذا التَّوحيد الخالص فيأتي بآيات أو نصوص تتعلق من استغاثةٍ من مخلوق بمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق.

وينبغي أن يفرق بين هذا الجائز المباح؛ عندما يكون الإنسان مثلاً يريد أن يغرق وإلى جنبه شخص ويقول: أغثني ساعدني عاوني؛ فهذا جائز، لأنَّك تطلب من مخلوق قادر حاضر تقول: أغثني، ولهذا جاء في القرآن: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾

[القصص: ١٥]، فيستغيث مخلوق بمخلوق حي حاضر قادر، انتبه لهذا الكلمات الثّلاث مهمة:

- «**حي**»: ليس بميت، إن طلب من ميت فهذا لجوء إلى غير الله وتعلقٌ بغير الله تبارك وتعالى فيكون قد وقع في الشِّرك.
- **إن طلب من غائب** فهذا أيضـًا فزع ولجوء إلى غير الله تبارك وتعالى.
- **إن طلب من حي حاضر فيما لا يقدر عليه**، مثل – والعياذ بالله – لوقال شخص لآخر: أرجوك أن تنقذني من النّار أن تجيرني منها أو شيء من هذه الأمور الّتي لا يقدر عليها، أن تثبت قلبي أو نحو ذلك فيما لا يقدر عليه إلا الله حتّى لو كان حاضر حي أمامه فيكون بذلك مشركـًا بالله الشِّرك الناقل من الملّة.

فيُنتبه لهذه المعاني لأنَّ بعض النَّاس يلبِّس ويأتي إلى العوام يقول: ماذا فيه لو استغثنا بغير الله؟ أليس الله يقول في القرآن: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾؟ فيخلطون بين الجائز وبين الشِّرك، يخلطون بين الجائز وهو الاستغاثة بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه ويريدون أن ينزِّلوا ذلك في دعاء الميت أو دعاء الغائب أو دعاء الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن دعا ميتـًا أو دعا غائبـًا أو دعا حاضراً فيما لا يقدر عليه إلا الله

جَلَّ وَعَلَا فقد اتخذه نداً وشريكـاً مع الله سبحانه وتعالى.

ومشكلة دعاة الضلال من القديم هي هذه؛ يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق فيضل العوام على أيديهم، ولهذا قال نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»(١).

قال رحمه الله تعالى: «**ودليل الذَّبْحِ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾**»؛ الذبح هو: القربان الّذي يُذبح من بهيمة الأنعام تقربـاً لله من الضحايا والهدايا وما يقدمه الإنسان منها شكراً لله، مثلها كذلك العقيقة ونحو ذلك فهذه عبادة.

والعبودية في الذبح من جهتين:

١. من جهة التقرب بالذبيحة؛ فالتقرب بالذبيحة والنسك لا يكون إلا لله؛ كما أنك لا تصلي إلا لله فأيضـاً لا تذبح متقربـاً إلا لله سبحانه وتعالى، فهو قربة لا يُتقرب بها إلا إلى الله سبحانه وتعالى.

٢. ومن جهة أيضـاً الاستعانة؛ فلا يستعين في ذبحها لها إلا بالله، ولهذا شُرع للمسلم عندما يذبح يقول باسم الله، وهذا طلب عون.

ولهذا الشِّرك في الذبح يكون من الجهتين: إما بذبحها لغير الله متقربـاً بها إلى غير الله، أو يطلب العون من غيره فيذبحها باسم غير الله، يسمي غير

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

الله عند ذبحها ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فالذبح هذه عبادة؛ ولهذا لاحظ قال الله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر: ٢] أي لربك؛ فكما أن الصَّلاة عبادة يُتقرب بها إلى الله فالذبح أيضـًا عبادة لا يُتقرب بها إلا إلى الله، وفي القرآن قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾؛ ﴿ صَلَاتِي ﴾؛ الصَّلاة معروفة أي صلواتي، ﴿ وَنُسُكِي ﴾ المراد بالنسك: الذبح؛ فصلاتي ونسكي أي ذبحي لله، كما أني لا أصلي إلا لله أيضـًا لا أذبح إلا لله.

إذا كان الذبح لله توحيد وعبادة يتقرب بها إلى الله، يحبها الله سبحانه وتعالى ويرضاها من عباده فصرفها إلى غيره شرك بالله، لأنَّ صرف العبادة لغير الله شرك، الآية دليل صريح على أن النسك عبادة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ لمن؟ ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾؛ فمن جعل نسيكته لله هذه عبادة تقربه من الله، ومن جعلها لغيره فهذا شرك يُخرجه من دائرة الإسلام؛ ولهذا أورد المصنّف رحمه الله تعالى حديثـًا ثابتـًا عن نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في «صحيح مسلم» وغيره عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيّ ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»(١)؛ اللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، والملعون: المطرود المبعَد من رحمة الله، والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول:

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨).

«لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ» وهذا دعاء على من ذبح لغير الله أن يطرده الله وأن يبعده من رحمته، «مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ» لأنَّ الذبح عبادة وصرفها لغير الله موجب للعنة والطرد من رحمة الله والوقوع في سخطه وعقابه جَلَّ وَعَلَا.

جاء في حديث يرفع إلى نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مبيناً هذا الأمر قال: «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب.

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال: مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب.

قال: ليس عندي شيء أقربه.

قالوا له: قرب ولو ذبابا.

فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار.

وقالوا للآخر: قرب.

فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عَزَّ وَجَلَّ فضربوا عنقه، فدخل الجنة»[(١)]. فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تعجبوا وقالوا: «وكيف ذلك يا رسول الله؟» لأن الذباب معروف بأنه طائر حقير من أخس الحيوان ومن أحقر الحشرات، ويقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «دخل الرجل الجنّة في ذباب، ودخل

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٨٩٢) للألباني.

رجل النّار في ذباب».

فقال: «مر رجلان - أي ممن كانوا قبلنا - على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا» ما يسمحون لأحد يمر من جهتهم حتّى يقرب للصنم شيء، إن قرّب للصنم شيء جعلوه يمر، وإن لم يقرب للصنم ذبحوه، وقدِّم قربانـًا لهذا الصنم.

«قالوا لأحدهما: قرب، قال: قال: ليس عندي شيء أقربه» يعني كأنه يقول: مستعد لكن مثل ما ترون ما عندي شيء أقربه، قالوا: «قرب ولو ذبابا» المهم ما تمر إلا وتقرب شيئـًا، تذبح شيء تقربـًا لهذا الصنم، فأخذ يبحث عن ذباب يطير وصاده وجاء وقطع رأسه قربانـًا لهذا الصنم؛ فمات فدخل النّار.

ذبح ذبابـًا لصنم متقربـًا به للصنم فدخل به النّار، ذباب! فكيف بمن يذهب إلى السوق ويشتري أفضل الشاة أو يشتري أفضل البقر أو يشتري أسمن الإبل ويسوقها إلى حيث من يريد أن يتقرب إليهم من الأحجار أو من المقبورين أو غيرهم ثمّ يذبح نسيكته وقربانه متقربـًا به إلى غير الله؟! ذبح ذبابـًا فدخل النّار فكيف بمن يذبح شاة سمينة أو بقرة أو ناقة متقربـًا بها إلى غير الله سبحانه وتعالى؟!

«وقالوا للآخر: قرب» قدِّم قربانـًا لهذا الصنم، قال: «فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله ﷻ فضربوا عنقه، فدخل الجنة» قُتل صابراً

على التَّوحيد محتسبًا أجره وثوابه عند الله سبحانه وتعالى فدخل الجنّة، امتنع أن يقرب ذبابًا فقتلوه قال فدخل الجنّة.

فالذبح عبادة لا تُصرف إلا لله ولا يُستعان بذبحها إلا بالله، فتذبح لله متقربًا بذبيحتك له وحده وتسمي الله جَلَّوَعَلَا تذكر اسمه عليها قائلاً: «بسم الله».

ذكر لي أحد الأشخاص من إحدى الدول قال: إن عمتي - أوقال خالّتي - كانت مريضة وأتعبها المرض فوصفوا لها رجلا قالوا: اذهبي له وعنده علاج، ذهبت إليه.

فقال لها: اشتري ديكًا لونه كذا -حدد لها لون الديك- واذبحيه، وعند ذبحه لا تنطقين ولا بكلمة مطلقًا، لا يريد أن يقول لها: لا تقولي بسم الله أي: لا تسمي الله لا تذكري الله، بل قال فقط: اذبحيه ولا تنطقي بأي كلمة مطلقًا، لأنك إذا نطقت بكلمة يلتغي العلاج وما تستفيدين، ثمّ إذا ذبحتيه اطبخيه وكلي منه قدر حاجتك فقط، ثمّ خذيه واذهبي به إلى الوادي الفلاني وضعيه في ذلك الوادي، لمن؟ للشياطين، لكنه ما قال: كليه وسمي الله عليه وتصدقي به على الفقراء لعل الله بصدقتك يشفيك ويعافيك، لا، بل أمرها أن تقدمه قربانًا للشياطين؛ لكن كل ذلك بطريقة ملتوية، وما قال لها تقربّي به للشياطين، لكنه ساقها لهذا الفعل بدون أن تنتبه لذلك.

وهكذا يُعبث بالعوام والجهال من دعاة الضلال وأكلة أموال النَّاس بالباطل، يعبثون بهم ويوقعونهم في الشِّرك والانحراف عن دين الله تبارك وتعالى ويغيبونهم عن القرآن والسنة؛ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ» هذه كلها يغيبونهم عن هذه المعاني ويوقعونهم في التعلق بغير الله والتقرب للشياطين والبعد عن ذكر اسم الله تبارك وتعالى، فينصرف العوام والجهال إلى الشِّرك وينصرفون عن التَّوحيد الّذي خلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه.

إذاً الذبح عبادة وقربة لا يُتقرب بها إلا الله سبحانه وتعالى[1].

---

(١) **فائدة:**

قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «الذبح إزهاق الروح بإراقة الدم على وجه مخصوص ويقع على وجوه:

الأول: أن يقع عبادة بأن يقصد به تعظيم المذبوح له والتذلل له والتقرب إليه فهذا لا يكون إلا لله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى، وصرفه لغير الله شرك أكبر ودليله ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾.

الثاني: أن يقع إكرامًا لضيف أو وليمة لعرس أو نحو ذلك فهذا مأمور به إما وجوبًا أو إستحبابًا لقوله ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"، وقوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أو لم ولو بشاة".

الثالث: أن يقع على وجه التمتع بالأكل أو الاتجار به ونحو ذلك فهذا من قسم المباح =

ثمّ ختم رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هذه العبادات بعبادة النذر؛ والنذر: هو الإيجاب؛ يعني أن توجب على نفسك ما لم يوجبه الله عليك، مثلاً لو قال قائل: "إن شفى الله مريضي فلله عليّ أن أذبح شاة"، في الأصل عندما يُشفى مريضه لايجب عليه أن يذبح شاة، لكن إن ذبحها أو فعل غير ذلك من الأعمال شكراً لله له ذلك، لكن عندما يقول "إن شفى الله مريضي فلله عليّ أن أذبح شاة"، أصبحت ذبح الشاة واجبا عليه إذا شفي مريضه، ومن لم لأنه أوجبها على نفسه.

فالنذر: هو الإيجاب أن يوجب على نفسه ما لم يوجبه الله عليه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا يَنْهَانَا عَنِ النَّذْرِ، وَيَقُولُ: «إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الشَّحِيحِ»[1].

وفي رواية « نَهَى ﷺ عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»[2]؛ انتبه لهذه الكلمة تفيدك جدًّا في هذا الباب، قال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»؛ شفاء المريض، حصول الغنى، زوال المصيبة هذا الخير يحصل من الله فضلاً ومنـًا، ليس

فالأصل فيه الإباحة لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة يس، الآيتين: ٧١، ٧٢] وقد يكون مطلوبـًا أو منهيـًا عنه حسبما يكون وسيلة له» «شرح ثلاثة الاصول» (ص٦٦).

(١) رواه البخاري (٦٦٩٢)، ومسلم (١٦٣٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٣٩).

الشاة الّتي أوجبتها على نفسك أو العمل الّذي أوجبته على نفسك هو الّذي تنال به هذا الأمر، قال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ» يعني لن يأتيك خير؛ صحة عافية مال من نذرك، والنذر كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الشَّحِيحِ»، فبعض النَّاس يفعل ذلك بناء على خطأ في الفهم؛ يقول: (إن شفى الله مريضي أذبح كذا)، كأنه يظن ويتوهم أن قوله "أذبح كذا" هي الّتي تجلب له شفاء المريض؛ ولهذا أزال النَّبيّ ﷺ هذا الفهم قال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»؛ «خير» هنا نكرة في سياق النفي تفيد العموم يعني: شفاء صحة غنى صلاح إلى غير ذلك كل ذلك لن يأتيك بسبب النذر.

«إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ» قاعدة في الباب افهمها واعتني بها أرشدك إليها نبيك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الخير يأتي من الله؛ إذا أردت الشفاء، أردت أي مصلحة من المصالح لا توجب على نفسك ما لم يوجبه الله عليك واطلبه من الله سبحانه وتعالى.

فالنذر عبادة وهو أمرٌ مكروه[1]؛ ولهذا جاءت الأحاديث على مثل ذلك، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الشَّحِيحِ »، وجاء عنه أحاديث في هذا المعنى تفيد الكراهة.

---

(١) ذهب إلى هذا العديد من العلماء: «يَرَى أَنَّ النَّذْرَ مَكْرُوهٌ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِي الْجُمْلَةِ وَالْحَنَابِلَةِ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْمَذْهَبِ، عَلَى تَفْصِيلٍ عِنْدَ بَعْضِهِمْ فِي نَوْعِ النَّذْرِ الَّذِي يُوصَفُ بِذَلِكَ» «الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤٠/ ١٣٩).

ولهذا النذر امتدح الله سبحانه وتعالى الوفاء به، لأنَّه إذا أوجبته على نفسك أصبحت عبادة أوجبتها على نفسك فوفاؤك بها قربة لله، مدح الله الموفين بالنذر قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾، فالنذر عبادة لا يجوز التقرب بها لغير الله ودل على كونه عبادة وقربة قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧] أي فاشياً ومنتشراً وعاما إلا من رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبحانه وتعالى؛ وهم أهل الإيمان.

قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ ما هو هذا اليوم؟ يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى يمدح في هذه الآية من يخاف يومًا كان شره مستطيراً، إذا كنت تخاف هذا اليوم فإنك سوف تستعد له، وإذا استعددت له بالأعمال الصالحة نجوت يوم القيامة ولهذا الناجون يوم القيامة ماذا يقولون؟ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠] يعني كنت أعتقد أنني سألقى الله، فالّذي يعتقد أنه سيلقى الله وأن الله سيحاسبه وأنه سيقف بين يدي الله ويخاف ذلك اليوم سيُعد له عدته بالأعمال الصالحة والطاعات الزاكية المقربة إلى الله سبحانه وتعالى.

أنهى إلى هنا المصنّف رحمه الله تعالى ذكر الأمثلة على العبادات المقربة إلى الله، ومراده من ذلك: أن يتنبه المسلم في هذه العبادات وفي غيرها إلى أمرين لابد من التأكيد عليهما واستحضارهما دائمًا، أراد من

ذلك التأكيد على أمرين:

١. أن تصرف هذه العبادات وغيرها من القربات لله وحده ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨].

٢. والأمر الثاني: لكي لا يُصرف شيء منها لغير الله تبارك وتعالى ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وبهذا يكون قد أنهى رحمه الله تعالى الكلام على الأصل الأول من هذه الأصول الثّلاثة العظيمة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الأصلُ الثَّاني: معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلَّة؛ وهو الاستسلامُ للهِ بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة مِنَ الشِّرك وأهلِهِ.

وهو ثلاثُ مراتبَ: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ؛ وكلُّ مرتبةٍ لها أركانٌ.

فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أنْ لا إلـه إلاّ اللهُ وأنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاة، وإيتاءُ الزَّكاة، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ».

الشرح:

لما أنهى المصنّف رحمه الله تعالى الكلام على الأصل الأول؛ وهو معرفة العبد ربه بأنه جَلَّ وَعَلَا الخالق وحده لا شريك له، المتفرد بالخلق

والرزق والمن والعطاء، وأن مَن هذا شأنه يجب أن يُفرد وحده بأنواع العبادة فلا يُجعل معه شريك في شيء منها، ثمّ ذكر رحمه الله تعالى أنواعـًا من العبادات المقربات إلى الله جَلَّ وَعَلَا، مبينـًا أن تلك العبادات ونظائرها وأمثالها حق لله يجب أن يُفرد بها وحده جَلَّ وَعَلَا، وأن صرف شيء منها لغيره يعدُّ شركـًا بالله جَلَّ وَعَلَا واتخاذاً للأنْدَاد.

لما أنهى رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأصل الأول شرع في بيان الأصل الثاني وهو: «**معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلَّة**»؛ ودين الإسلام هو الدّين الّذي رضيه الله جَلَّ وَعَلَا لعباده، قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، وهو الدّين الّذي لا يقبل الله دينـًا سواه؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهو دين الله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقد أمر الله جَلَّ وَعَلَا الدخول فيه كافةً، لا أن يكون دخول المرء في أمور الإسلام مبنيـًا على الاختيار؛ يأخذ من أمور الإسلام ما أحب ويدع ما لا تهوى نفسه! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ وهذا يتطلب من العبد معرفة الإسلام وشرائعه ومبانيه وما يتعلق به من أحكام، ليجاهد نفسه في هذه الحياة ليكون من أهل الإسلام حقـًا وصدقـًا.

وهذا الأصل أراد أن يبين فيه رحمه الله تعالى الإسلام الّذي هو دين

الله، الدّين الّذي رضيه جَلَّ وَعَلَا لعباده؛ قال: «**معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلَّة**»؛ أشير هنا إلى ما سبق التنبيه عليه: وهو أن أمور الدّين عمومًا من عقائد وعبادات هي عبارة عن مسائل ودلائل؛ فالإسلام هو مسائل عديدة وشرائع متنوعة مبنية على الدَّليل، والدَّليل: «قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ»؛ هذا هو الإسلام، الإسلام مسائل وشرائع وأعمال وتكاليف مبنية على الدَّليل، والدَّليل هو: قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ، والعبد مطلوبٌ منه أن يعرف الدّين بالدَّليل، لا أن تكون معرفته بالدّين مبنية على الهوى، أو مبنية على الآراء، أو مبنية على التجارب، أو مبنية على المنامات أو الحكايات أو غير ذلك من الأمور المؤسفة التي قد ترى بعض النَّاس من يتدين ويتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بزعمه بأعمالٍ ليست في القرآن ولا في السنة ولكنها مبنية على منام رآه، أو تجربة فعلها، أو حكاية سمعها، أو رأيٍ أعجب به، أو قصةٍ ذُكرت له، أو نحو ذلك من الأمور الّتي جُعلت لدى فئات من النَّاس مصادر للاستدلّال في أمور الدّين؛ وهذا من الغلط بمكان، دين الله جَلَّ وَعَلَا الإسلام منبعه ومصدره الدَّليل، والدَّليل هو «قال الله، قال رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ».

ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «من فارق الدَّليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرَّسول ﷺ».[1]

---

(١) نقلها عنه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

ويقول الإمام ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الْأُصُولِ، بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؟!»(١) أي: أن هذا غير ممكن.

فدين الله وشرعه هو مسائل مبنية على دلائل، والدلائل هي قال الله قال رسوله ﷺ، فهذا أصل لابد أن ينتبه له المسلم، فإذا جاءك شخص وقال لك: هذا الذكر جميل وهذا الدُّعاء حسن وهذه العبادة طيبة وقلت له: ما الدَّليل؟ قال: الدَّليل أنني البارحة نمت ورأيت في المنام كذا وكذا، قل له: دعني ومنامك، إذا عندك آية من القرآن أو حديث عن الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فأهلاً وسهلاً، حي علا.

أما منام أو حكاية أو يقول: "جربت وجرب فلان وهذا بنيناه على تجارب نحن وأشياخنا أو نحن وإخواننا"؛ كل هذا لا يُبنى عليه دين، الدّين يُبنى على الدَّليل، والدَّليل قال الله قال رسوله ﷺ، يُبنى على الأدلَّة.

ولهذا بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتقرير هذا الأصل الّذي لابد أن يُقرر، لأنَّ هذا الأصل إن لم يُقرر ويثبت زاغ الإنسان عن الصراط المستقيم وأُخذ هنا وهناك من سبل الانحراف الكثيرة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾[الأنعام: ١٥٣] فالّذي لا يعتصم بالدَّليل - كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - لابد أن يفارق السبيل شاء أم أبى، لأنَّ العصمة والأمَنة

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية » (ص٤٧).

والسلامة والسداد مع الدَّليل (كلام الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه).

والمصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثلما رأينا في هذا الكتاب وفي كتبه الأخرى ماض على جادة واحدة مضى عليها أهل السنة قاطبة في قديم الزمان وحديثه وهي: ذكر المسألة مضمومًا معها دليلها؛ يقول لك: يجوز كذا قال الله تعالى كذا، لا يجوز كذا لقوله ﷺ كذا، يحرم كذا لأنَّه ثبت في الحديث كذا وكذا.. ماضين على هذه الطريقة؛ يذكرون المسألة أو الحكم مضمومًا إليه دليله.

وهذا الكتاب الّذي بين أيدينا كتاب صغير الحجم، ومع صغر حجمه فيه من الأدلَّة ما يبلغ ستين دليلاً من القرآن والسنة، كلما يذكر شيئًا يقول: قال الله تعالى أو يقول: قال ﷺ، يبني كل كلمة يوردها كل حكم يسوقه كل تقرير يورده على الدَّليل.

وهنا تعرف الفرق بين دعاة الحق ودعاة الضلال، والفرق بين كتب أهل السنة وكتب أهل البدع؛ ترى في كتب أهل البدع استدلال بغير القرآن والسنة، إما يستدل بالعقل المجرد، أو يستدل بالتجربة، أو يستدل بالمنامات، أو يستدل بالحكايات، إلى غير ذلك من مصادر الاستدلال الكثيرة الّتي أخذت النَّاس إلى سبل الانحراف عن صراط الله تبارك وتعالى المستقيم، ولهذا قرر هذا الأصل من البداية؛ قال: «**معرفةُ دين**

الإسلامِ بالأدلَّة»، والأدلَّة عنده وعند غيره من أئمة الدّين وعلماء السنة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ هذه هي الأدلَّة، ولهذا الكتاب كله ماضي على هذه الطريقة: إما يستدلّ بآية أو يستدلّ بحديث عن الرَّسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: «**وهو الاستسلامُ للهِ بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة مِنَ الشِّرك وأهلِهِ**»؛ هذا الإسلام.

وهذا التعريف – أيها الأخوة – ينبغي أن نحفظه، تعريف عظيم جدًّا وجامع، وهو من أحسن التعاريف الّتي بُيّن بها الإسلام؛ «هو الاستسلامُ للهِ بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة مِنَ الشِّرك»؛ تأمل التعريف ترى فيه فائدة عظيمة في بيان حقيقة الإسلام.

والإسلام كما قال أهل العلم هذه اللفظة تتضمن أمرين في أصل دلالتها؛ ألا وهما: الاستسلام والسلامة؛ وكل من الأمرين قد رُوعي في هذا التعريف الّذي ساقه الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما السلامة ففي قوله: «وهو الاستسلامُ للهِ بالتَّوحيد»؛ بمعنى أن يكون دينك وعباداتك وقرباتك سالمة من الشِّرك، وخالصة وصافية ونقية لا يُراد بها إلا الله جَلَّ وَعَلَا، سالمة من مبطلات العمل ومفسداته تكون صفتها النقاء والصفاء والخلوص، لا يُراد بها إلا الله جَلَّ وَعَلَا؛ فتكون مستسلماً لله ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] أي لربكم، فالاستسلام لله:

أي خالصـًا، لا يُجعل مع الله تبارك وتعالى شريك فيه، ومعنى ذلك: لو أن أحداً جاء بشرائع الإسلام مثل الصَّلاة أو الصيام أو الصدقة أو الدُّعاء أو الذبح وفعَلها ولكنه في نيته في الداخل قصد بها غير الله؛ أصبح إسلامه واستسلامه لغير الله، جعل مع الله شريكًا فخرج من السلامة، لأنَّ الإسلام مبني على السلامة من الشِّرك، من مبطلات الأعمال، من نواقض الدّين يكون سالمًا من ذلك، ولا يكون سالمًا من ذلك إلا بصفاء العمل ونقائه وخلوصه بحيث يكون لله تبارك وتعالى وحده، لا يُجعل مع الله فيه شريك.

ولهذا بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أول ما بدأ في تعريف الإسلام قال: «الإسلام هو الاستسلامُ لله» أي وحده «بالتَّوحيد» معنى الاستسلام لله بالتَّوحيد: أي أن تخلص دينك كله لله، لا تجعل مع الله شريكًا في شيء من الدّين لا قليل ولا كثير، لأن الدّين كلّه لله سبحانه وتعالى، فتستسلم لله لا لغيره، يكون دينك كله لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، فإذا لم يكن الدّين بهذه الصفة؛ خالصـًا لله صافيـًا نقيـًا لم يُرد به إلا وجه الله، إن لم يكن كذلك لا يقبله الله، لأنَّه سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا الخالص كما في الحديث القدسيّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ

وَشِرْكَهُ»[(١)]، أي ردَّ عليه عمله.

فإذًا حقيقة الإسلام أن تستسلم لله وحده بالتَّوحيد؛ أي تكون في أعمالك موحداً لا مشركًا، مخلصًا لا منددًا، لا تريد بأعمالك إلا وجه الله سبحانه وتعالى؛ هذا الإسلام؛ الاستسلام لله بالتَّوحيد.

«**والانقياد له بالطَّاعة**» كما أن الإسلام إخلاص وتوحيد فالإسلام أيضًا انقياد لله وطواعية وامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ فهذا جانب آخر من معنى الإسلام وهو أن تستسلم لله بمعنى تذعن وتنقاد لأمره سبحانه وتعالى ولا تعصه جَلَّ وَعَلَا، يكون شأنك كما نعت الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان في خواتيم سورة البقرة ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] هذا هو المسلم يسمع ويطيع، ينقاد يمتثل لأمر الله تبارك وتعالى، يخضع له.

قال: الإسلام «**هو الاستسلامُ للهِ بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة**»؛ أي أن تكون عبداً منقاداً مطيعًا ممتثلاً لأوامر ربك جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**والبراءة مِنَ الشِّرك وأهلِهِ**» لا يكون مسلمًا إلا من برأ من الشِّرك ومن أهل الشِّرك، وإلا لا يكون من أهل السلامة، فإذا لم يبرأ من الشِّرك وأهله لا يكون من أهل السلامة الّذين هم أهل الإسلام، ولهذا قال الله

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] هذا إعلان براءة من شيئين: من الشِّرك ومن أهل الشِّرك؛ يبرأ المسلم من الشِّرك، ويبرأ المسلم من أهل الشِّرك الذين اتخذوا الأنداد والشِّركاء مع الله سبحانه وتعالى.

وبهذا يُعلم أن من لم يبرأ من الشِّرك وأهله لا يكون من أهل الإسلام، لأنَّ من الإسلام أن تبرأ من الشِّرك، ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»(١)، اشترط الكفر بما يعبد من دون الله.

فإذاً البراءة من الشِّرك والبراءة من أهل الشِّرك هذه من الإسلام ومن حقيقة الإسلام.

هذا تعريف الإسلام، وهو تعريفٌ جامع مانع عظيم ينبغي على كل مسلم أن يحفظه وأن يحافظ عليه وأن يطبقه.

قال: «**الإسلام: الاستسلامُ للهِ بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة مِنَ الشِّرك وأهلِهِ**»؛ والتعريف يتكون من جملٍ ثلاث، وكل جملّة من هذه الجمل أشرتُ إلى شيء من أدلتها في كلام الله تبارك وتعالى.

قال: «**وهو ثلاثُ مراتبَ**» والمراتب: هي المنازل والدرجات، قال الله

(١) رواه مسلم (٢٣).

تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٩]

قال: «**وهو ثلاثُ مراتبَ**»؛ أي الإسلام الّذي هو دين الله تبارك وتعالى ليس هو مرتبة واحدة بل هو مراتب، وعدد هذه المراتب تحديداً ثلاث، الإسلام ثلاث مراتب وهي: مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان؛ هذه مراتب الدّين.

وأعلى مراتب الدّين: مرتبة الإحسان، ثمّ يلي هذه المرتبة مرتبة الإيمان، ثمّ يلي هذه المرتبة مرتبة الإسلام، وليس بعد الإسلام إلا الكفر؛ فهذه مراتب الدّين.

ومن المفيد جدًّا للمسلم أن يعرف مراتب الدّين وأن يعرف حقيقة كل مرتبة ليبدأ مع نفسه في مجاهدة وطلب عون من الله ومد بأن يبلغه جَلَّ وَعَلَا الرتب العالية والمنازل الرفيعة، وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: «وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ»[(١)]، فيبدأ مع نفسه في مجاهدة.

وإذا أردت أن تعرف حقيقة كل مرتبة والفرق بينها وبين الأخرى فاقرأ حديث جبريل المشهور الّذي يرويه الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه قال: قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠).

رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[(١)]؛ جاء عَلَيْهِ السَّلَامُ معلماً بصيغة السائل يعلّم النّاس دينهم.

انتبه جيداً لما خُتم به الحديث وهو قول النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُعَلِّمُكُمْ دِينكُمْ » لتستفيد من ذلك فائدة عظمى وهي موضوعنا ألا وهي: أن ديننا ثلاث مراتب بُينت في الحديث؛ وهي الإسلام، وشرحه النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبيَّن معناه، والإيمان وشرحه النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبيَّن

(١) رواه مسلم (٨).

معناه، والإحسان وشرحه النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبيَّن معناه؛ فإذاً ديننا بُيّن في هذا الحديث.

ولهذا يُعد هذا الحديث أجمع حديث في بيان الدّين، حتّى إن بعض العلماء كان يسمي هذا الحديث (أم السنة)(١)، مثل ما أن الفاتحة تسمى «أم القرآن»، وأنتم تعلمون أن الفاتحة سميت «أم القرآن» لأنَّها جمعت علوم القرآن؛ بمعنى أن ما بُيّن في القرآن كله تفصيلاً قد بُيّن في الفاتحة إجمالاً، بمعنى أن [سورة الفاتحة] أجملت كل تفاصيل القرآن ولذا صارت أمًا للقرآن، وحديث جبريل المشهور جمع تفاصيل السنة وشرائع الإسلام ورتب الدّين جمعها في هذا الحديث العظيم، وكثير من أهل العلم ينصح بحفظ هذا الحديث حتّى العوام، والّذي لا يستطيع أن يحفظ يكرر الحديث عشرين ثلاثين أربعين مرة حتّى يكون محفوظًا له بإذن الله.

بعض العوام لم يجد من يوجِّهه، أذكر مرة كنا في مكان فيه بعض البوادي فقلت لأحدهم أقرأ [سورة الإخلاص] ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ لم يحسن قراءتها، قال لي: أنا عندي قصيدة، قلت: هات القصيدة، ويعطينا قصيدة قرابة ستين بيتا، عنده قدرة يحفظ لكن ما وجد من يوجهه ليحفظ

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «الفتح» (١/ ١٢٥): «هذا الحديث يصلح أن يُقال له أم السنَّة؛ لِمَا تضمَّنه من جُمل علم السنَّة».

مثل هذه الأمور!!، لهذا عندنا هنا أحاديث وأمور جامعة ينبغي للعامي أن يجاهد نفسه على حفظها ولا يغالط نفسه يقول أنا ما أستطيع أن أحفظ، يتفقد نفسه سيجد أنه يحفظ أشياء أعجبته وحفظها ويرددها بين وقت وآخر حتّى لا تضيع منه، هذا أولى؛ حديث جبريل وفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص والمعوذتين هذه أولى، هذه تجمع لك مقاصد الدّين، وأساس السعادة والفلاح في الدّنيا والآخرة؛ فيجاهد نفسه على حفظ مثل هذه الأحاديث.

الشاهد أن حديث جبريل حديث ينصح العلماء بأن يُحفظ، فلابد أن نسعى لانتشار الخير ونشجع ونحفز على ذلك، لاسيما أننا في هذا الزمان ابتليت عقول كثير من النَّاس من خلال القنوات ومن خلال المجلات ومن خلال وسائل كثيرة الّتي انفتحت على النَّاس شغلت العقول، فقد تجد بعض النَّاس يعرف أشياء كثيرة إلا دينه الّذي خُلق لأجله لا يعرفه؛ أساسيات في الدّين أصول قواعد مهمة في الدّين لا يعرفها، وإذا سألته عن توافه من أمور الدّنيا أو توافه من المحرمات والخسائس يعرفها بالتفصيل!! شُغلت العقول.

والجميع متحمل أمانة أن ينشر هذا الدّين، وأن يكون من المتعاونين على البر والتقوى وإيصال الخير للنَّاس، ولا تُترك الساحة لدعاة الضلال وأئمة الباطل وأرباب الشهوات يصلون إلى العقول وإلى القلوب وإلى

النفوس ويضيِّعون النَّاس.

فهذا الحديث حديث عظيم جدًّا[١] وفيه بيّن النَّبيّ ﷺ مراتب الدّين الإسلامي على الترتيب؛ الإسلام، ثمّ أعلى منه الإيمان ثمّ أعلى منه الإحسان.

عرَّف النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الإسلام فقال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله وتقيم الصَّلاة وتؤتي الزَّكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً**»؛ فعرَّفه بذكر الأصل الّذي يبنى عليه وهو التَّوحيد؛ شهادة أن لا إله إلا الله وبها بدأ، ثمّ ثنى بالشهادة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالرِّسالة وهذا معناه الطَّاعة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ [النساء: ٦٤]، ثمّ ذكر أعظم شرائع الإسلام وهي الصَّلاة والزَّكاة والصيام والحج.

فإذاً الإسلام هو استسلام لله بالتَّوحيد «أشهد أن لا إله إلا الله» هذا معناها، وهو أيضـًا انقياد لأوامر الله وأوامر رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأعظم شيء في الدّين يؤمر العباد بتحقيقه هذه المباني المذكورة في الحديث، ولهذا صح في حديث آخر عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ،

---

(١) وللشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله رسالة قيمة بعنوان: «شرح حديث جبريل في تعليم الدين».

وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[١].

فجعل هذه الخمس مباني للإسلام بمعنى أنها أعمدة ينبني عليها الإسلام ويقوم.

هذا تفسير الإسلام، وهو تفسيرٌ له من النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأمور وشرائع ظاهرة وهي الشهادتان والصَّلاة والصيام والزَّكاة والحج؛ شرائع ظاهرة.

ثمّ بعد ذلك فسر الإيمان بقوله: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ وهذه الستة مكانها القلب، كلها اعتقادات؛ ففسر الإسلام بالشرائع الظاهرة، وفسر الإيمان بالاعتقادات الباطنة الّتي مكانها القلب؛ وفي ضوء ذلك تستطيع أن تعرف حقيقة الإسلام وحقيقة الإيمان، وأيضًا تستطيع أن تعرف الفرق بين المسلم والمؤمن، فإذا قرأت قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وقيل لك: ما الفرق بين مسلم ومؤمن؟ أو قيل لك: من المسلم ومن المؤمن؟ في ضوء حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتضح لك الأمر ويتبين لك.

فإذا قيل: من المسلم؟ تقول مجيبًا على هذا السؤال مستنداً على حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المشهور تقول: المسلم هو الّذي يأتي بشرائع

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

الإسلام الظاهرة، لكن إلى هذا الحد التعريف لم يتم؛ لأنَّه يوجد من يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة وفي القلب على خلاف ذلك، فيكون في الظاهر يأتي بالشرائع وفي الباطن على خلاف ذلك هذا وهو المنافق الّذي يأتي بالشرائع الظاهرة ولكن الباطن خراب تباب ليس فيه إيمان ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون: ١]، في الآية الأخرى قال: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: ١٤]، في الآية الأخرى قال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢] يعني كل هذه الأعمال مراءاة فقط أما الباطن شيء آخر.

فالمسلم هو الّذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القدر الّذي يصحح إسلامه؛ هذه لابد أن تضاف؛ يصلي يصوم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله، وعنده - أي في قلبه - من الإيمان ما يصحح إسلامه، ولا يُشترط أن يمتلئ القلب إيمانًا، بل يكفي ليكون مسلمـًا أن يوجد في القلب القدر الّذي يصحح الإسلام، وهو الإيمان الجازم بهذه الأصول؛ بمعنى أن لا يكون عنده شك في الإيمان بالله ولا بالكتب ولا بالرسل ولا باليوم الآخر ولا بالقدر، لا يكون عنده شك في ذلك؛ لأنَّه إن وجد الشك ارتفع الجزم، وإذا ارتفع الجزم انتفى الإيمان ووُجد الكفر وحبطت الأعمال ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي

ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥]؛ فلابد أن يكون عنده الإيمان الجازم؛ أي الّذي لا يكون فيه شك ولا ريب بهذه الأصول.

هناك شيء أعلى من الإيمان الجازم اسمه «الإيمان الراسخ»؛ هذا لا يشترط، هذه درجة أعلى، وهي درجة أهل الإيمان، أهل الإيمان هم الّذين رسخ الإيمان في قلوبهم، إذاً المسلم هو الّذي جاء بشرائع الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان ما يصحح إسلامه هذا المسلم.

وأما المؤمن فهو ما جاء في ضوء حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «الإيمان: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، فالمؤمن هو الّذي تحقق الإيمان في قلبه ودخل وتمكن ورسخ؛ ومن المعلوم أن من لوازم تحقُّق القلب بالإيمان أن تصلح الجوارح بالأعمال، ولهذا قال العلماء: «كل مؤمن مسلم» لأنَّه إذا تحقق القلب فعلاً بالإيمان ورسخ في القلب فالجوارح ستعمل وتنقاد وتستسلم وتذعن، لكن هل كل مسلم مؤمن؟ يعني هل كل من جاء بشرائع الإسلام تحقق الإيمان في قلبه؟ ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ هذه درجة أعلى ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] يعني ما زلتم في درجة أقل، درجة الإيمان لم تبلغوها، لا تقولوا آمنا لأنَّكم لم تبلغوا درجة الإيمان، ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ يعني أنتم ما زلتم في هذه الدرجة، أما درجة الإيمان لم تبلغوها بعد.

عن سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا.

فَقَالَ «أَوْ مُسْلِمًا».

فَسَكَتُّ قَلِيلاً، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا. فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا».

ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي وَعَادَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «يَا سَعْدُ، إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»[1].

فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أو مسلماً» نبهه إلى هذا الأمر، لأنَّ درجة الإسلام أقل ودرجة الإيمان أعلى.

وإذا عرفت أن درجة الإيمان أعلى من درجة الإسلام فمعنى ذلك: أن الدرجة العالية لا يوصل إليها إلا بتحقيق الدرجة الّتي دونها، ولهذا كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً.

إذاً المؤمن في ضوء حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الّذي تحقق الإيمان في قلبه ورسخ في نفسه، ومن كان بهذا الوصف جوارحه ستصلح تبعاً لذلك، والجوارح تبع لمرادات القلوب كما قال نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي

(١) رواه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١)؛ فالقلب إذا عُمر بالإيمان الجوارح كلها تصلح تبعًا له.

ولهذا يؤثر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «الْقَلْبُ مَلَكٌ وَلَهُ جُنُودٌ، فَإِذَا صَلُحَ الْمَلِكُ صَلُحَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا فَسَدَ الْمَلِكُ فَسَدَتْ جُنُودُهُ»(٢).

وبهذا نعلم أن القلب إذا تحقق بالإيمان وعمر به، ورسخ الإيمان فيه الجوارح صلحت تبعًا له، وهذا معنى قول العلماء رحمهم الله: «كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا».

ثمّ بعد ذلك تأتي درجة أعلى من هاتين الدرجتين وهي درجة الإحسان، قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ » والإحسان أصل هذه الكلمة في مدلولها اللغوي: الإتقان والإجادة، فما هي درجة الإتقان والإجادة وأن تبلغ في الدّين الذروة والدرجة العالية الرفيعة؟ ما الإحسان في الدّين؟ متى يكون الإنسان أتقن دينه وجاء منه بالدرجة العليا والمنزلة الرفيعة؟ ما

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٣٧٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ أَحْسَنُ بَيَانًا فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا فَالْجُنْدُ لَهُمْ اخْتِيَارٌ قَدْ يَعْصُونَ بِهِ مَلِكَهُمْ وَبِالْعَكْسِ فَيَكُونُ فِيهِمْ صَلَاحٌ مَعَ فَسَادِهِ أَوْ فَسَادٌ مَعَ صَلَاحِهِ؛ بِخِلَافِ الْقَلْبِ فَإِنَّ الْجَسَدَ تَابِعٌ لَهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ إرَادَتِهِ قَطُّ» «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٨٧).

الإحسان - يعني في الدّين - متى يكون الإنسان محسنًا متقنًا مجيداً في دينه بلغ الرتبة العليا؟ «قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ» أي في الدّين، قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»؛ يعني أن تكون في عبادتك لله سبحانه وتعالى بهذه الحال؛ خاضعًا، خاشعًا، ذليلاً، منكسراً، مقبلاً على الله سبحانه وتعالى كأنك ترى الله، وإن لم تكن تراه فإنه يراك، إن لم تكن تراه ببصرك اعلم أنه يراك ويطلع عليك ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

وعندما يصل العبد في عبوديته وذله وانكساره بين يدي الله تبارك وتعالى إلى هذه الدرجة - يعبد الله كأنه يرى الله - يكون بلغ الإتقان والإجادة؛ فيكون محسنًا وصل إلى درجة الإحسان، وهذه الدرجة كانت في الأولين كثيرة وفي الآخرين قليلة، كما يوضح ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا في [سورة الواقعة]؛ لما ذكر درجة المقرّبين وهم المحسنون قال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة: ١٣-١٤]، وكونهم في الآخرين قليل هذا ليس مثبطًا للإنسان بل هذا دافع للإنسان أن يجاهد نفسه ويسأل ربه تبارك وتعالى أن يعينه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩] يجاهد نفسه بتحقيق الإحسان. وأعظم ما يتحقق به الإحسان: معرفة الله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وبما تعرَّف إلى عباده به في كتابه وفي سنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكلما

عظمت معرفة العبد بالله زاد تحقق الإيمان في قلبه ورسوخه فيه، وبدأ صعوداً وارتقاء إلى الإحسان والإتقان في دينه. قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

في ضوء الحديث عرفنا الإسلام والإيمان والإحسان وعرفنا أيضـاً المسلم والمؤمن والمحسن. أحد العلماء من المتقدمين ضرب مثالاً توضيحيـاً مفيداً لهذه الدرجات؛ وضع ثلاثة دوائر: دائرة صغيرة، ثمّ تحيط بها دائرة أوسع منها، ثمّ تحيط بها دائرة ثالثة أوسع وقال: الإحسان هو هذه الدائرة، يعني الدائرة الصغيرة الّتي في الوسط، والإيمان: الدائرة الأوسع، والإسلام: الدائرة الأوسع؛ أول ما يدخل الإنسان لدائرة الدّين يدخل الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله ويبدأ بشرائع الإسلام؛ أصبح مسلمـاً دخل في دائرة الإسلام، تعمق في الدّين وعرف حقائق الإيمان وقوي الإيمان في قلبه وتمكن في نفسه ورسخ دخل للدائرة الأخرى الّتي هي دائرة الإيمان، زاد حظه وقوي نصيبه من الإيمان وترقى في رتبه ودرجاته إلى أن بلغ به الحال في تقربه إلى الله وعبادته لله وإتيانه بالطاعات والعبادات إلى أن أصبح يعبد الله كأنه يرى الله دخل في درجة الإحسان.

الّذي في دائرة الإحسان هو أيضـاً في دائرة الإيمان وهو أيضـاً في دائرة الإسلام ولهذا «كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنـاً، وليس

كل مؤمن محسناً»، فالّذي في دائرة الإحسان إن خرج منها يكون في دائرة الإيمان، فإن خرج منها يكون في دائرة الإسلام، فإن خرج من دائرة الإسلام ليس بعد الإسلام إلا الكفر بالله تبارك وتعالى؛ ويكون من أهل النّار ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

من يخرج من هذه الدوائر يكون من أهل النّار، إن مات على ذلك كان من أهل النّار مخلداً فيها أبد الآباد.

فهذه مراتب الدّين الإسلامي، والمصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيتكلم عن أركان كل مرتبة.

مرتبة الإسلام أركانها خمسة - ستأتي عند المصنّف ومرت معنا في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله؛ هذا الركن الأول؛ الشهادتان، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام؛ هذه أركان الإسلام، والدَّليل على أنها أركان للإسلام قول النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ..»؛ بمعنى أنها للإسلام بمثابة الأعمدة للبناء

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة

ولا عماد إذا لم يرسَ أوتادُ

فهي للإسلام بمثابة الأعمدة، قال ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ» وذكر هذه الخمس.، فهذه الخمس تعد أركانًا ينبني عليها. والإيمان

أركانه ستة وستأتي عند المصنّف رحمه الله تعالى، والإحسان له ركن واحد وأيضًا سيأتي عند المصنّف رحمه الله تعالى؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أنْ لا إلٰه إلاّ اللهُ، وأنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاة، وإيتاءُ الزَّكاة، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ**» ثمّ بدأ رحمه الله تعالى يفصِّل في هذه الأركان بعض الشيء فيذكر كل ركن منها ويذكر معه دليله من كلام الله سبحانه وتعالى.

تتمة لموضوع مراتب الدّين؛ هذه المراتب جاء ذكرها في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣]؛ الواو في قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ هل تتناول الثّلاثة: الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات؟ أم أنها خاصة بأقرب مذكورَين وهما: المقتصد والسابق بالخيرات؟ هل تتناول الجميع ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي يدخلها الظالم لنفسه ويدخلها المقتصد ويدخلها السابق بالخيرات؟ أو هي خاصة بالمقتصد وبالسابق بالخيرات؟ الجواب على ذلك يحتاج إلى أمرين: يحتاج إلى فهم السياق كاملاً، ويحتاج أيضًا إلى فهم ما المراد بالظالم لنفسه؟ وما المراد بظلم النفس هنا؟ لأنَّ الظلم إذا أطلق في القرآن:

- تارةً يراد به: الظلم الّذي هو الشِّرك والكفر بالله.
- وتارةً يراد به: الظلم الّذي هو المعاصي والذُّنوب الّتي دون الكفر.

فنرجع للآية وننظر ما المراد بالظلم هنا؟ هل المراد بالظلم في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ هل المراد ظلَمها بالمعصية الّتي هي دون الكفر؟ أو ظلَمها بالشِّرك والكفر؟ فإذا كان المراد " ظلمها " أي بالشِّرك والكفر ليس داخل، لا يدخل الجنّة مشرك أو كافر ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وإن كان المراد ظلم نفسه بالمعاصي الّتي هي دون الكفر فهل يدخل الجنّة؟ الجواب: نعم يدخلها، لكن لا يلزم من دخوله الجنّة أن يكون دخولاً أوليـاً، بل ربما مر قبل دخوله الجنّة بمرحلة تعذيب في النّار، كما جاءت النصوص دالة على دخول عصاة الموحدين النّار وبقائهم فيها على قدر ذنوبهم تمحيصاً لهم وتطهيراً ثمّ بعد ذلك يدخلون الجنّة.

وقد بيَّن النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صفة خروجهم من النّار في الحديث الّذي في «الصحيحين»، عنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي

حَمِيلِ السَّيْلِ..»[١].

قوله ﷺ: «ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ» أي: جماعات جماعات ودفعات دفعات، لم يخرجوا جميعاً دفعة واحدة لأنَّ كبائرهم في الدّنيا متفاوتة فلم يخرجوا من النّار دفعة واحدة وإنّما يخرجون على دفع، لأنَّ الكبائر الّتي أدخلتهم النّار هم متفاوتون فيها، قال: «فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ» يعني جماعات جماعات «فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ» تطرح هذه القطع المتفحمة تلقى في أنهار الجنة قال: «فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ».

هؤلاء ظالمون لأنَّفسهم لكن لم يظلموا أنفسهم بالكفر والشِّرك، ومن كان ظلمه لنفسه بالمعاصي الّتي دون الشِّرك فإن دخوله للنار لا يكون دخول تخليد وتأبيد وإنَّما يكون دخول تطهير وتنقية؛ فيدخل ليطهر وينقى.

وأما الكافر المشرك لا يدخل النّار ليطهر وينقى لأنَّ خبث الشِّرك لا تطهره النّار ولهذا يدخل النّار ليبقى فيها أبد الآباد ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

فإذاً الظالم لنفسه في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ يأتيك الجواب؛ لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأقسام الثّلاثة ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ

---

(١) رواه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٥).

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ ذكر ثوابهم في الجنّة، بعدها بقليل قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧]؛ هل قوله: «الظالمين» هنا ليست هي نفس الظالمين هناك: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين المشركين، الظلم هنا المراد به: الشِّرك. والظلم الّذي في الأول ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي الظلم بالمعاصي والكبائر الّتي دون الشِّرك، هذا واضح تماماً في السياق.

وعلى هذا فإن ورثة الكتاب أهل الإسلام ذُكروا في الآية أقساماً ثلاثة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ ورثة الكتاب ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مُصطفين ومن عباد الله، وختم الآية بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، ذكرهم أقساماً ثلاثة ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾؛ فإذاً المراد بالظالم لنفسه هنا الّذي ظلم نفسه بالذُّنوب والمعاصي الّتي دون الشِّرك؛ بمعنى أنه ترك بعض الواجبات الّتي لا يكون تركها كفراً، أو فعل بعض المحرمات الّتي لا يكون فعلها كفراً؛ هذا ظالم لنفسه.

المقتصد هو الّذي فعل الواجب وترك المحرم، والمقتصد فعل الواجب وترك المحرم.

السابق بالخيرات هو الّذي إضافةً إلى فعل الواجبات وترك المحرمات نافس في الرغائب وأنواع المستحبات.

والعلماء رحمهم الله يقولون: السابق بالخيرات والمقتصد كلاهما يدخل الجنّة دخولاً أوليـًا بدون حساب ولا عذاب، ودرجتهما في الجنّة متفاوتة، والظالم لنفسه يدخل الجنّة لكنه قد يمر قبل دخوله لها بمرحلة تطهير وتنقية في النّار ثمّ يدخل الجنّة.

فقول الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ الواو تشمل الثّلاثة؛ الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، إلا أن السابق بالخيرات والمقتصد دخولهما للجنة دخولاً أوليـًا بدون حساب ولا عذاب - نسأل الله العظيم لنا أجمعين من فضله -، والظالم لنفسه يدخل الجنّة لكنه قد يمر قبل ذلك بمرحلة تطهير وتمحيص وتنقية في النّار والكل يدخل الجنّة.

ولهذا الإمام المفسر العلامة الشَّيخ الشنقيطي يعظِّم الواو هذه، جاء في «تفسيره»: «والواو في يدخلونها شاملة للظالم، والمقتصد والسابق على التحقيق. ولذا قال بعض أهل العلم: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين، فوعده الصادق بجنات عدن لجميع أقسام هذه الأمة، وأولهم الظالم لنفسه يدل على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن، ولم يبق من المسلمين أحد خارج عن الأقسام الثلاثة، فالوعد الصادق بالجنة في الآية

شامل لجميع المسلمين..»[١].

وهذا يفيدك فائدة عظيمة في مكانة التَّوحيد؛ فالتَّوحيد إذا حققه العبد لم يدخل النّار وكان مانعًا من دخولها، وإذا لم يحققه العبد يعني أتى بأمور تنقِصه من المعاصي وما لا يكون كفراً فإنه يمنع من الخلود في النّار، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النَّبِيّ ﷺ أنه قال: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً»[٢] فهذا يدلّنا على مكانة التَّوحيد العظيمة ومنزلته العلية.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أنْ لا إلـه إلاّ اللهُ وأنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاة، وإيتاءُ الزَّكاة، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ. فدليلُ الشّهادةِ قولُهُ تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: ١٨]، ومعناها لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ؛ «لا إلـه» نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، «إلا الله» مُثْبِتًا

(١) «أضواء البيان» (٥/ ٤٩٠).

(٢) رواه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣).

العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ.

وتفسيرُها الّذي يوضِّحُها قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، وقولُه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

الشرح:

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ببيان ما يتعلق بأركان مرتبة الإسلام، فذكر أن أركانه خمسة وهي: شهادةُ أنْ لا إلٰه إلاّ اللهُ، وأنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ، وإقامِ الصَّلاة، وإيتاءِ الزَّكاة، وصومِ رمضانَ، وحجِّ البيتِ الحرامِ لمن استطاع إليه سبيلاً.

وهذه الأركان الخمسة للإسلام ذكرها النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مجتمعة في بعض الأحاديث؛ كحديث ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»(١).

وفي حديث جبريل المشهور لما قال جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للنبي ﷺ: «يَا مُحَمَّدُ

---

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»(١).

ثمّ بعد أن ذكر المصنّف رَحِمَهُ اللهُ أركان الإسلام الخمسة إجمالاً شرع في ذكر شيء من التفاصيل لهذه الأنّواع الخمسة، وبدأ أول ما بدأ بـ«شهادة أن لا إله إلا الله» وهي أعظم أركان الإسلام وأعلى شعب الإيمان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(٢).

و« لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » هي أول شيء يُدعى إليه في هذا الدّين، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ قَالَ: « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ..»(٣).

وهي أعظم الكلمات وأجلها على الإطلاق كما قال نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٣) رواه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

قَبْلِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[١]؛ فهي كلمة عظيمة ليس في الكلمات كلمة أعظم منها، فهي أعظم الكلمات وأجلها وأرفعها على الإطلاق.

بدأ المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ ببيان ما يتعلق بالشهادة؛ شهادة أن لا إله إلا الله قال: «**فدليلُ الشّهادةِ**»؛ «الشهادة» هذه الكلمة معرفةً بأل لا تنصرف عند الإطلاق إلا لأعظم الشهادات وأجلِّها وهي شهادة أن لا إله إلا الله، فـ«لا إله إلا الله» أعظم شهادةٍ لأعظم مشهود به.

«لا إله إلا الله» أعظم شهادة يشهد بها العبد، لأنه ربما في حياته يشهد بأمور كثيرة، ولكن أعظم شيء يشهد به الشهادة بـ«لا إله إلا الله»؛ فهي توحيد الله جَلَّ وَعَلَا، فهي شهادة عظيمة.

ولهذا ينبغي أن تعلم أيها الأخ المسلم أن أعظم نعمة وأكبر منّة وأجلَّ عطية ينعم الله بها عليك في هذه الحياة أن يجعلك من أهل شهادة أن لا إله إلا الله، هذه أكبر نعمة وأعظم نعمة على الإطلاق، ليس في النعم أعظم من هذه النّعمة؛ أن جعلك من أهل لا إله إلا الله، من الشاهدين بـ«لا إله إلا الله»، ولهذا قال بعض السلف: « ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرّفهم لا إله إلا الله »[٢].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٨٣٧).

(٢) ذكره الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في «كلمة الإخلاص» (ص٥٣).

ودليل هذا بل دلائله في القرآن والسنة كثيرة؛ خذ مثالاً على ذلك: أوائل [سورة النحل] وهي تُعرف عند أهل العلم بـ«سورة النِّعَم» لكثرة النعم الّتي عددها جل وعز في هذه السورة ممتناً على عباده بها، ذكر نعماً كثيرة؛ نعمة المسكن، ونعمة المطعم، ونعمة الشراب واللباس، ونِعم أخرى، لكنه سبحانه بدأ عدّ هذه النعم بأعظم النعم وهي نعمة لا إله إلا الله، فأول نعمة تقرأها في هذه السورة «سورة النعم» هي نعمة لا إله إلا الله ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النحل: ١-٢] هذه أول نعمة تُذكر في سورة النعم [سورة النحل].

ولهذا أكبر النعم وأجلها وأعظمها هي نعمة الشهادة بلا إله إلا الله، وواجب على كل من أكرمه ربه سبحانه وتعالى بهذه الشهادة أن يرعى حق رعايتها، وأن يجاهد نفسه على تتميمها وتكميلها والإتيان بضوابطها وشروطها في ضوء كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن يحذر أشد الحذر من كل ناقضٍ لها أو قادح فيها أو منقِصٍ أيضا لهذه الكلمة؛ بل يجاهد نفسه على تتميمها وتكميلها إلى أن يلقى الله جَلَّ وَعَلَا وهو من أهل هذه الكلمة حقاً وصدقاً غير مغير ولا مبدل.

قال: «**فدليلُ الشّهادةِ**» يعني دليل شهادة أن لا إله إلا الله: **قولُهُ تعالى**: **﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾**؛ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لاحظ أموراً في

هذه الشهادة:

- ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ الشاهد هنا رب العالمين
- ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والمشهود به: توحيده سبحانه وتعالى وحدانيته، وأنه جَلَّ وَعَلَا وحده المستحق للعبادة.

فاجتمع في صدر هذه الآية أعظم شهادة من أعظم شاهد في أعظم مشهود به؛ أعظم شهادة: لا إله إلا الله، من أعظم شاهد وهو رب العالمين جَلَّ وَعَلَا، من أعظم مشهود به وهو توحيده جَلَّ وَعَلَا وإخلاص الدّين له.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي وملائكة الرحمن وهم خلقٌ لا يعلم عددهم إلا الّذي خلقهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وكلهم يشهد بذلك، يشهد أن لا إله إلا الله، وهم خلقٌ من خلق الله لم نرهم لكننا نؤمن بهم؛ نؤمن بوجودهم، نؤمن بأسمائهم الّتي وردت، نؤمن بأوصافهم، نؤمن بوظائفهم المتنوعة الكثيرة الّتي جاءت مبينة في الكتاب والسنة كل ذلكم نؤمن به، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ فالملائكة خلق من خلق الله سبحانه وتعالى وهم يشهدون هذه الشهادة العظيمة لا إله إلا الله، وليس في الملائكة ملك إلا وهو من أهل هذه الشهادة إلا ويشهد بها جميعهم بدون استثناء، فالملائكة كلهم يشهدون هذه الشهادة

من أولهم إلى آخرهم وهم خلق لا يعصون الله، لا يوجد في الملائكة شيء اسمه معصية ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فذكر جَلَّ وَعَلَا شهادة الملائكة قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: يشهدون أنه لا إله إلا الله.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ خص أهل العلم به سبحانه بالذكر دون غيرهم تشريفًا لهم وتعليةً لقدرهم ورفعة لشأنهم وبيانًا لفضلهم على غيرهم، ويكفي أهل العلم شرفًا وفضلاً أن ذكر جَلَّ وَعَلَا شهادتهم بأن لا إله إلا الله مقرونةً بشهادته وشهادة ملائكته؛ فهذا شرف لأهل العلم وأيما شرف! وفضلٌ يدلّ على رفعة العلماء وعلو مكانتهم.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ والمراد بأولي العلم: أي أولي العلم بدينه وشرعه، وعندما يأتي الثناء على العلماء وأهل العلم في القرآن والسنة المراد به أهل العلم بشرعه ودينه؛ كقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ونظائر هذه الآيات المراد بهم: أهل العلم به وبشرعه وبدينه، وهم المراد بأهل العلم إذا أطلق هذا اللقب؛ عندما يقال: «أهل العلم أو العلماء» المراد به أهل العلم بشرعه ودينه، ومن سواهم ينسبون إلى العلوم الّتي تعلموها، فهو وصفٌ نسبي يُقال: عالم في الطب، عالم في

الهندسة، عالم في الزراعة، عالم في كذا يُنسب إليه، لكن أهل العلم أهل الشرف أهل الفضل أهل الثناء في الكتاب والسنة المراد بهم أهل العلم بالله سبحانه وتعالى وبشرعه وبدينه، وهؤلاء هم الّذين ذكر الله سبحانه وتعالى شهادتهم معليًا من شأنهم وقدرهم قال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهذا بيان لشأنه جل وعز الموحَّد المقصود بالعبادة المفرود بالذل والطَّاعة؛ شأنه جَلَّ وَعَلَا أنه قائم بالقسط؛ أي قائم بالعدل.

فذُكر في الآية التَّوحيد والعدل، فالله جَلَّ وَعَلَا هو الواحد الأحد الفرد الصمد الّذي يُخص بالذل والخضوع والانكسار والطَّاعة وهو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه، وهو جَلَّ وَعَلَا قائم بالقسط؛ أي قائم بالعدل جَلَّ وَعَلَا؛ عدلٌ في شرعه، وعدلٌ في جزائه وقضائه وأحكامه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قال: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ قَائِمًا بِالْقِسْطِ: أي قائمـًا بالعدل وهذه شهادة منه لنفسه جَلَّ وَعَلَا بذلك، شهد لنفسه بذلك أنه لا إله إلا هو، وأنه جَلَّ وَعَلَا قائم بالقسط؛ أي قائم بالعدل.

وقوله ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذان اسمان لله ختمت بهما الآية؛ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، و«العزيز» يدلّ على وصفه بالعزة وعلى أنه القاهر الّذي لا يغلب جَلَّ وَعَلَا، و«الحكيم» أي الّذي له الحكم وله أيضًا الحكمة في أفعاله

وأحكامه وأقضيته سبحانه وتعالى.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا دليل الشهادة، وهو دليل يدلّ على مكانة الشهادة في الدّين وعظم شأنها، وأنها أعظم شهادة لأعظم مشهود به وهو وحدانية الله وتوحيده ووجوب إفراده تبارك وتعالى بالعبادة، وأفادت هذه الآية فضل هذه الشهادة ومكانتها وعظم شأنها في الإسلام.

والله جَلَّ وَعَلَا ذكر أنه يشهد بها وأن الملائكة تشهد بها وأن أولوا العلم يشهدون بها، والشهادة كما بيَّن أهل العلم لا تكون إلا عن علم بالمشهود به واعتقادٍ لذلك وتكلم به وإعلان؛ هذه مراتب أربعة لابد من توافرها في الشهادة لتكون شهادة: العلم، والاعتقاد، والتكلم بهذه الشهادة - النطق بها - والإعلام يُعلِم ويعلن ذلك.

لما ذكر المصنّف رحمه الله تعالى الشهادة ودليلها قال: «**ومعناها**»؛ أراد أن ينبه فيما سيأتي من بيان أن لا إله إلا الله ليست كلمة لا معنى لها أو لفظة لا مدلول لها، بل هي لفظةٌ مشتملّة على أعظم المقاصد وأجل الغايات وأنبل الأهداف على الإطلاق، ليست لفظةً لا معنى لها أو لا مدلول لها، بل هي لفظة مشتملّة على أعظم المعاني وأجل المقاصد وأنبل الغايات.

وإذا عُلم هذا فليُعلم أن شهادة أن لا إله إلا الله لا تكفي من قائلها إلا إذا كان عالمًا بمعناها عارفًا بمدلولها محققًا لما تدعو إليه من

الإخلاص والتَّوحيد، لابد من ذلك؛ لابد فيها من العلم، ولابد من العمل بما تدلّ عليه من التَّوحيد، ولابد أيضـًا من الصدق ليكون من أهلها حقـًا.

أما أن يشهد بأن لا إله إلا الله ولا يدري ما هي هذه الكلمة ولا يدري على أي شيء تدلّ!! أو يشهد أن لا إله إلا الله ويعرف معناها لكنه ينقضها بأعماله بأفعال الشِّرك والكفر! ! أو ينطق بها وليس صادقـًا من قلبه!! هذا كله لا يكفي، لابد من العلم والعمل والصدق، ولهذا قال العلماء في هذه الأمور الثّلاثة والتنبيه على أهميتها في الشهادة قالوا: «بالعلم يخرج من طريقة النصارى، وبالعمل يخرج من طريقة اليهود، وبالصدق يخرج من طريقة المنافقين»؛ فإذا كان من أهل العلم خرج عن طريقة النصارى الّذين يعملون ولا يعلمون، وبالعمل يخرج من طريقة اليهود الّذين يعلمون ولا يعملون، وبالصدق يخرج من طريقة المنافقين الّذين يظهرون ما لا يبطنون، فلابد من العلم، ولابد من العمل، ولابد من الصدق ليكون من شهد بهذه الكلمة من أهلها حقـًا وصدقـًا، ولهذا لابد من معرفة معنى «لا إله إلا الله» وما تدلّ عليه من الإخلاص والتَّوحيد لله جَلَّوَعَلَا وإفراده بجميع أنواع العبادة، ولهذا بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «ومعناها»؛ لأنَّها لا تفيد من نطق بها إلا إذا كان عالمـًا بمعناها.

قال: «**ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ**» هذا هو معنى لا إله إلا الله، وهو تفسير مختصر جامع؛ لا إله إلا الله معناها: لا معبود بحق إلا الله.

قال: لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق لأنَّ معنى الإله في لغة العرب: المعبود، والتأله: التعبد، والمألوه: المعبود، والإله معناه: المعبود، مِن ألَه يأله إلهةً أي: عبد يعبد عبادةً، فهو بمعنى المعبود.

و«الإله» مثل المعبود في أصل دلالته وفي وزنه أيضـًا: ألَه يألَه عبَد يعبُد، عبادةً إلهةً، والتأله: التعبد. فلا إله: أي لا معبود؛ هذا معنى الإله، ولهذا إذا قال قائل: لا إله: أي لا خالق أو لا رازق أو لا منعم هذا لم يفهم معنى لا إله إلا الله؛ لا في مدلولها اللغوي ولا أيضـًا في مدلولها الشرعي.

فالإله لغة: المعبود؛ أي الّذي يُذل له ويخضع ويعبد، وتُصرف له العبادة.

قال: «(**لا إلـٰه إلاّ اللهُ: أي لا معبودَ بحقٍّ** إلا الله)»؛ «بحقٍّ» هذه محذوف مقدر، لأنَّ لا النافية للجنس اسمها إله، وخبرها محذوف مقدر تقديره بحق، ولابد أن يكون هذا هو المقدَّر دون غيره.

فلو أن شخصـًا جعل المحذوف المقدر "موجود"، كأن يقول: "معنى لا إله إلا الله: أي لا إله موجود إلا الله" يكون المعنى فاسداً، لأنَّ الآلهة الموجودة المعبودة بالباطل لا حد لها ولا عد ولا حصر لها، فإذا قدَّر المحذوف بـ: "موجود" يعطي معنى فاسداً مناقضـًا لمدلول لا إله إلا الله، فلابد أن يكون المحذوف المقدر «بحق»، فيكون المعنى: لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله، لأنَّ هناك معبودات كثيرة ولكن بالباطل، ولهذا

إذا أردت دليلاً على تقدير المحذوف بـ «حق» فاقرأه في القرآن في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤] وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فلا إله إلا الله معناها: لا معبود بحق إلا الله، والمعبود: هو الّذي يُخضع له ويُذل، تُصرف له العبادة من دعاء ونذر وذبح إلى غير ذلك من أنواع العبادة الّتي مر معنا شيئًا منها عند المصنّف رحمه الله تعالى.

ثمّ زيادة في البيان والإيضاح قال: «**لا إلٰه**» الّذي هو أول هذه الكلمة «**نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، إلا الله مُثْبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ**» وبهذا تعلم أن لا إله إلا الله قائمة على ركنين: نفي وإثبات؛ نفيٌ عام في أولها وإثبات خاص في آخرها، «لا إلٰه» نفي عام، «إلا الله» إثبات خاص.

فالنفي العام لكل ما يُعبد سوى الله، «لا إلٰه» نفي لكل ما يعبد، نفي لعبادة كل من سوى الله، ولهذا تسمى «لا» هنا: لا التبرئة، لا البراءة؛ فهنا تبرأ وتعلن براءتك نافيًا جميع الآلهة وجميع المعبودات نفيًا عاماً مستثنيًا رب العالمين جَلَّ وَعَلَا «إلا الله» وسيأتي معنا ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ [الشعراء: ٧٨].

فأولها نفي عام، وآخرها إثبات خاص؛ وهذا هو التَّوحيد، لا يكون إلا بالنفي والإثبات، إن نفى ولم يثبت لا يكون موحداً، وإن أثبت ولم ينفِ

لا يكون موحداً، فالتَّوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات. وللتوضيح حتّى نعرف أن التَّوحيد في مدلوله اللغوي وأصل معناه لا يكون إلا بالنفي والإثبات؛ لو قال قائل: "ليس زيدٌ في البيت" نفى دون أن يثبت، أو قال آخر: "زيد في البيت"، أي من اللفظين لا يفيد هذا المعنى – معنى التَّوحيد – لكن لو قال: "ليس في البيت إلا زيد: نفى وأثبت، عرفتَ معنى التَّوحيد أنه لا يوجد في البيت إلا شخص واحد هو زيد.

فبالنفي وحده لا يُستفاد توحيداً، وبالإثبات وحده أيضًا لا يُستفاد توحيداً، فالتَّوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات، ولهذا «لا إله إلا الله» كلمة التَّوحيد توحيد الله جَلَّ وَعَلَا قائمة على ركنين: النفي والإثبات، ولا يكون العبد موحداً إلا بهما؛ فمن نفى ولم يثبت لا يكون موحداً بل يكون ملحداً، ومن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحداً بل يكون مشركًا، «لا إله» ينفي العبودية عن كل من سوى الله، «إلا الله» يثبت العبودية بكل معانيها لله تبارك وتعالى وحده.

ولهذا قال: ««**لا إلـٰه» نافيًا** – أي نافيـًا من شهد بهذه الشهادة ونطق بهذه الكلمة – جميع ما يُعبد من دون الله»«جميع ما يُعبد» يدخل تحت النفي الملائكة، الأنبياء، الأولياء، الأشجار، غير ذلك كل ما عبد أو يُعبد من دون الله يجب أن يكون داخلاً تحت هذا النفي «لا إلـٰه» نافيـًا للعبودية عن كل من سوى الله أيـًا كان مهما علا قدره وعلت مكانته، «لا إله إلا الله»

هذا توحيد لله، ليس مع الله شريك فيه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهم.

«**«لا إلٰه» نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، «إلا الله» مُثْبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ**» مثبتًا العبادة لله وحده، فمن قال «لا إله إلا الله» وذبح لغير الله، أو قال «لا إله إلا الله» واستغاث بغير الله وطلب المدد من غير الله، أو قال «لا إله إلا الله» ونذر لغير الله فلا يكون من أهل «لا إله إلا الله» حتّى ينفي ما نفت ويثبت ما أثبتت فلا يكون من أهلها إلا بذلك.

قال: «**نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، مُثْبِتًا العبادةَ** - بجميع معانيها - **للهِ وحدَه**» ذلاً وخضوعًا وانكساراً ودعاء ورجاء وركوعًا وسجوداً وخوفًا ورغبًا ورهبًا وغير ذلك كله لله، يثبته لله ويصرفه كله لله ولا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكًا في شيء من ذلك.

قال: «**وحدَهُ لا شريكَ لهُ**» وهذه الكلمة «وحدَهُ لا شريكَ لهُ» تأتي كثيراً في التهليلات المأثورة عن نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عقب «لا إله إلا الله»؛ والعلماء يقولون: أن كلمة «وحده لا شريك له» الآتية في الذكر المأثور عن النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي تأكيد لما دلت عليه «لا إله إلا الله» من نفي وإثبات، لأنَّ «لا إله إلا الله» ركنان: نفي وإثبات؛ أكد الإثبات بقوله: «وحده»، وأكد النفي بقوله: «لا شريك له»، فقوله: «وحده لا شريك له» فيه اهتمام بالتَّوحيد وتأكيد عليه بركنيه: النفي والإثبات.

ومن جميل النصح وعظيمه في باب ترسيخ معنى «لا إله إلا الله» وتثبيتها في القلوب المؤمنة ما وجّه إليه نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأرشد إليه وكان يواظب على فعله ألا وهو التهليلات الّتي ثبتت عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أدبار الصلوات الخمس؛ عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ» وَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ»[(١)].

فهذه ثلاث تهليلات كان نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقولها دبر كل صلاة، وأمته وأتباعه بإحسان يقولونها تأسيًا به دبر كل صلاة، خمس مرات في اليوم والليلة بعد أن يسلم المسلم من صلاته يأتي بهذه التهليلات؛ ثلاث مرات يقول: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله »؛ المرة الأولى ويتبعها بقوله « وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »، والمرة الثانية يقول « لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله » ويتبعها بقوله: « وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ »، والمرة الثالثة يقول « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » ويتبعها بقوله « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ».

---

(١) رواه مسلم (٥٩٤).

فلابد أن ننتبه لهذا لأنَّ هذا شيء نكرره يوميًا أدبار الصلوات المكتوبة، وفي هذه المرات الثّلاث هو تثبيت لمعناها، وترسيخ لمدلولها، وإقامة لحقيقتها.

ولهذا أيها الأخ الموفق لو قيل لك: عرِّف «لا إله إلا اله» وأردت أن تعرِّفها بتعريف جامع وشاف وواف من خلال ما أنت تردده يوميًا أدبار الصلوات المكتوبة فتستخلص من هذه الكلمات المضافة إلى «لا إله إلا الله» في هذا التهليل تعريفًا جامعًا.

في المرة الأولى قلت: «وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ».

وفي المرة الثانية: «وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ».

وفي الثالثة قلت: «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ».

فتستخلص من هذا الّذي تكرره كل يوم أدبار الصلوات المكتوبة تعريفًا جامعًا لـ «لا إله إلا الله» من مجموع التهليلات الثّلاث.

«لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» معناها: ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدّين، هذا من أجمع وأحسن ما يكون، وتعريف أخذته من ذكرٍ نبوي يتكرر معك كل يوم، تحفظه وتحافظ عليه ويتكرر عليك يوميًا، ولهذا أنصحك أن تحافظ على هذا المعنى لـ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»، وإذا بليت بمبطل يبعدك عن مدلول «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» فدعك عن باطله وحافظ على هذا التعريف الّذي هو معك كل يوم يتردد على لسانك.

فلم تأتِ هذه الكلمة من فراغ، جاءت من اللغة ومن السنة، وجاءت أيضـًا من القرآن، ولهذا سيأتي عند المصنّف ذكر آيات من القرآن تفسر «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» وتبين معناها؛ مثل قول إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، هذا معنى «لا إله إلا الله» وسيأتي بيانه.

«لا نعبد إلا إياه» نفي وإثبات؛ أي نخلص العبادة لله، «وحده لا شريك له» هذه تأكيد للإثبات وتأكيد للنفي كما سبق بيان ذلك، «مخلصين له الدّين» عرفنا معنى الإخلاص وأن معنى هذه الكلمة أن تكون العبادة صافية نقية لا يُراد بها إلا الله سبحانه وتعالى.

ثمّ هذه الكلمة أو هذه التهليلات أُتبعت بدلائل للتوحيد، يعني ذُكر معنى التَّوحيد وذُكر دلائل للتوحيد:

- في التهليلة الأولى تقول: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » هذه كلها براهين ودلائل للتوحيد، نحن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدّين لأنَّه وحده له الملك، وحده له الحمد، وحده على كل شيء قدير؛ فهذه براهين ودلائل للتوحيد.
- في التهليلة الثانية: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ »؛ هذه أيضـًا براهين للتوحيد.

▪ أيضـًا في الأخيرة قال: ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾، وأيضـًا ثبت أن النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يقول مع هذه الكلمات: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»؛ فعن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب المغيرة إلى معاوية بن أبي سفيان: "أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذَا فَرَغَ مِنَ الصَلاَةِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[1].

وهذه أيضـًا براهين للتوحيد ضُمت إلى كلمة التَّوحيد برهانـًا للتوحيد ودليلاً عليه.

« لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ » أي: ما كتبته يا الله من عطاء لا يمنعه أحد كائنـًا من كان، « وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ » الشيء الّذي تمنعه لا يستطيع أحد أن يعطيه، فالأمر أمرك والمن منك والعطاء عطاؤك، « وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ » أي: صاحب الحظ وصاحب النصيب -لأنَّ الجد: هو الحظ والنصيب- لا ينفعه حظه ونصيبه، « وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ » أي إن كان ذا حظ وذا نصيب في جاهٍ أو في مال أو في رئاسة أو في غير ذلك كل ذلك لا ينفعه ما لم يكن من أهل « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » حقـًا وصدقـًا.

---

(١) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

فينبغي يا إخوان هذا التهليل الّذي يكرر أدبار الصلوات المكتوبة أن نستحضر معه هذا المعنى الجليل، فنحن نردد كل يومٍ أدبار الصلوات المكتوبة هذه الكلمات العظيمة والتهليلات المباركة الّتي ترسِّخ التَّوحيد في قلوبنا وتمكنه في نفوسنا وتكون عونـًا للعبد ليحقق التَّوحيد، أرأيتم لو أن شخصـًا يقول أدبار الصلوات: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ » ثمّ يقول: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ » ثمّ يقول: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »، ثمّ بعد ذلك عرضت له حاجة وأراد أن يسأل إما شفاء من مرض أو يريد ولد أو يريد غنى أو غير ذلك ومد يديه وقال: "مدد يا فلان" فكل الّذي قاله ينهدم وينتقض ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ [النحل: ٩٢].

ولهذا بعض النَّاس لم يتبصَّر في معنى هذه الكلمة ولم يتأمل في مدلولها ولم يوفَّق للاستفادة من عالم أو داعية هدى يبين له ما تدلّ عليه هذه الكلمة من وجوب الإخلاص والتَّوحيد وإفراد الله تبارك وتعالى بأنواع العبادة، وأنَّ «لا إله إلا الله» معناها: لا معبود بحق إلا الله؛ أي لا نركع إلا لله، ولا نسجد إلا لله، ولا نذل ونخضع إلا لله، ولا ندعو ونرجو إلا الله، ولا نخاف إلا من الله، ولا نتوكل إلا على الله، ولا نذبح إلا له، ولا ننذر إلا له؛ هذا معنى «لا إله إلا الله»؛ أن العبادات كلها نثبتها له ونصرفها له وننفيها عمن سواه أيـًا كان ومهما كان.

قال: «لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ»؛ الله جَلَّ وَعَلَا ليس له شريك في الملك ولا في مقدار ذرة، لا شريك له في الملك، تفرد جَلَّ وَعَلَا بملك الأرض والسماوات والجبال والأشجار.

فالجميع ملك الله والجميع خلق الله ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: ٢٢] أيًا كان من يدعى من دون الله لا يملك مثقال ذرة الملك كله لله، تفرد بالملك، تفرد بالخلق، تفرد بالرزق، تفرد بالإنعام، تفرد بالعطاء، فالّذي تفرد في هذا كله يجب أن يُفرد بالعبادة.

وحال كثير من بني آدم عجب؛ يخلقهم الله ويرزقهم الله وهو المتصرف فيهم جَلَّ وَعَلَا ثمّ يتوجهون في حاجاتهم ورغباتهم إلى غيره!!

وإلى عبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا دفعًا، ولا عطاء ولا منعًا، ولا حياة ولا موتًا ولا نشورًا، يتجه إلى عبد من العباد! بل بعض المضلين يخاطب العوام والجهال يقول لهم: (إذا نزلت بكم معضلة اهتف بالشَّيخ فلان، اهتف بسيدي فلان)، اهتف بكذا"، الّذي يقول هذا المضل اهتف به ليس بيده شيء بل الأمر كله بيد الله سبحانه الذي تفرد بالملك والخلق والرزق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾[البقرة: ٢١-٢٢].

وهنا فائدة جليلة في هذا الباب: المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «**لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ**» يعني كما أن الله سبحانه وتعالى تفرد وحده بالملك والخلق والرزق فيجب أن يفرد بالعبادة، وسبق ذكر كلام الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ الّذي أعقبه الآيتين من [سورة البقرة] قال: «ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غَيره»(١).

والمصنّف هنا يقول: «لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ» ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴾ [فاطر: ٣] الجواب: لا؛ إذاً يجب أن يُفرد وحده بالعبادة، لا يُدعى إلا هو، ولا يُخاف إلا منه، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يصرف شيء من العبادة إلا له وحده تبارك وتعالى ولا يصرف شيء من العبادة لأحدٍ سواه.

وأهل العلم يقولون: الّذي يُدعى من دون الله وتُصرف له العبادة من دون الله يستحق العبادة إن توفرت فيه أحد أمور أربعة:

❖ **الأمر الأول**: أن يكون مالكـًا في هذا الكون ولو شيئـًا قليلاً ملكـًا استقلاليـًا؛ أي ملَكَه هو بنفسه دون أن يملكه الله إياه، فهل أحد من المخلوقات يملك ولو شيئـًا قليلاً ملكـًا استقلاليـًا؟ ولو قليل! قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ هذا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٩٤).

الاحتمال الأول بطل، لا يوجد مخلوق يملك ولا مثقال ذرة ملكًا استقلاليًا، بل الّذي يملكه قلّ أو كثر إنّما ملكه بتمليك الله سبحانه وتعالى له ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ هذا الاحتمال الأول بطل.

❖ **احتمال آخر** دون هذا؛ إن لم يكن مالكًا أن يكون شريكًا للمالك في هذا الملك أو في بعضه ولو في شيء قليل؛ فهل لله – تنزه وتقدس – شريك في الملك ولو في شيء قليل؟

الجواب: لا ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ فبطل الاحتمال الثاني: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا إبطال الاحتمال الأول، ثمّ بعده إبطال الاحتمال الثاني قال: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾؛ ﴿وَمَا لَهُمۡ﴾ أي الّذين يُدعون من دون الله ﴿فِيهِمَا﴾ أي السماوات والأرض ﴿مِن شِرۡكٖ﴾ أي مشاركة ولو في شيء يسير.

❖ إن لم يكن مالكًا ولا شريكًا للمالك هناك احتمال ثالث إن وجد استحق أن يُدعى وهو: **أن يكون ظهيرا للمالك** ومعينا له يستعين به ويستشيره، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ فنفى جَلَّ وَعَلَا الاحتمال الثالث؛ ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾؛ ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي الله ﴿مِنۡهُم﴾ أي الّذين يُدعون من دون الله ﴿مِّن ظَهِيرٖ﴾ أي من عوين ومعين ومساعد ووزير

ومشير، نفى ذلك وأبطله.

❖ إذًا لا مالك ولا شريكًا للمالك ولا عوينًا للمالك بقي احتمال رابع إن وجد أيضًا استحق أن يُعبد، فأبطله رب العالمين قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، الاحتمال الرابع هو: **أن يكون يملك الشفاعة عند المالك ابتداءً**، يعني بدون إذن المالك، فهل أحد يشفع عند الله بدون إذن الله؟ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، والشفاعة لا تكون عند الله إلا بإذن الله للشافع، ورضا الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له، وربنا جل وعز لا يرضى إلا عن أهل التَّوحيد، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ »[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِي دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩).

فهذا السياق تأمله في [سورة سبأ] ينفعك الله عَجَلَّ به في باب تقرير التَّوحيد ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ قال بعض العلماء: «هذه الآية قطعت شجرة الشِّرك من أصولها واجتثتها من عروقها، لأنَّها لم تُبقِ لمشرك متعلَّق»، فكل ما يخطر ببال المشرك أنه يتمسك به أبطل في هذه الآية إبطالاً مرتباً؛ لا مالكـًا، ولا شريكـًا للمالك، ولا عويناً للمالك، ولا يملك شفاعة عند المالك؛ إذاً عبادة كل من يُدعى من دون الله باطلة، هي من أبطل الباطل وأشد الضلال وأشنعه ولا يستفيد منها صاحبها إلا الخسران ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرعد: ١٤]؛ هذه نتيجة من يلتجئ إلى غير الله ويدعو غير الله ويصرف أنواع العبادة لغير الله تبارك وتعالى.

بعد ذلك قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وتفسيرُها الّذي يوضِّحُها قولُه تعالى**»

هذا كلام عظيم.

المصنّف يفسر «لا إله إلا الله» بالقرآن، وذكر هنا آيتين من القرآن الكريم فيهما تفسير «لا إله إلا الله»، ولهذا انتبه أخي القارئ لتفسير «لا إله إلا الله» ولمعناها في ضوء الآيتين اللتين ساقهما لك المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومثل هذا الصنيع ما جاء في كتابه المبارك (كتاب التَّوحيد)؛ قال: «بابٌ

تفسير التَّوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله» ثم ذكر تحته أربع آيات وحديث واحد.

وبهذا تدرك متانة علم هذا الرجل وإمامته ونصحه، فـ «لا إله إلا الله» تفسيرها الّذي يوضحها آيات يتلوها عليك من القرآن الكريم.

قال: «**وتفسيرُها الّذي يوضِّحُها قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾**» هذا فيه تفسير «لا إله إلا الله»؛ لأنَّ «لا إله إلا الله» ذكرت هنا بالمعنى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ «لا» قلنا هي «لا التبرئة والبراءة»، ولهذا بدل أن يقول: «لا إله» أتى بمعناها وهو البراءة قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، هذا في الدلالة مثل دلالة «لا إله»، لأنَّ «لا إله» فيها إعلان البراءة، «إلا الله» فيها إثبات التَّوحيد والإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا.

قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي متبرئ من كل ما يُعبد سوى الله، ولهذا استثنى الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثنى ومع الاستثناء ذكر برهانًا للتوحيد قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي إلا الّذي تفرد بإيجادي من العدم وخلقي بعد أن لم أكن؛ هذا وحده الّذي له عبادتي ومن سواه أبرأ منه، لا يستحق من العبادة ولا شيء؛ لا قليل ولا كثير.

﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾؛ أي إلا الّذي فطرني فإنني أخلص العبادة له وأفرده بالعبادة وأوحده ولا أجعل معه شريكـًا.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ أي: جعل كلمة «لا إله إلا الله» باقيةً في نسله وذريته لتكون معتصمـًا ومفزعـًا يفزعون إليها ويعتصمون بها ويحافظون عليها، وهي لمن وفقه الله سبحانه وتعالى وهداه من ذريته، قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾.

ثمّ ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية الثانية قال: «**وقوله تعالى**: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾» هذه أيضـًا الآية توضح معنى «لا إله إلا الله».

قوله: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ والكلمة السواء المقصودة هنا والمعنية في هذا المقام هي كلمة العدل والإنصاف، كلمة الحق، كلمة الهدى: «لا إله إلا الله».

﴿تَعَالَوۡاْ﴾: يعني نادِ أهل الكتاب اليهود والنصارى إلى كلمة عدل، كلمة حق، كلمة هدى وهي «لا إله إلا الله».

﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: كلمة عدلٍ لا نختلف عليها، اتفق عليها جميع الأنبياء عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾[الأنبياء: ٢٥]؛ فهي كلمة متفق عليها بين جميع الأنبياء، فيقول الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه نادِ هؤلاء اليهود والنصارى وقل لهم: تعالوا نجتمع على كلمة سواء كلمة عدل متفق عليها بين جميع الأنبياء لا خلاف بينهم فيها؛ وهي كلمة «لا إله إلا الله».

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لو قال لك قائل: ما معنى «لا إله إلا الله»؟ وقلت: معنى «لا إله إلا الله»: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ قرأت هذا الجزء من الآية؛ فيكون هذا التفسير جامع مانع لا مزيد عليه، نفي وإثبات ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.

ولهذا لاحظ أنت تعيش مع «لا إله إلا الله» وتفسر «لا إله إلا الله» بالقرآن وبالسنة؛ حافظ على هذا التفسير، وإذا جاءتك تفسيرات من هنا أو من هناك دعك من تفسيرات النَّاس وعليك بهذا التفسير الَّذي في كتاب ربك وفي سنة نبيك صلوات الله وسلامه عليه.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لا نصرف شيئًا من العبادة إلا لله؛ الدُّعاء الذبح النذر الاستغاثة الخوف الرجاء، وقد مر معنا قريبًا عند المصنّف الأدلَّة على أن هذه عبادات، فـ«لا إله إلا الله» معناها: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.

فلو أن شخصًا قال: «لا إله إلا الله» ودعا غير الله، استغاث بغير الله، ذبح لغير الله، نذر لغير الله أهو من أهل «لا إله إلا الله»؟ لا، لأنَّ «لا إله إلا الله» معناها: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي لا نجعل معه شريكًا في شيء من العبادة.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ «شَيْئًا» نكرة في سياق النفي فتفيد العموم.

هاتان الآيتان في تفسير «لا إله إلا الله» لكن القرآن فيه آيات كثيرة جدًّا تفسر «لا إله إلا الله»، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في كتابه «التَّوحيد» قدراً طيبًا من هذه الآيات؛ فمن الآيات المفسرة لـ «لا إله إلا الله»: قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وغيرها من الآيات الكريمات المفسرة والمبينة والموضحة لكلمة التَّوحيد «لا إله إلا الله».

قال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله تبارك وتعالى.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «مِنْ دُونِ اللهِ» هذا يشمل كل أحد؛ فالطَّاعة لله تبارك وتعالى، والعبادة والذل والخضوع والانكسار حقٌّ لله لا شركة لأحدٍ فيه لا في قليل ولا في كثير.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني امتنعوا وتولوا وأدبروا ولم يقبلوا منك ذلك ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ ﴿فَقُولُوا﴾ أي أنت وأمتك - أمة محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قولوا لهؤلاء: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون لله تبارك وتعالى التَّوحيد، لا نجعل معه الشِّركاء والأنداد؛ تعالى وتنزه عن ذلك.

إلى هنا يكون المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهى الكلام على «لا إله إلا الله» ذاكراً فضل هذه الكلمة ومعناها ومدلولها وما تدلّ عليه من وجوب إخلاص الدّين لله تبارك وتعالى والبراءة من الشِّرك.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ودليلُ شهادةِ أنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. ومعنى شهادةِ أنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ: طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ.

ودليلُ الصَّلاة، والزَّكاة، وتفسيرُ التَّوحيد قولُه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

ودليلُ الصيامِ قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا

﴿كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[البقرة: ١٨٣].

ودليلُ الحجِّ قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

الشَّرْحُ:

يتكلم المصنّف رحمه الله تعالى ويبين ما يتعلق بشهادة أن محمَّداً رسول الله ﷺ. وشهادة أن محمَّداً رسول الله ﷺ هي قرينٌ لشهادة أن لا إله إلا الله، فالله ﷻ لا يقبل من العباد «لا إله إلا الله» إلا مقرونًا بها «محمَّد رسول الله» ﷺ، فهي قرينة كلمة التَّوحيد.

والله ﷻ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم قرن بين محبة الله ومحبته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وطاعة الله وطاعته، ومعصية الله جَلَّ وَعَلَا ومعصيته، وقرن الشهادة بأن محمَّداً رسول الله ﷺ بالشهادة أن لا إله إلا الله.

و«لا إله إلا الله» دالة على الوحدانية؛ إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالتَّوحيد، و«محمَّداً رسول الله» ﷺ دالة على تجريده ﷺ بالطَّاعة؛ فالعبادة لله جَلَّ وَعَلَا، ولا يُعبد الله جَلَّ وَعَلَا إلا بما شرع وجاء عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا فإن الدّين كله قائم على الشهادتين، وشهادة أن لا إله إلا الله تدلّ على الإخلاص، وشهادة أن محمَّداً رسول الله ﷺ تدلّ على الاتباع، والله جَلَّ وَعَلَا لا يقبل الأعمال إلا إذا كانت خالصة لوجهه موافقة لهدي نبيه ﷺ؛ فمن جاء بالإخلاص دون المتابعة أو بالمتابعة دون

الإخلاص لم يقبل الله تبارك وتعالى منه عمله ولم يقبل منه تعالى طاعته.

فالدّين كله قائم على الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمَّداً رسول الله، ولهذا بدأ النَّبيّ ﷺ بالشهادتين عندما ذكر مباني الإسلام، قال: «بني الإسلام على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله»، وكذلك في حديث جبريل قال: «أخبرني عن الإسلام؟» قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله».

فالشهادة للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرِّسالة هي قرين للشهادة لله تبارك وتعالى بالوحدانية.

ولهذا بعض أهل العلم بهذا الاعتبار وبهذا الملحظ قال: التَّوحيد نوعان: توحيد المرسِل وتوحيد المرسَل.

توحيد المرسِل: وهو الله بأن يفرد جَلَّ وَعَلَا بالعبادة وأن يُخلص الدّين له.

وتوحيد المرسَل: وهو النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن لا يُعبد الله جَلَّ وَعَلَا إلا بما جاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فيكون مدلول الشهادتين: أن لا يُعبد إلا الله، وأن لا يعبد الله جَلَّ وَعَلَا إلا بما شرع وجاء عن النَّبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**ودليلُ شهادةِ أنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ ﷺ**»؛ محمَّد ﷺ هو النَّبيّ الكريم الّذي ختم الله جَلَّ وَعَلَا به النبوات فلا نبي بعده: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ

أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وجاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي**»(١)؛ فبه خُتمت النبوات والرسالات فلا نبي بعده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولا رسول.

وهو ﷺ سيد الأولين والآخرين، سيد ولد آدم أجمعين كما قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أولى بكل مؤمن من نفسه كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ومعنى ذلك: أن تكون محبته مقدمة على محبة النفس وأن تكون طاعته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مقدمة على طاعة النفس، لأنَّه أولى بنفسك منك، وأحرص على نفسك منك؛ فوجب عليك أن تحبه محبةً مقدمةً على محبتك لنفسك، وأن تطيعه طاعةً مقدمة على طاعتك لنفسك، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٣).

ولما قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (٢٢٧٨).

(٣) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

نَفْسِكَ».

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَاللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»(١).

ولهذا وجب على كل مسلم أن يقدم محبة النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على محبته لنفسه، والله جَلَّ وَعَلَا قرن محبة النَّبيّ ﷺ بمحبته: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤]، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢).

والشهادة له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنه رسول الله يأتي تقريرها وبيان معناها عند المصنّف رحمه الله تعالى.

بدأ بذكر الدَّليل قال: «**ودليلُ شهادةِ أنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾**»؛ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ أي: أُرسل إليكم وبُعث إليكم رسولٌ وهو محمَّد ﷺ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

تعرفونه ليس من الملائكة ولا من الجن بل هو بشر مثلكم تعرفون نسبه وتعرفون حسبه وتعرفون خُلقه وأدبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسول من البشر لا من الملائكة ولا من الجن، نشأ بين النَّاس وعاش مثلهم يأكل الطعام ويشرب الشراب مثلهم؛ لكن الله سبحانه وتعالى شرَّفه على البشر بتتميم مقام العبودية وشرَّفه بأن اصطفاه واجتباه وجعله نبيـًا رسولاً وجعله سيد ولد آدم أجمعين؛ ولهذا قال الله في القرآن ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بشر مثله مثل البشر له أم وله أب وحاله كحال البشر لكنه يوحى إليه، فيأتيه الوحي من رب العالمين، بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ وأرسله وجعله سراجـًا منيراً وداعيـًا إلى الله بإذنه وجعله بشيراً ونذيراً.

قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي من صفته ونعته صلوات الله وسلامه عليه أنه يشق عليه الأمر الَّذي فيه مشقة عليكم وعنت، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه صلوات الله وسلامه عليه كل أمر فيه عنت على النَّاس، ولهذا كان دينه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دين السماحة واليسر، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[1].

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٩١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٨٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٢٤).

(١) رواه البخاري (٣٩).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ..»(١)، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رفيقًا حليمًا متواضعًا لينًا ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي حريص على هدايتكم وعلى ما فيه سعادتكم ونجاتكم من النّار ومن سخط الجبار - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وجاهد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الله حق جهاده نصحًا للعباد ورحمة بالخلق ودعوةً إلى الله عَزَّ وَجَلَّ واجتهاداً في إنقاذهم من النّار ومن سخط الله جَلَّ وَعَلَا، يقابل إساءة من أساء إليه بالصفح وعدوان من اعتدى عليه بالعفو، ويلين الجانب ويخفض الجناح، ويناصح النَّاس حرصًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليهم. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على صلاحكم وهدايتكم واستقامتكم ونجاتكم من النّار وسخط الجبار جَلَّ وَعَلَا.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي من صفته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه صاحب رأفة ورحمة بعباد الله المؤمنين.

لما ذكر المصنّف رحمه الله تعالى الدَّليل بيّن معنى الشهادة، وينبغي هنا أن يُعلم أن شهادة أن محمَّداً رسول الله ﷺ ليست نافعةً لقائلها إلا إذا عرف معناها وحقق مقتضاها؛ فبذلك يكون من أهلها، نظير ما سبق معنا

في شهادة أن لا إله إلا الله، وأنها لا تنفع صاحبها إلا إذا عرف مدلولها وحقق ما تقتضيه من الإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا والتَّوحيد والبراءة من الشِّرك، وكذلك الشأن في شهادة أن محمَّداً رسول الله ﷺ؛ لابد من فهم ما دلت عليه من وجوب طاعته ﷺ، ولزوم ما جاء به، وتصديق أخباره، والبعد عن كل ما نهى عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأن لا يُعبد الله جَلَّ وَعَلَا إلا بما جاء عنه ﷺ، أما أن يكون الإنسان ينطقها نطقاً مجرداً دون فهم ولا عمل فإنه بذلك ليس من أهلها، بل لابد من فهم معناها وتحقيق مقتضاها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤] الرسل بُعثوا ليطاعوا، لم يبعثوا فقط ليقال هم رسل وتنتهي القضية عند هذا الحد، أو نحن نصدق بأنه رسول، وكم من كافر آمن بأن النَّبيّ ﷺ مرسَل من الله وصدَّق بذلك لكن لم يجب دعوته إما كبراً أو عناداً أو غير ذلك من الأغراض، فقد يدرك الإنسان أنه رسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مرسَلٌ حقاً من ربه جَلَّ وَعَلَا لكن قد يمتنع من الاستجابة، وقد يعلم أن دينه دين حق ولا يستجيب؛ مثل ما قال عمه أبو طالب(١):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

إذاً طالما أنك علمت لماذا لا تعلن إسلامك واستجابتك وتقبل هذا

(١) انظر: «دلائل النبوة» (٢/ ٦٣)، و«زاد المعاد» (٣/ ٥٥٧)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٥٦)، و«الإصابة» (٧/ ٢٣٥).

الدّين الّذي جاء به؟

فيجيب قائلاً مبينـًا المانع:

لَوْلا الْمَلامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ   لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

يقول: أنا أعرف أن دينه دين حق وأنه رسول من عند الله لكن أخشى الملامة وأخشى سبة قريش لي وأخشى أن يتكلم النّاس فيّ؛ هذا الّذي منعه، ولَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ «أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ».

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ».

فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1].

الشاهد أن في شهادة أن محمَّداً رسول الله ﷺ لابد من الفهم لمعناها، ولابد أيضـًا من تحقيق ما دلت عليه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «**ومعنى شهادةِ أنَّ محمَّدا رسولُ اللهِ ﷺ: طاعتُهُ فيما أَمَرَ،**

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤).

وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ»؛ عَدَّها بيدك أربعة هذه معنى شهادة أن محمَّداً رسول الله ﷺ، ولابد من هذه الأربعة مجتمعة، لابد أن يحققها العبد ليكون فعلاً صادقاً بالشهادة وليكون فعلاً من أهل الشهادة بأن محمَّداً رسول الله ﷺ.

❖ الأمر الأول: «**طاعته فيما أمر**»؛ أمر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأوامر كثيرة، وهذه الأوامر جاءت في القرآن وجاءت في السنة، وأعظم شيء أمر به عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ التَّوحيد، وأعظم شيء نهى عنه الشِّرك بالله، وأمر بالصَّلاة، وأمر بالصيام، وأمر بالحج، أمر بالزَّكاة، أمر ببر الوالدّين إلى غير ذلك من الأوامر الّتي جاءت عنه وجاء بها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في كتاب الله وسنته صلوات الله وسلامه عليه؛ فلابد من طاعته ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] «وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[(١)]، فمثلا جاء في الحديث: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[(٢)]، فيجب أن يطاع عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما يأمر به على قدر الاستطاعة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال: «**طاعتُهُ فيما أَمَرَ**» هذا الأمر الأول.

❖ الأمر الثاني: «**تصديقُهُ فيما أَخْبَرَ**» أخبر بأمور كثيرة؛ أخبر أولاً عن

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (١١١٧).

الله، وذكر أسماء حسنى لله، وذكر صفات عظيمة له سبحانه، وذكر أفعالاً جليلة لله تبارك وتعالى، وذكر الملائكة وذكر أسماء لهم وأخبار وأوصاف وأعمال ووظائف، ذكر اليوم الآخر والجنّة والنّار وما يكون في الدار الآخرة وما يكون في القبر، فذكر أمورا كثيرة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأخبر بها، ذكر أخباراً عن الأولين وذكر أخباراً عن الآخرين وذكر أموراً بين يدي الساعة، وأشياء كثيرة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فلا يكون مؤمناً به إلا من يصدِّقه ﷺ في كل ما يخبر به.

روى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للصحابة حديثاً قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ...»(١)، هذا خبر صح وثبت عن الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما روى الحديث قال: «حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ» فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صادق مصدوق لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فكل ما يخبر به وحي من الله؛ فيجب على من شهد أنه ﷺ رسول الله أن يصدقه في كل ما يخبر به، وأن لا يتردد في شيء من ذلك، وألا يشك في شيء من أخباره، بل كل ما يخبر به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُتلقى باليقين والإيمان

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

والجزم والتصديق ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [الحجرات: ١٥]، فإذا وجد لدى الإنسان شيء من الريب أو الشك فيما يخبر به النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خرج بذلك من شهادة أن محمَّداً رسول الله، لأنَّ من مقتضيات هذه الشهادة أن يصدِّق النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أخباره وأن لا يكذبه في شيء منها ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٣٣] فيصدِّقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

❖ الأمر الثالث: قال «**واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ**»؛ اجتناب: أي البُعد والحذر مما نهى عنه وبيَّن حرمته وذكر عقوبته والوعيد عليه؛ فيجب على من آمن بأنه رسول من عند الله أن يجتنب ما نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، وفي الحديث قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(١).

فقال ﷺ: «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ» ولم يقل (ما استطعتم)، أما في الأمر قال: «وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»، لأنَّ النهي ترك، والترك مستطاع، أما الأمر يحتاج إلى فعل والفعل قد يكون فيه استطاعة عليه وقد يكون ليس عليه استطاعة، مثل لو كان هناك صخرة وقيل للإنسان: احملها، لابد أن يقال: إن استطعت، لأنَّه إن لم يكن عنده

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

استطاعة على حملها لم يقم بحملها، لكن لو قيل له: لا تحملها؛ فلا يقال: إن استطعت، لأنَّ النهي ترك والترك مستطاع، ولهذا قال في الحديث: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[1]، وفي الحج قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ [آل عمران: ٩٧] الحج فريضة لا تجب في العمر كله إلا مرة واحدة ولا تجب إلا على المستطيع ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وغيرها من الأمثلة العديدة.

ولهذا يجب على من شهد أن محمدا رسول الله ﷺ أن يتعرف على الأمور الّتي نهى عنها ليجتنبها، وذلك لأنه إذا لم يتعرف عليها كيف يجتنبها؟ كما قال من قال: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟! »، ولهذا كما أننا مطالبون بمعرفة الأوامر لنفعلها فإننا كذلك مطالبون بمعرفة النواهي لنجتنبها، ولهذا ألف جماعة كبيرة من أهل العلم كتب في النواهي، كتب في المحرمات، كتب في الكبائر، كتب في البدع؛ من أجل أن يعرفها النَّاس ليجتنبوها، ومن لا يعرف الشر ربما وقع فيه، ولهذا كما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق ليفعله ويكون من أهله فإنه أيضـًا مطالب بمعرفة النواهي والمحرمات ليجتنبها وليتقيها وليبتعد عنها وليتوب إلى الله جَلَّ وَعَلَا إن وقع في شيء منها ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) رواه البخاري (١١١٧).

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

❖ والأمر الرابع: «**وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاّ بما شَرَعَ**» أي: ليس بالأهواء والبدع، لا يعبد الله بالأهواء، ولا يعبد الله بالبدع، وليست العبادة أذواق وكل أحد يركب رأسه - كما يقال - ويعبد الله تعالى بما شاء.

فالأهواء والبدع لا تقرب من الله بل تُرد على صاحبها، عَنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنا هَذا ما لَيس مِنهُ فَهو رَدٌّ »[(١)]، وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيهِ أَمرُنا فَهو رَدٌّ »[(٢)].

أي مردود على صاحبه وغير مقبول منه.

ولهذا فإن الطرق الّتي يُدَّعى أنها توصل إلى الله جَلَّ وَعَلَا كلها مسدودة إلا طريق واحد ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ - ثُمَّ قَالَ - هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ »، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٤١٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦)، والدارمي في «سننه»
=

فالسبل كثيرة وكلها توصل إلى النّار وإلى سخط الجبار، وأما الطريق إلى الله سبحانه وتعالى فهو طريق واحد وهو طريق النَّبيّ محمَّد ﷺ، لا يقبل الله ﷻ دينًا سوى الدّين الّذي جاء عنه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فالدّين الّذي يرضاه الله ويقبله من العباد ولا يرضى دينًا سواه هو الدّين الّذي جاء به النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولهذا من مقتضيات الشهادة ولوازمها ألا يُعبد الله إلا بما شرع؛ أي بما جاء عن النَّبيّ الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أما أن يخترع الإنسان أعمالاً أو تخترع له أعمال ثمّ ينشغل بها فهي لا تقربه من الله، ولهذا الطرق المحدثة الّتي أحدثها النَّاس وأنشؤوها وزعموا أنها توصل السائرين فيها إلى الله هي في الحقيقة لا توصلهم إلى الله، لأنه لا يوصل إلى الله تبارك وتعالى إلا طريق محمَّد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فمن أراد لنفسه النجاة والفوز ونيل رضا الله تبارك وتعالى فليلزم نهج النَّبيّ الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وليتمسك بهديه وليعتصم بسنته وليهتد بهداه؛ ولهذا كان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يؤكد على هذا المعنى كثيراً، وكان في كل مرة يخطب النَّاس يوم الجمعة يقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ

---

(٢٠٨)، وحسنه في «مشكاة المصابيح» (٢٧).

مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١)، يحذِّر من الضلالات والبدع والأهواء الّتي تحرف النَّاس عن الجادة السوية وعن صراط الله المستقيم لهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ».

فهذه أمور أربعة؛ من شهد أن محمَّداً ﷺ رسول الله لن يكون من أهلها حقاً وصدقاً إلا إذا كان من أهل هذه الأمور الأربعة.

وإذا تأملت في هذه الأمور الّتي ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتأملت في الشيء الّذي جاء به ﷺ وهو مرسل من الله ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ [آل عمران: ١٦٤] فهو مُرسَل مبعوث، تجده يتلخص في ثلاثة أمور.

فإذا قال الإنسان: أشهد أن محمَّداً رسول الله؛ فليعلم أنه جاء بالأوامر، وبالنواهي، وبالأخبار. فالأوامر تُفعل، والأخبار تُصدق، والنواهي يُنتهى عنها وتجتنب.

ومن أراد أن يعبد الله ويتقرب إليه فليكن تقربه إلى الله بما جاء عن النَّبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا هذا التعريف للشهادة هو أجمع تعريف، ويُنصح كل مسلم أن يحفظ هذا التعريف، ليس فقط يحفظه بل ويحافظ عليه، ويجتهد حياته كلها بأن يحقق ذلك؛ قال: «**طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ،**

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاّ بما شَرَعَ».

ثمّ بعد ذلك انتقل رحمه الله تعالى للكلام على الركنين الآخرين من أركان الإسلام وهما الصَّلاة والزَّكاة فقال: «**ودليلُ الصَّلاة، والزَّكاة، وتفسيرُ التَّوحيد**»؛ لما كان الدَّليل الّذي ساقه دليلاً للصلاة والزَّكاة ومشتملاً على تفسير للتوحيد نبه على ذلك، مع أنه سبق أن أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بعض الآيات الّتي اشتملت على تفسير التَّوحيد، أشار إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف: ٢٦-٢٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ فهذه آية ثالثة تفسر التَّوحيد إضافةً إلى دلالتها على ركنين من أركان الإسلام وهما الصَّلاة والزَّكاة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ودليلُ الصَّلاة، والزَّكاة، وتفسيرُ التَّوحيد قولُه تعالى:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾».

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: ما أمر الله جَلَّ وَعَلَا الكفّار والمشركين إلا بإخلاص الدّين لله وإفراده بالعبادة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أمر المشركين بذلك.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذه الكلمة هي مدلول «لا إله إلا الله» وفيها تفسير لـ «لا إله إلا الله»، لأنَّ «لا إله إلا الله» معناها: أن لا

نعبد إلا الله مخلصين له الدّين.

وقوله: ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ الحنيف عرفنا معناه سابقًا وهو: المائل، وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إمام الحنفاء، والحنيفيّة ملّة إبراهيم؛ وهي أن نعبد الله مخلصين له الدّين.

فقوله: ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ أي: مائلين عن الشِّرك وعن الضلال والباطل إلى التَّوحيد والإخلاص وحسن الإقبال على الله تبارك وتعالى.

﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أُمروا إضافةً إلى التَّوحيد بإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة؛ وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة داخل تحت قوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ لأنَّ الصَّلاة عبادة والزَّكاة عبادة فهما داخلان تحت قوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾، ومع ذلك ذُكرا وخُصا بالذكر تعظيمًا لشأن هاتين العبادتين، وهما أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ.. »[(١)].

وإيتاء الزَّكاة قرينٌ لإقام الصَّلاة في كتاب الله، ففي الغالب كلما يُذكر في القرآن إقام الصَّلاة يذكر معه إيتاء الزَّكاة، فهي قرينة الصَّلاة في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، فتخصيص الصَّلاة والزَّكاة بالذكر هنا مع أنهما داخلتان في عبادة الله اهتمامًا بهاتين العبادتين اللتين هما أعظم أركان الإسلام بعد

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

الشهادتين.

قال: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمر بإقامة الصَّلاة، لم يقل "يصلُّوا"! قال: «وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ»، وإقامة الصَّلاة يتناول المحافظة على شروطها وأركانها وواجباتها كل ذلكم من إقام الصَّلاة المحافظة على أوقاتها. ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يأتوا بالصَّلاة محافظين عليها مؤدين لها مواظبين على ذلك، مؤدين لشروطها وأركانها وضوابطها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقد صح عنه في الحديث أنه قال: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»(١).

والمراد بالصَّلاة هنا: الصَّلاة المفروضة وهي خمس صلوات افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده في اليوم والليلة؛ الفجر: ركعتان، والظهر أربع، والعصر: أربع، والمغرب: ثلاث، والعشاء: أربع ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالله جَلَّ وَعَلَا افترض على عباده وكتب عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، وهذه فريضة مكتوبة على العباد، وهي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين.

ولهذا ينبغي أن تنتبه؛ أعظم شيء تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به بعد التَّوحيد: الصلوات الخمس المكتوبة؛ تقيمها محافظًا على أوقاتها على أركانها على شروطها، وهذه الصَّلاة جُعلت محكًّا وميزانًا، من حافظ عليها كانت عونًا له على المحافظة على غيرها من الطاعات، ومن ضيعها

---

(١) رواه البخاري (٦٣١).

فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمن ضيَّع الصَّلاة، ولهذا قال بعض العلماء المتقدمين: «إذا أردت أن تعرف قدر الإسلام عندك.. فانظر إلى قدر الصَّلاة عندك»؛ فالصَّلاة ميزان، فإذا أردت أن تنظر إلى قدر الإسلام ومكانة الإسلام عندك فانظر إلى مكانة الصَّلاة:

هل أنت من أهلها؟ هل أنت من المحافظين عليها؟ هل أنت من المواظبين عليها؟ ومن ضيع الصَّلاة فهو لما سواها أضيع.

وقد جاء عن النبي ﷺ كما في «المسند»: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»(١)؛ يعني يحشر مع صناديد الكفر وأئمة الباطل.

فالصَّلاة محك وميزان، وهي صلة بين العبد وبين الله تبارك وتعالى، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة لا تأخذ من الإنسان وقتاً طويلاً لكنها بركة على الإنسان في حياته وفي يومه، اقرأ بركة الصَّلاة في الأحاديث عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، واقرأ أيضاً خطورة التهاون في الصَّلاة وتركها:

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٦٥٧٦)، والدارمي في «سننه» (٢٧٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٦٧)، وحسنه ابن باز في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٨).

«الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»(١).

فالصَّلاة محك وميزان.

وإذا نظرت إلى واقع كثير من النَّاس تجده يُغلب على الصَّلاة، والأمور الّتي تغلب على الصَّلاة كثيرة جدًّا، والنَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حذَّر من أن يغلب الإنسان على صلاته قال: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»(٢) كما في حديث الرؤية، فالإنسان يُغلب على صلاته؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يتقي الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الصَّلاة وأن يحرص أن يكون من أهلها ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] يحافظ عليها في المساجد حيث ينادى بهن مع جماعة المسلمين كما أمره الله، محافظًا على الشروط على الأركان على الواجبات، لا يضيع هذه الصَّلاة، يجتهد أن يكون في الصَّلاة من أولها من تكبيرة الإحرام، لا يُغلب على صلاته، لا يغلب على هذه الفريضة، أعظم ما تتقرب إلى الله به الصَّلاة بعد التَّوحيد، إذا ضاعت الصَّلاة ما سواها يضيع، وإذا حوفظ على الصلوات أعانته ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤١٤٣).

(٢) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

فلهذا ينبغي على المسلم أن يعظم الصَّلاة وأن يكون لها في قلبه مكانة ومنزلة، وإذا نودي للصلاة يجيب النداء؛ «**حي على الصَّلاة حي على الفلاح**» يجيب النداء ولا يرده عن الصَّلاة أي شيء، والآن كثير من النَّاس يغلب على صلاته، والله المستعان!

بل بعض النَّاس يغلبه على صلاته فنجان الشاي، يكون أمامه الشاي ويشرب والصَّلاة ينادى لها وتقام ويصلي المسلمون في المساجد وهو مغلوب محروم.

وهناك من يغلبه على الصَّلاة المحرمات؛ يغشى المحرمات ويفعل المعاصي والآثام وينادى للصلاة فلا يجيب، والّذين يدخلون النّار يوم القيامة –نار جهنم– يسألون: لِمَ؟ ﴿قَالُوا۟ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر: ٤٣].

فالشاهد أن الصَّلاة فريضة من فرائض الإسلام، وهي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين، ويجب على المسلم أن يتقي الله جَلَّ وَعَلَا في صلاته، وأن يحافظ عليها في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها كما أمره الله وكما جاء عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ﴿وَيُؤۡتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: ويؤدوا الزَّكاة المفروضة، والزَّكاة المفروضة هو جزء يسير جدًّا من شيء كثير أعطاك إياه الله وتفضل الله سبحانه وتعالى عليك به، وهي مالٌ يؤخذ من الأغنياء وصدقة تؤخذ من الأغنياء وتُرد على الفقراء.

لما بعث الرَّسول معاذاً إلى اليمن قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ..»(١)، فالزَّكاة هي جزء قليل وقدر يسير من المال افترضه الله سبحانه وتعالى على الأغنياء الّذين بلغت أموالهم النصاب، ويُخرج هذا الجزء طيبةً به نفوسهم بنفس طيبةٍ سمحة ويؤدى إلى الفقراء المحتاجين، ويكون بركة للمال، وبركة أيضًا في المزكي نفسه عليه وحياته زكاة له، ولا ينقص من ماله عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ..»(٢)؛ هذه الزَّكاة المفروضة.

قال: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي الّذي أمروا به في هذه الآية ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ﴾ الإشارة هنا إلى ما أمروا به هنا في هذه الآية ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي الدّين القويم المستقيم الواضح البين الموصل إلى رضوان الله تبارك وتعالى وجنات النعيم.

قال: «**ودليلُ الصيامِ قولُه تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾» والصيام: هو

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في شهر رمضان المبارك.

فشهر الصيام هو شهر رمضان؛ افترض الله سبحانه وتعالى على العباد صيامه، وهو شهرٌ يصام في كل سنة، هذه عبادة مفروضة افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده؛ يصومون شهراً في السنة عن الطعام وعن الشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في كل يوم من أيام شهر رمضان المبارك.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: فُرض عليكم الصيام وأوجب عليكم فريضة.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وهذا فيه تنبيه أن من قبلنا أمروا بالصيام، كان الصيام معروفاً في الأمم والرسالات السابقة.

قال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ وهذه ثمّرة عظيمة للصيام؛ وهي أن الصائم يفوز وينال بصيامه تقوى الله، فهو يثمّر نيل تقوى الله جَلَّ وَعَلَا، يعين على كل خير ويحجز عن الرذائل والشرور كما قال نبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ»(١) يستجن به من النّار، ومن سخط الله، ومن المعاصي والآثام.

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ أي لعلكم تفوزون بأدائكم لهذه الطَّاعة وقيامكم بهذه العبادة بالتقوى الّتي هي أساس كل خيرٍ وفلاحٍ وسعادةٍ في الدّنيا والآخرة.

قال: «**ودليلُ الحجِّ**» وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، والحج: هو قصد مكة لأعمالٍ مخصوصة في أوقاتٍ مخصوصة، وهو فريضةٌ على العباد في العمر كله مرةً واحدة، الصَّلاة في اليوم والليلة خمس صلوات، والزَّكاة ليست على كل أحد وإنَّما من يبلغ ماله النصاب إذا حال عليه الحول، والصيام في شهر رمضان في كل سنة شهرٌ واحد، والحج في العمر كله مرة واحدة أيضاً في حق المستطيع ﴿ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾.

وبهذا تعلم أن الدّين دين يسر، لا عنت فيه ولا مشقة، مثل ما مر معنا في الآية الكريمة ﴿ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، بُعث بالحنيفيّة السمحة، قال: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا..»(١).

فهذه فرائض عدها النَّبيّ ﷺ مرة لأحد الأعراب عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ثَائِرَ الرَّأْسِ فَقَالَ يا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ؟

---

(١) رواه البخاري (٣٩).

فَقَالَ: «الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا».

فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟

فَقَالَ: «شَهْرَ رَمَضَانَ، إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا».

فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟

فَقَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ.

قَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لاَ أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلاَ أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ شَيْئًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ»[1].

فقوله ﷺ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ» يعني: إن مسك هذه الفرائض وحافظ عليها دخل الجنّة

فهذه فرائض الإسلام ومبانيه الّتي عليها يبنى، ولهذا ينبغي على المسلم أن يحافظ عليها أشد المحافظة، وأن يرعاها أشد الرعاية، وأن يجاهد نفسه على أن يكون من أهلها إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى، مسك بيده وقال: «لاَ أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلاَ أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ شَيْئًا» يعني تأكيد للمحافظة على هذه الفرائض.

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا بَرَزْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ إِذَا رَاكِبٌ يُوضِعُ نَحْوَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَأَنَّ هَذَا الرَّاكِبَ

---

(١) رواه البخاري (١٨٩١)، ومسلم (١١).

إِيَّاكُمْ يُرِيدُ»، قَالَ: فَانْتَهَى الرَّجُلُ إِلَيْنَا فَسَلَّمَ فَرَدَدْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟».

قَالَ: مِنْ أَهْلِي وَوَلَدِي وَعَشِيرَتِي.

قَالَ: «فَأَيْنَ تُرِيدُ؟»

قَالَ أُرِيدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

قَالَ: «فَقَدْ أَصَبْتَهُ».

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مَا الْإِيمَانُ؟.

قَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ».

قَالَ: قَدْ أَقْرَرْتُ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ بَعِيرَهُ دَخَلَتْ يَدُهُ فِي شَبَكَةِ جُرْذَانٍ فَهَوَى بَعِيرُهُ وَهَوَى الرَّجُلُ فَوَقَعَ عَلَى هَامَتِهِ فَمَاتَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيَّ بِالرَّجُلِ».

قَالَ: فَوَثَبَ إِلَيْهِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَحُذَيْفَةُ فَأَقْعَدَاهُ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ قُبِضَ الرَّجُلُ.

قَالَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا رَأَيْتُمَا إِعْرَاضِي عَنْ الرَّجُلَيْنِ فَإِنِّي رَأَيْتُ مَلَكَيْنِ يَدُسَّانِ فِي فِيهِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَاتَ جَائِعًا ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا وَاللهِ مِنْ الَّذِينَ

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾»[1].

ولهذا ينبغي على المسلم أن يقر بهذه الفرائض حقـًا وصدقـًا وأن يكون من أهلها حقـًا وصدقـًا؛ يقر، يلتزم، يذعن، ينقاد، يحافظ على هذه الفرائض محافظة تامة.

ففي هذا الحديث الرجل أقر، ومن حين أقر مات لم يتمكن من العمل لكن التزم به فكان من أهل الجنّة.

ولهذا ينبغي أن يقر الإنسان بهذه الفرائض وأن يُلزم نفسه بها وأن يحافظ عليها محافظة تامة إلى أن يتوفاه الله سبحانه وتعالى غير مغيِّر ولا مبدل.

قال: «**ودليلُ الحجِّ قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**»؛ وتأمل لهذه الخاتمة الّتي خُتمت بها الآية قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتنبه لهذا؛ الله سبحانه وتعالى غني عن طاعاتك، غني عن حجك، غني عن صيامك، غني عن دعائك، غني عن صلاتك، لا تنفعه جَلَّ وَعَلَا طاعة من أطاع، ولا تضره معصية من عصى ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، جاء

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٩١٧٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٣).

في الحديث القدسي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «صحيح مسلم» أن الله تبارك وتعالى يقول: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»(١)، فهو جَلَّ وَعَلَا غني عن العالمين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]؛ غني عن العباد وغني عن طاعاتهم وعن عباداتهم وعن دعواتهم وعن صلواتهم وعن حجهم وعن صيامهم وعن كل ما يتقربون به إلى ربهم غنيٌّ عن ذلك. والمعاصي الّتي يقارفها العباد ويباشرونها لا تضر الله سبحانه وتعالى شيئًا ولا تُنقص من ملكه شيئًا جَلَّ وَعَلَا. فالّذي يطيع الله ويمتثل أمر الله سبحانه وتعالى طاعته له، والّذي يعصي الله تبارك وتعالى معصيته عليه ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

ولهذا يجب على المسلم أن يأخذ نفسه في هذا الأمر بالحزم والعزم

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

والجد والاجتهاد والمرابطة والمصابرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ويأخذ نفسه بالمجاهدة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفي هذا كله يطلب عون الله وتوفيقه وتسديده وهدايته، لأنَّ الهداية والتوفيق بيد الله تبارك وتعالى، ولا سبيل للقيام بأي من الطاعات إلا بتوفيق الله جَلَّ وَعَلَا؛ فيلجأ دومـًا وأبداً إلى الله يرجو منه التوفيق والعون والتسديد والهداية، ويرجوه العبد ألا يكله إلى نفسه «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»، «اللهم لا تكلني إلا إليك»، يسأل الله دائمـًا وأبداً أن يكون له مؤيداً وموفقـًا ومعينـًا، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله».

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«المرتبةُ الثانية: الإيمانُ؛ وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ لا إلٰه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ. وأركانُهُ سِتَّة: أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَتِهِ، وكتبِهِ، ورُسُلِهِ، واليوم الآخرِ، وتؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ. والدَّليل على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، **ودليلُ القَدَرِ قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩]».

الشرح:

قال المصنّف رحمه الله تعالى: «**المرتبةُ الثانية: الإيمانُ**»؛ المرتبةُ الثانية أي من مراتب الدّين، وقد مر معنا قريبًا أن ديننا ثلاث مراتب وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

ومر معنا أيضًا أن النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد جمع هذه المراتب كلها في حديث جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وذكر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أركان كل مرتبة، وأن الإسلام أركانه خمسة، والإيمان أركانه ستة، والإحسان ركنٌ واحد، وسيأتي بيانه عند المصنّف رحمه الله تعالى، وهنا شرع رحمه الله تعالى في بيان أركان الإيمان الستة.

وأركان الإيمان: أي أصول الإيمان وقواعده الّتي لا يقوم إلا عليها؛ فانتفاؤها أو انتفاء شيء منها محبطٌ للإيمان ومبطلٌ للأعمال، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، وأصول الإيمان أساسٌ يقوم عليها الدّين قال الله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩].

فالإيمان أصوله وأركانه ستة وعليها قيام الإيمان، ولابد من هذه الأصول كاملة، ولابد منها جميعًا؛ فمن آمن ببعض هذه الأصول وكفر ببعضٍ بطل دينه، فهي أصولٌ متلازمةٌ مترابطة لا ينفك بعضها عن البعض الآخر.

فالإيمان ببعضها مستلزم للإيمان بباقيها، والكفر ببعضها كفر بها جميعها.

وهي أصول عظيمة، وهي للدين بمثابة الأصول للأشجار والأسُس للبنيان كما قال الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾؛ هذا مثل ضرب الله جَلَّ وَعَلَا للإيمان، وأن أصول الإيمان كأصول الأشجار لابد أن تكون ثابتة في القلوب مستقرة في النفوس؛ لكي تقوم شجرة الإيمان وأعماله على أساس راسخ وقواعد مستقيمة، وأركان الإيمان ستة سيأتي بيانها عند المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: «**المرتبةُ الثانية : الإيمانُ؛ وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ لا إلٰـه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ**»؛ بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثه عن الإيمان بهذا الحديث، وهو معروف عند أهل العلم بـ«حديث الشُّعب»، وقد أفرده بعض العلماء بمصنفات خاصة في شرح هذا الحديث وبيانه، لأنَّ هذا الحديث جمع الدّين كله.

قال: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ شعبَة**» البضع: ما زاد على الواحد وما دون العشرة؛ «بضعٌ وسبعونَ شعبَة» أي أكثر من سبعين شعبة، والشعبة: هي الطائفة من الشيء، ومن المعلوم أن الطائفة من الشيء تتناول أفراداً، فالإيمان شعبٌ كثيرة، وكل شعبة من هذه الشعب تحتها من الأفراد من خصال الإيمان وما هو داخل فيه أيضاً شيء كثير، فيكون الحديث فيه دلالة على كثرة خصال الإيمان وتعدد شعبه، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن العدد في الحديث لا مفهوم له وأن المراد به التكثير نظير قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[التوبة: ٨٠] العدد لا مفهوم له، لأنَّه لو استغفر لهم مئات المرات لا ينفعهم، لكن هذا العدد السبعين والسبعمئة ونحوه يؤتى به للتضعيف والكثرة، فقوله «الإيمان بضعٌ وسبعونَ شعبَة» عند بعض أهل العلم المراد به أن الإيمان شعبه كثيرة جدًّا، وبعض العلماء قالوا لا؛ العدد له مفهوم والعدد مراد، ولهذا اجتهد بعض العلماء في جمع خصال الإيمان وشعب الإيمان في حدود هذا العدد « بِضْعٌ وَسَبْعُونَ »[1]، وفي رواية للحديث: « بِضْعٌ وَسِتُّونَ »[2]، فبعض العلماء جمع في حدود

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» رواه مسلم (٣٥).

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» رواه البخاري (٩).

هذا العدد المعين عن رسول الله ﷺ.

قال: «**بضعٌ وسبعونَ شعبَة، أعلاها قولُ لا إلـٰه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**»؛ «أعلاها»: أي أعلى شعب الإيمان وأرفعها، «وأدْناها» فيه إشارة إلى أن الإيمان له أعلى وأدنى وأن شعبه ليست بمستوى واحد ولا بمنزلة واحدة بل متفاوتة؛ لها أعلى، وأعلى الإيمان «قولُ لا إلـٰه إلاّ الله»، ولها أدنى، وأدنى الإيمان «إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ»، فإذاً شعب الإيمان متفاوتة.

وإذا نظرت في حال النَّاس مع هذه الشعب هل هم مستوون في القيام بها أم متفاوتون؟

فالجواب: متفاوتون.

ولهذا قال العلماء: الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف بحسب حال الإنسان مع شعب الإيمان؛ فكلما ازداد حظاً ونصيباً من شعب الإيمان زاد إيمانه، وكلما نقص نقص، فالإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأهله فيه ليسوا فيه على رتبة واحدة ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤]، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال: ٢] الإيمان يزيد وينقص؛ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ..»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(٢).

فالإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأهله فيه ليسوا فيه سواء بل متفاوتون، وإذا نظرت إلى شعب الإيمان الكثيرة وأن الإيمان له أعلى وله أدنى، ثمّ نظرت إلى حال النَّاس مع شعب الإيمان وجدتهم متفاوتون؛ فهذا من أبين الأدلَّة على أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف(٣).

قال: «**أعلاها قولُ لا إلٰه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**»

قوله: «أعلاها قولُ لا إلٰـه إلاّ الله» أي أعلى شعب الإيمان؛ وهذا فيه فضل كلمة التَّوحيد«لا إله إلا الله» وأنها أفضل الدّين، وأعلى شعب الإيمان، وأعظم مباني الإسلام، وأساس السعادة، وسبيل الفلاح والفوز في الدّنيا والآخرة، وهي أجل الكلمات وأحسن الحسنات وأعظم القربات، قال

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه مسلم (٤٩).

(٣) انظر: «زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه» (ص٤٩) لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ: «أَمِنْ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» قال: «هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ»(١).

وهي أفضل الكلمات على الإطلاق، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ»(٢).

فهي أعظم الكلمات على الإطلاق؛ ولهذا عدها نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث - حديث الشعب - أعلى شعب الإيمان قال: «أعلاها قول: لا إله إلا الله».

والمراد بقوله: لا إله إلا الله ليس قولها باللسان مجرداً، وأهل العلم يقولون: القول إذا أطلق في الكتاب والسنة يشمل قول القلب ويشمل قول اللسان؛ مثلاً قول الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٣٠]، أما إذا قُيد فهو بحسب ما قيد به ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٨]، ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: ١٦٧] إذا قيد فهو بحسب ما قيد به، أما إذا أطلق القول فإنه يتناول قول القلب

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٤٨٨)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٧٣).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٥٧٢)، والبيهقي في «السنن الصغرى» (١٦٦٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٨٢).

اعتقاداً وقول اللسان نطقًا وتلفظًا.

وعليه فإن قول النَّبيّ ﷺ: «أعلاها» أي أعلى شعب الإيمان «قولُ لا إلٰه إلاّ الله» أي قولها بالقلب عقيدة وباللسان نطقًا وتلفظًا، أما من قالها بلسانه دون اعتقاد لمضمونها بقلبه فليس هذا من الإيمان.

والمنافقون يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله لكن بطرف اللسان، أما القلب فخراب تباب، ولهذا «لا إله إلا الله» قولها لابد أن يكون بالقلب عقيدةً وباللسان نطقًا وتلفظًا.

قال: «**وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**»؛ إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ: أي تنحيته عن الطريق، بحيث إذا رأى المسلم في طريق إخوانه المسلمين أذى يحمله عن طريقهم لئلا يؤذيهم؛ فهذا العمل إيمان -من شعب الإيمان- والحديث صريح الدلالة في دخول الأعمال في الإيمان، وأنها جزء من الإيمان وليست خارجة من مسماه كما يقول أهل البدع.

قال: «وأدْناها» أي أدنى شعب الإيمان «إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ»، فإماطة الأذى عن الطريقِ سماه النَّبيّ ﷺ إيمانًا، وهو عمل يقوم به الإنسان بيده، فهو داخل في الإيمان وجزء منه ويتناوله اسم الإيمان، ولهذا قال العلماء رحمهم الله في تعريف الإيمان: «الإيمان قول واعتقاد وعمل»، ليس الإيمان قول فقط ولا قول واعتقاد فقط بل الإيمان قول واعتقاد وعمل؛ هذه كلها تدخل في الإيمان.

قال: «**وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**» قد يستهين بعض النَّاس بهذا العمل! لكن الحديث يدلّ على شرفه وفضله وعظيم شأنه وأنه شعبة من شعب الإيمان وجزء من الدّين، ولهذا جاء في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ »[(١)].

إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان، وفيه دلالة على ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان من تراحم وتعاطف وتكاتف وسعي في مصالح بعض، وأن مثل هذا جزء من إيمانهم يشكره الله لهم ويثيبهم عليه عظيم الثواب.

والنَّاس في هذه الشعبة – أعني إماطة الأذى عن الطريق – أقسام ثلاثة:

١. قسم يميط الأذى عن الطريق.
٢. وقسم يضع الأذى في الطريق.
٣. وقسم يدع الأذى في الطريق؛ أي لا يميطه.

وخير النَّاس من كان على هذه الشعبة العظيمة، قال: «وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ»، وإذا كان من يميط الأذى عن الطريق يؤجر، فإن من يتعمد وضع الأذى في الطريق يؤزر ويأثم، لأنَّ هذا إيذاء للنَّاس ولا يجوز له أن يؤذي المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ

(١) رواه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨﴾ [الأحزاب: ٥٨] والإيذاء متفاوت.

قال: «**والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَب الإيمانِ**» والحياء خلَّة عظيمة وخصلة مباركة من نُزعت منه فارقه الخير، عَنْ أبي مَسعودٍ البَدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ مِمَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى: إذا لَم تَستَحْيِ، فاصْنَعْ ما شِئْتَ»[١]، فالحياء إذا فارق الإنسان فارقه الخير – والعياذ بالله –، وإذا كان عنده حياء فحياؤه يحجزه، ولهذا قال العلماء: الحياء خصلة كريمة تحجز عن الرذائل وتمنعه من الخسائس وتسوقه إلى الخيرات.

عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ»[٢]؛ فإذا كان الإنسان يستحي فحياؤه يجلب له الخيرات ويحجزه بإذن الله عن المعاصي والشرور والآفات.

ولهذا ينبغي على الإنسان أن ينمِّي الحياء في قلبه ويقوِّيه في نفسه، وأعظم الحياء وأكبره وأجلُّه أن تستحي ممن خلقك جَلَّ وَعَلَا؛ الّذي يراك حين تقوم، يراك أينما تكون لا تخفى عليه منك خافية، يطلع عليك، يرى سرك وعلنك، يعلم ما يخفي صدرك، لا تخفى عليه منك خافية، وهو الّذي أمدك بالسمع وأمدك بالصحة وأمدك بالقوة وأمدك بالجسم وأمدك

(١) رواه البخاري (٣٤٨٤).

(٢) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

بالمال وأمدك بالمسكن، أمدك بكل النعم؛ فأعظم الحياء أن تستحي من الله، عنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ ».

قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»(١)؛ هذه حقيقة الحياء من الله؛ يكون حافظًا لرأسه حافظًا لبطنه، الرأس فيه الحواس فيه السمع، تحفظ بصرك، تحفظ سمعك، تحفظ لسانك، تحفظ بطنك من أن يدخل فيه الحرام، فمن السهل على الإنسان أن يقول: أنا أستحي من الله، هذه الكلمة سهلة على اللسان ولكن ليست العبرة بالدعاوى، ولهذا ينبغي على العبد أن يكون في كل وقت وحين على حياء من الرّب العظيم والخالق الجليل، وإذا دعته نفسه إلى معصية أو إلى حرام أو إلى إثم فعليه أن يستحي من الله، بعض النَّاس يترك المعصية حياء من النَّاس وإذا خلا فعلها ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]. وإذا عمر القلب بالحياء من الله سبحانه وتعالى صلحت الأعمال وزكى العبد بالطاعات

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٣٧).

وأنواع القربات.

قال: «والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَبِ الإيمانِ»؛ الحياء عمل ومكانه القلب وتظهر آثاره على الإنسان، وأشد عباد الله تبارك وتعالى حياءً نبيّنا محمَّد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ونعته بعض الصحابة في ذكر حيائه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا»(١)، والعذراء الّتي في الخدر مضرب المثل في الحياء، (وفي بعض من النَّاس في مثل هذا الزمان العذراء الصغيرة المقبلة على الزواج مضرب المثل في قلة الحياء إلا من رحم الله)، بينما الّتي قاربت الزواج تستحي حتّى من والدها، شديدة الحياء ولا يخطر ببالها أن ترى الرجال أو يراها الرجال من شدة حيائها.

قال: «**والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَبِ الإيمانِ**» هذا فيه أن الحياء إيمان وهو عمل قلبي، فأفاد الحديث أن أعمال القلوب أيضًا داخلة في مسمى الإيمان، أعمال القلوب مثل: الحياء والتوكل والخشية والخوف والرجاء ونحو ذلك هذه أعمال في القلب وهي من الإيمان وداخلة في مسماه؛ ولهذا الإيمان يتناول العقائد والأعمال الّتي تكون في القلب، ويتناول الأقوال الّتي تكون باللسان، ويتناول الأعمال الّتي تكون بالجوارح.

وهذه الشعب للإيمان أشرت أنها ليست على درجة واحدة، ولهذا

(١) رواه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

قسَّمها بعض العلماء إلى أقسام ثلاثة من حيث تأثيرها على الإيمان وجوداً وعدماً، وزيادة ونقصاً؛ فذكروا أنها تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

- قسم إذا ذهب ذهب الإيمان كليةً وأصبح الإنسان كافراً بالله.
- وقسم إذا ذهب ذهب كمال الإيمان الواجب.
- وقسم إذا ذهب ذهب كمال الإيمان المستحب.

فهي تنقسم في تأثيرها على الإيمان إلى أقسام ثلاثة: قسم منها إذا فُقد أو انتفى انتفى الإيمان، وقسم إذا انتفى انتفى الإيمان الواجب، وقسم إذا انتفى انتفى الإيمان المستحب، والواجب على العبد والمطلوب منه أن يجاهد نفسه في تكمل دينه وتتميم إيمانه والمحافظة عليه عقيدةً وقولاً وعملاً.

قال: «**وأركانُهُ سِتَّة**»؛ الإيمان شعب كثيرة كما تقدم في حديث الشعب، لكن هذه الشعب الكثيرة للإيمان تقوم وتنبني على أركان ستة، وهي كما قدمت للإيمان بمثابة الأصول للأشجار والقواعد للبنيان، وهي: «**أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَتِهِ، وكتبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ**»، ثمّ ذكر الدَّليل على هذه الأركان الستة من القرآن قال: «**والدَّليل على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى:** ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، **ودليلُ القَدَرِ قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأركانُهُ سِتَّة: أنْ تؤمنَ بالله**»:

- **هذا الأصل الأول من أصول الإيمان**، وهو أصل أصول الإيمان وأعظمها على الإطلاق، وبقية أصول الإيمان تبع لهذا الأصل، كما قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ هذا دليل على أن هذه الأصول تبع لأصل الأصول وهو الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا.

والإيمان بالله: هو الإيمان بوحدانية الله تعالى في ربوبيته وأسمائه وصفاته وألوهيته؛ ولهذا قال العلماء: أركان الإيمان بالله ثلاثة:

الأول: الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته؛ بأن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله جَلَّ وَعَلَا رب العالمين، لا رب لهم سواه ولا خالق إلا إياه ولا مدبر إلا هو، المتصرف، المعطي المانع، الخافض الرافع، القابض الباسط، الّذي بيده أزمة الأمور.

والركن الثاني للإيمان بالله: الإيمان بوحدانيته في أسمائه وصفاته؛ بأن تثبت لله جَلَّ وَعَلَا الأسماء الحسنى والصِّفات العلى الثابتة في كتابه وسنة رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، وأن تنفي عنه جَلَّ وَعَلَا ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

❖ **والأصل الثاني** من أصول الإيمان: الإيمان بالملائكة؛ ملائكة الله

وهم جند لله خلقهم من نور لا يعصون الله جَلَّ وَعَلَا ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والواجب الإيمان بهذا الخلق وإن لم نرهم، واعتقاد وجودهم، والإيمان بأسمائهم وأوصافهم ووظائفهم؛ نؤمن بذلك كله في ضوء كتاب الله وسنة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فُصِّل.

ومن حيث الجملّة يجب علينا فيما يتعلق بالإيمان بالملائكة أن نؤمن بأربعة أشياء وهي: الأسماء، والأعداد، والأوصاف، والوظائف، فهذه الأربعة إليها يرجع ما يُطلب من العبد الإيمان به تجاه الملائكة؛ فإذا فصِّلت لنا أسماء نؤمن بها؛ جبريل، إسرافيل، ميكائيل... فصلت لنا أعداد نؤمن بها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدثر: ٣٠] هذا عدد نؤمن به.. فصلت لنا أوصاف نؤمن بها يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ»[1].

«أذن لي أن أحدثكم عن أحد الملائكة ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه تخفق فيه الطير سبعمئة سنة» أي أنه لو طار طير من العاتق إلى شحمة الأذن يحتاج إلى سبعمئة سنة طيران إلى أن يصل إلى شحمة الأذن، فهذه الأوصاف نؤمن بها.

الوظائف -وظائف الملائكة -نؤمنبها إجمالاً وتفصيلاً؛ إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل، وأنهم لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

يؤمرون، ويقوم كل ملك بما وكل إليه على التمام والكمال؛ فهذا كله نؤمن به، والإيمان به ركن من أركان الإيمان وأصل من أصول الدّين.

❖ **والركن الثالث**: الإيمان بالكتب؛ أي المنزلة على الرسل، «بالكتب» أي كلها ما علمناه منها وما لا نعلمه، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥] أي بكل كتاب أنزله الله على أي رسول، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٥] فنحن نؤمن بالكتب المنزلة، نؤمن بأنها وحي الله وتنزيله، ونؤمن بأن الّذي تكلم بها هو ربنا جَلَّ وَعَلَا، نؤمن بها بأنها اشتملت على هداية الخلق وبيان الحق وإرشاد النَّاس للخير ونهيهم عن الشر والضلال، ونؤمن بأن من آمن بالكتب وحقق ما جاءت به فهو السعيد، ومن لم يؤمن بها فهو الخاسر، ونؤمن بأن كتب الله جَلَّ وَعَلَا متفقة مؤتلفة ليست مختلفة؛ يؤيد بعضها بعضاً ويشهد بعضها لبعض وكلها تدعو إلى الإيمان بالله والإيمان بوحدانية الله جَلَّ وَعَلَا أنه المعبود بحق وتدعو إلى هذه الأصول العظيمة والأسس المتينة وقد يكون بينها شيء من الفروقات في الشرائع ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ونؤمن بأن الكتب المنزلة ختمت بالقرآن، وكما أن نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاتم النَّبيّين فالقرآن خاتم الكتب المنزلة، وكما أنه لا نبي بعده فلا كتاب منزل بعده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ختمت الكتب بالقرآن الكريم كما أن النبوات ختمت بنبوته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ونؤمن بالقرآن إيمانًا خاصًا؛ فهو كتاب الهداية لهذه الأمة، ولا يجوز العمل بالكتب الّذي قبله لأنَّه نسخها، وهو المهيمن عليها وهو الشاهد لما قبله والمصدق لما بين يديه والنَّاسخ للكتب الّتي قبله، وبعد نزول القرآن لا يُعمل إلا بالقرآن، وبعد بعث محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُتبع إلا محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(1).

نؤمن بالقرآن أنه كتاب هداية ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] نصدق بأخباره ونعمل بأوامره وننتهي عن نواهيه ونهتدي بهداه، وهو كتاب عز للأمة وسعادة ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ٢] أي بل أنزلناه لتسعد ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

❖ **والأصل الرابع**: الإيمان بالرسل الكرام؛ رسل الله جَلَّ وَعَلَا، وهم صفوة الخلق وخيارهم ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فهم صفوة النَّاس اختارهم الله على علم، وهم صفوة عباد الله

(١) رواه مسلم (١٥٣).

وخيارهم؛ بعثهم الله جَلَّ وَعَلَا بالرِّسالة وجعلهم مبشرين ومنذرين، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

نؤمن بالرسل كلهم بدأ من أولهم إلى خاتمهم نبيّنا محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، نؤمن بأنهم رسل الله وأنهم دعاة الحق والهدى، وأنهم قادة الأمة وأئمة الهدى، وأن من اتبعهم وسار على نهجهم سعد في الدّين والآخرة، ومن لم يتبعهم خسر خسرانًا مبينًا، ونؤمن بأنهم ختموا بمحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ونؤمن بأنهم متفاضلون ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وأفضل الأنبياء الرسل، وأفضل الرسل أولو العزم من الرسل وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأفضل أولو العزم من الرسل: محمَّد ﷺ؛ فهو سيد الأولين والآخرين.

والرسل إنَّما بعثوا ليطاعوا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]؛ ولهذا الإيمان بهم: طاعتهم فيما يأمرون، والانتهاء عما عنه ينهون، وتصديقهم فيما يخبرون به؛ هذا معنى الإيمان بالرسل، وهو الركن الرابع من أركان الإيمان.

❖ **الركن الخامس**: الإيمان باليوم الآخر؛ وهو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت، لأنَّ من مات قامت قيامته وبدأت مراحل الدار الآخرة في حقه، ولهذا أول ما يدرج القبر يبدأ النعيم أو العذاب، أول ما يدخل قبره يأتيه ملكان ويجلسانه ويقولان: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟،

اسمهما المنكر والنكير لأنَّهما يأتيان على هيئة منكرة غير معهودة، ويسألان أسئلة محددة.

ولأجل هذا ولأجل النصح في هذا الباب كتب المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأصول الثّلاثة في بيان هذه الأصول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ نصحًا للعباد ومعذرة إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

فالإيمان باليوم الآخر: هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت؛ من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والنفخ في الصور، والبعث والنشور، والقيام لرب العالمين: الحشر، الميزان، الصراط، الجنّة، النّار؛ كل التفاصيل الّتي جاءت في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت؛ والإيمان بها هو من الإيمان باليوم الآخر.

ومن لم يؤمن باليوم الآخر أو شك فيما يكون فيه من بعث أو نشور أو جنة أو نار أو حساب أو غير ذلك فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: ٧]، فالبعث والقيام والجزاء والحساب والصراط والدواوين والميزان والجنّة والنّار كل ذلك حق والإيمان به هو من الإيمان باليوم الآخر وهو ركن من أركان الإيمان.

وكثيراً ما يقرن الله جَلَّ وَعَلَا بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر في آيات، وأيضًا يأتي في السنة «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر»؛ يُقرن بينهما

لأنَّ الله ﷻ هو المقصود، واليوم الآخر هو اليوم الموعود يوم الجزاء والحساب والعقاب، فالمقصود هو الله بالعبادة، ويوم القيامة هو يوم الجزاء والحساب على ذلك(١).

والنَّاس في الإيمان باليوم الآخر على درجتين: درجة الإيمان الجازم، ودرجة الإيمان الراسخ. الإيمان الجازم هي الدرجة الّتي ليس بعدها إلا الشك والكفر، والإيمان الراسخ هو الإيمان المتمكن بالقلب الّذي عُمر القلب به ومليء به وثبت في القلب ثبوتًا ورسخ رسوخًا، وهذا الإيمان الراسخ هو الّذي يؤثر التأثير القوي في العبد صلاحًا في أعماله واستعداداً ليوم لقائه لربه جَلَّ وَعَلَا ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فالعبد أعماله وأموره وطاعاته كلها يلقى الله بها، فإن كان مستحضراً لليوم الآخر زاد في العمل، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الدُّنيا قدِ ارتحلت مدبرةً، وإنَّ الآخرة قدِ ارتحلت مقبلةً، ولكُلٍّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ

---

(١) قال العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: « جمع.. بين ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر..؛ لأنَّ الإيمانَ بالله هو الأساسُ في كلِّ شيء يجب الإيمانُ به، فإنَّ أيَّ شيء يجب الإيمان به تابعٌ للإيمان بالله، وأمَّا الإيمانُ باليوم الآخر ففيه التذكير بالمعَاد والجزاء على الأعمال، إن خيراً فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ» «فتح القوي المتين» (ص ٥٥).

ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل»[(١)].

❖ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وتؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ**»:

وهذا الأصل السادس من أصول الإيمان، أن تؤمن بالقدر خيره وشره، والقدر قدرة الله، القدر هو إيمانك أن الأمور بتقدير الله وتدبيره، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٠]، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ ﴾ [الأعلى: ١-٣]، فالأمور كلها بتقدير الله جَلَّ وَعَلَا؛ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، أحاط علماً بكل شيء ووسعت قدرته كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء.

عن عَبْدِ اللهِ بْن عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ..»[(٢)].

وإن الله سبحانه وتعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢٥٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٦٣٦)، وذكره البخاري في «صحيحه» في ترجمة باب: (الأمل وطوله).

(١) رواه مسلم (٢٦٥٥).

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[(١)].

كل ما يكون في هذا الكون من حركة وسكون وقيام وقعود وذهاب ورواح وكفر وإيمان وطاعة وعصيان كل ذلك كُتب «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ»، وفي القرآن: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠]، فالله ﷻ كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر: ٥٢-٥٣]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

فيجب على العبد أن يؤمن بهذا الأصل ومن لم يؤمن بالقدر فهو كافر، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: « الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن وكذب بالقدر فهو نقض للتوحيد »[(٢)] يعني لا ينتظم التَّوحيد إلا بالإيمان بالقدر، قال: «الإيمان بالقدر نظام التَّوحيد؛ فمن وحد بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده» بمعنى أنه لا يكون مؤمنًا بالله إلا إذا آمن بأقدار الله سبحانه وتعالى، ولما قيل لابن عمر رضي الله عنه عن أقوام «وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة » (٩٢٥)، واللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٢٢٤).

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ..»(١) إلى آخر حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالأعمال كلها لا تقبل؛ الصدقات لا تقبل، الصلوات لا تقبل، الحج لا يقبل إذا لم يؤمن بالقدر، لأن القدر أصل من أصول الإيمان لا يقوم الإيمان إلا عليه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

والعلماء رحمهم الله يقولون: الإيمان بالقدر مراتبه أربعة؛ بمعنى أن من لم يؤمن بهذه المراتب ليس مؤمنًا بالقدر:

- **الأولى**: أن تؤمن إيمانًا جازمًا أن الله أحاط بكل شيء علمًا؛ علم ما كان وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، تؤمن بعلم الله المحيط بالمخلوقات كلها دقيقها وصغيرها سرها وعلنها، أحاط بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عدداً ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، خلْقه للمخلوقات دليل على إحاطة علمه بها ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢] فمن لم يؤمن بعلم الله المحيط ليس مؤمنًا بهذا الأصل العظيم وليس

(١) رواه مسلم (٨).

مؤمنًا بالله.

- **المرتبة الثانية**: الإيمان بالكتابة؛ أن الله عَزَّ وَجَلَّ كتب مقادير الخلائق كلها في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟

قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[1].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[2].

كل مقادير الخلائق كُتبت، فيؤمن بالكتابة بأن كل شيء كتب في اللوح المحفوظ.

- **المرتبة الثالثة**: الإيمان بالمشيئة النافذة وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، نؤمن بأن مشيئة الله نافذة في هذا الكون، وأن قدرته تبارك وتعالى شاملة، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣).

- **المرتبة الرابعة**: الإيمان بأن الله خالق كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]؛ خالق الذوات والأشخاص وخالق الأفعال والحركات والسكنات، فأفعال العباد مخلوقة لله مثل ما أن العباد أنفسهم مخلوقون لله تبارك وتعالى، فالله تبارك وتعالى خالق كل شيء.

هذه مراتب الإيمان بالقدر ومن لم يؤمن بهذه المراتب لا يكون مؤمنًا بالقدر، جمعها أحدهم في بيت فقال:

علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلْقه وهو إيجاد وتكوين

فهذه مراتب الإيمان بالقدر. قال: «**وأن تؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ من الله تعالى**» أي أن الله قدر كل شيء.

جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟

قَالَ «لاَ، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ»(١).

وعَنْ عَلِيٍ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ».

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٨).

قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ: أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟

قَالَ: « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ »، ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)»[١].

جال في أذهان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ سؤال؛ لما علموا هذه الحقيقة سألوا النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ » مادام كل شيء مكتوب لماذا نعمل؟ وفيم العمل؟ هذا السؤال استفهام واستعلام واستيضاح وطلب للحق، وبعض النَّاس سؤاله في هذا المقام للاعتراض والانتقاد، وهذا عين الضلال قال الله تعالى: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] إذا كان الإنسان يسأل ويعترض على الله فهذا عين الضلال والعياذ بالله، أما إذا كان الإنسان يسأل ليستوضح ويتبين ليسير على بينة وعلى هدى فهذا لا بأس به.

فقال ﷺ: « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ »، ذكر أمرين والله لا يسعد الإنسان إلا بهما:

١/ قال: « اعْمَلُوا » وهذا فيه إشارة إلى أن عندك مشيئة تختار بها طريق الحق وطريق الباطل ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: ١٠]، لك مشيئة

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٥).

ومشيئتك تحت مشيئة الله، إذا: «اعْمَلُوا» يعني تحرك ببذل الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية والقربات والبعد عن المحرمات.

٢/ واستعن بالله لأنَّك ميسر لما خلقت له، واطلب العون منه سبحانه وتعالى.

ولهذا سعادتك بالأمرين: أن تجاهد نفسك بالأعمال الصالحة، وفي الوقت نفسه تطلب العون والتوفيق والسداد والهداية والرشاد من الله، لأنَّ الأمر كله بيد الله، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الآخر: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[(١)].

فالواجب على العبد أن يكون مؤمنًا بهذا الأصل العظيم وبهذا الركن المتين، وأن يجاهد نفسه على الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات، وأن يسأل ربه تبارك وتعالى أن يهديه وأن يثبته وأن يعيذه من زيغ القلوب، عن شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟

قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

عَلَى دِينِكَ؟

قَالَكَ « يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ »(١).

ولهذا يجب على العبد أن يكون دائم السؤال لربه أن يثبته ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

لما أنهى المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هذه الأركان الستة للإيمان ذكر دليلها من القرآن قال: «**والدَّليل على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى:** ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾» ذكر في هذه الآية خمسة أركان، ولم يذكر الإيمان بالقدر لأنَّه داخل في الإيمان بالله؛ القدر قدرة الله فهو داخل في الإيمان بالله، ونُص عليه مفرداً في بعض الآيات كالآية الّتي ساقها المصنّف وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾، فهذه أصول الإيمان اجتمعت في الآية.

قال: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ ليس حقيقة البر في التوجه إلى الأمكنة، حقيقة البر في الطواعية لله والامتثال بحيث إذا

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

وجهك لشيء أو أمرك بشيء امتثلت هذه هي حقيقة البر ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ البر طاعة الله وامتثال أمره وتصديق أخباره والإيمان به وبكل ما أمر بالإيمان به؛ هذه هي حقيقة البر.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ فذكر الله تبارك وتعالى أصول الإيمان في هذه الآية مجتمعة، كما أنه جَلَّ وَعَلَا ذكرها مجتمعة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، وجمعها في الآية ما قبل الأخيرة من [سورة البقرة] ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥] خمسة أركان ذكرت في هذه الآية، والإيمان بالقدر داخل في الإيمان بالله تبارك وتعالى، لأنَّ القدر كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القدر قدره الله عزوجل»[1]، والإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا

---

(١) رواه الخلال في السنة (٩٠٤)، وابن بطة في الإبانة (١٨٧٩).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدا؛ وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابها وتقديرها » «شفاء العليل» (١/ ٢٨).

إيمان بعلمه وإيمان بقدرته وإيمان بمشيئته وإيمان بأنه الخالق جَلَّ وَعَلَا، فالإيمان بالقدر داخل في الإيمان بالله تبارك وتعالى.

ثمّ أورد رحمه الله تعالى دليلاً مفرداً للإيمان بالقدر من القرآن وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ أي: كل شيء أوجدناه فهو مقدَّر؛ قدره الله وكتبه سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وبهذا يكون المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهى الكلام على المرتبة الثانية من مراتب الدّين وهي مرتبة الإيمان، فذكر حديث الشعب، وذكر أصول الإيمان وذكر الأدلّة عليها من كتاب الله تبارك وتعالى.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ وهو ركنٌ واحدٌ، وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ، والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] الآية.

الشرح:

قال المصنّف رحمه الله تعالى: «**المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ، وهو ركنٌ**

واحدٌ»؛ «**المرتبةُ الثالثةُ**» أي: من مراتب الدّين، وعرفنا سابقًا أن الدّين ثلاث مراتب وهي: الإسلام والإيمان والإحسان، وهذه المرتبة هي أعلى مراتب الدّين وأرفعها، ثمّ يليها مرتبة الإيمان، ثمّ يليها مرتبة الإسلام، وليس بعد الإسلام إلا الكفر؛ فمرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدّين وأرفعها، فهي مرتبة عليّة ومنزلة رفيعة لا يبلغها كل أحد، وإنَّما يبلغها من يسر الله تبارك وتعالى له ووفقه لبلوغ هذه المرتبة.

والإحسان المراد به: الإجادة والإتقان، وهذه المرتبة - مرتبة الإحسان - المراد بها إيقاع العمل والعبادة على أكمل الوجوه وأحسن الأحوال في الظاهر والباطن والسر والعلن؛ فالمحسنون من عباد الله هم الّذين اتقنوا العبادة بحيث أتوا بها ووقعت منهم كاملة من جميع الوجوه ظاهراً وباطنًا سراً وعلنًا؛ وذلك لعظم مراقبتهم لله سبحانه وتعالى في عبادتهم وتقربهم إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فحالهم في عبادة الله أنهم يعبدون الله كأنهم يرون الله، وهذا فيه أنهم بلغوا الرتبة العلية في المراقبة - مراقبة الله في أعمالهم - بحيث تكون قلوبهم حاضرة وشاهدة، وبعيدة عن الغفلة.

قال: «**وهو ركنٌ واحدٌ**» يعني هذا الركن أو هذه المرتبة - مرتبة الإحسان - ركن واحد.

«**وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**» هذه مرتبة الإحسان؛ أي أتقنوا عملهم وعبادتهم إلى أن صار حالهم في العبادة بهذا

الصلاح «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ»، وهذا وإن كان ركنًا واحداً إلا أن بعض أهل العلم يعدُّه مقامين هي الاستحضار والمراقبة:

- الأول: أن تعبد الله كأنك تراه؛ وهذا أعلى المقامين، أن يكون في عبادته لله سبحانه وتعالى كأنه يرى الله، كأنه ينظر إلى الله جَلَّ وَعَلَا.
- والمقام الثاني وهو دون هذا المقام وهو من الإحسان في قوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»؛ يعني إن لم تبلغ هذه الدرجة أن تعبد الله كأنك تراه فاعبده مستحضراً رؤيته لك وإطلاعه سبحانه وتعالى عليك.

ثمّ أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر الأدلَّة من القرآن الكريم على هذه المرتبة؛ فذكر جملة من الأدلَّة بدأها بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾؛ «اتَّقَوْا»: أي ابتعدوا واجتنبوا كل ما يسخط الله ويغضبه جَلَّ وَعَلَا من المعاصي والذُّنوب، فكانوا من الذُّنوب على حذر، متقين ومبتعدين عن كل أمر يسخط الله جَلَّ وَعَلَا. «وَالَّذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» أي في عبادتهم لله ومراقبتهم له جَلَّ وَعَلَا وإصلاح حالهم في السر والعلن والغيب والشهادة، وأنهم يعبدون الله سبحانه وتعالى عبادة من يراقبُ الله ويخشاه جَلَّ وَعَلَا.

قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾؛ والآية دلت على فضل الإحسان وعلو مقامه من جهة إثبات معية الله الخاصة

للمحسنين، لأنَّ المعية في مقام المدح والثناء يراد بها المعية الخاصة؛ وهي تعني: الحفظ والتأييد والنصر والعون، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، قول النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وقول الله تعالى لموسى وأخيه هارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

فالمعية في مثل هذه الآيات معية خاصة؛ وهي لا تكون إلا لأنبياء الله وعباده المتقين، وهي تقتضي الحفظ والنصر والعون والتأييد، وفي الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[(١)]، معنى: «كُنْتُ سَمْعَهُ..وَبَصَرَهُ..وَيَدَهُ»: أي: أن الله يؤيده في سمعه وفي بصره.. ويكون حافظًا له في حواسّه جَلَّ وَعَلَا.

فهذه الآية فيها دلالة على فضيلة الإحسان، وعظم ثواب المحسنين، وأن الله سبحانه وتعالى معهم حافظًا وناصراً ومعينًا ومؤيداً.

ثمّ ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ الآية الثانية وهي قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ قوله: «وَتَوَكَّلْ»: أي فوض أمورك كلها إلى الله، واعتمد عليه سبحانه وتعالى وحده في جلب النعماء وفي كشف الضر والبلاء؛ فلا تلجأ إلا إليه ولا تعتمد إلا عليه.

قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾ وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان: ٥٨]، وهنا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾.

في الآية الأخرى قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لأنَّ التوكل لجوءٌ واعتماد ولا يكون هذا اللجوء إلا لواحد وهو الحي الّذي لا يموت، أما الحي الّذي يموت، والحي الّذي قد مات، والجماد الّذي لا حياة له أصلاً كل هؤلاء لا يُتوكل عليهم، لا يتوكل إلا على الحي الّذي لا يموت وهو رب العالمين لا شريك له، ومن سوى الله إما حيٌ سيموت أو حيٌ قد مات أو جماد لا حياة له، وكل هذه الأصناف لا يتوكل عليها، التوكل لا يكون إلا على الحي الّذي لا يموت وهو رب العالمين سبحانه. وقد كان نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَيُ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»[1]؛ فهذه فائدة عظيمة في باب التوكل والالتجاء والاعتماد

(١) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٢٧١٧)، واللفظ لمسلم.

والاعتصام لا يكون شيء من ذلك إلا على الحي الّذي لا يموت وهو رب العالمين، أما الحي الّذي يموت والحي الّذي قد مات والجماد الّذي لا حياة له كيف يُتوكل على هؤلاء؟! وكيف يعتمد على هؤلاء؟!

وهنا في هذه الآية قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾ ذكر هذين الاسمين في مقام الأمر بالتوكل عليه وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾؛ وذلك لأنَّ المتوكل إما متوكلٌ في دفع ضراء، أو متوكلٌ في جلب نعماء، فلا يكون توكله في شيءٍ من ذلك إلا على العزيز الرحيم، فالعزيز: هو القاهر الّذي لا يُغلب، فإذا لجأت إليه في كشف ضراء وشدةٍ وبلاء فهو جَلَّ وَعَلَا عزيز قادرٌ لا يغلب، وإذا كان توكل عليه في جلب نعماء فهو جَلَّ وَعَلَا رحيمٌ بعباده يمنُّ ويعطي ويتفضل ويحسن ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾ أي ليكن توكلك على من هذا شأنه؛ الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨﴾ وهذا موضع الشاهد من الآية لمرتبة الإحسان «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾ أي الّذي ينظر إليك ويطّلع عليك ولا تخفى عليه منك خافية، ﴿يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ حين تقوم لله خاشعاً خاضعاً مناجياً سائلاً راغباً طامعاً؛ يراك جَلَّ وَعَلَا من فوق سبع سماوات، ويرى جميع المخلوقات وجميع الكائنات، لا يفوته شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا

يغيب عنه شيء، يرى جميع الكائنات، يرى سبحانه وتعالى دبيب النملّة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى جريان الدم في عروقها ويرى كل جزء من أجزائها؛ وهذا فيه دعوة للعبد أن يعبد الله سبحانه وتعالى مستشعراً رؤية الله له ومحضراً ذلك في قلبه، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨﴾ فعندما تقوم تصلي فاعلم أن الله يراك؛ حال قيامك، حال سجودك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ تركع وتسجد وتركع وتسجد هذا التقلب يراك الله جَلَّ وَعَلَا على هذه الأحوال كلها؛ وهذا فيه دعوة لاستحضار هذا الأمر في القيام والركوع والسجود بحيث يكون العبد في صلاته وعبادته يعبد الله كأنه يرى الله، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ السميع للأصوات، وسع تبارك وتعالى سمعه الأصوات كلها، لو قام الأولون والآخرون من زمن آدم من الإنس والجن في صعيدٍ واحد ودعوا في لحظةٍ واحدة، وكلٌ يذكر حاجته، وكلٌ يتكلم بلغته ولهجته، لسمعهم رب العالمين أجمعين دون أن يختلط عليه صوتٌ بصوت أو حاجةٌ بحاجة أو لغةٌ بلغة، قال جَلَّ وَعَلَا في الحديث القدسي وهو في «صحيح مسلم»: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ

أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»(١) أي في البحر.

جاءت امرأة إلى النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في بيته تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله، وذلك عندما ظاهرها زوجها: فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ تَشْكُو زَوْجَهَا وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [سورة المجادلة](٢).

قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ أي بعلمٍ واسع ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٧]، أحاط بجميع الأمور وأحاط بجميع الأشياء، أحاط جَلَّ وَعَلَا بكل شيءٍ علماً وأحصى كل شيء عدداً، علم جَلَّ وَعَلَا ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ليس فقط ما سيكون! بل الأشياء الّتي لا تكون علم الله سبحانه وتعالى أمرها لو كانت كيف تكون، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] هذا أمرٌ لا يكون، الكفّار يوم القيامة لا يردون إلى الدّنيا مرةً ثانية: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ولا يردون إلى الدّنيا مرة ثانية فهذا شيءٌ لا يكون،

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» معلقا (٧٣٨٥)، والنسائي (٣٤٧٣)، وابن ماجه (١٨٨).

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾؛ يعني لو أعادهم جَلَّ وَعَلَا إلى الدّنيا مرة ثانية لعادوا إلى الشِّرك والكفر ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، أمرٌ لا يكون لكن رب العالمين علم جَلَّ وَعَلَا لو كان هذا الأمر علم كيف يكون، فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، أحاط بكل شيء علماً.

قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ هنا تستشعر أثر معرفة العبد أسماء الله وصفاته في تحقيق العبادة وتكميلها؛ فإذا استحضر العبد أن الله سميع وأنه بصير وأنه عليم، وهذه الأمور الثّلاثة ذكرت في الآية - البصير، السميع، العليم - البصير في قوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾، والسميع العليم خُتمت بهما الآية، فاستحضار هذه الأسماء وما تدلّ عليه من الصِّفات: البصير، السميع، العليم، استحضار العبد لها في صلاته يرفعه في صلاته إلى درجة الإحسان في عبادته وتقربه إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وإذا ذهب عنه استحضار هذه الأسماء استولت عليه الغفلة سواء في صلاته أو في غيرها من العبادات.

قال: «**وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾**» وهذه فيها معنى الآية السابقة؛ يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أي في أيِّ شأن من شؤونك وأمرٍ من أمورك وحالٍ من أحوالك، ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي ما تتلوا شيئاً من هذا الكتاب في أي وقتٍ وفي أي ساعةٍ وفي أي لحظة

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي لا تدخلون في أي عمل من الأعمال ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تدخلون وتشرعون فيه، فالله سبحانه وتعالى شهيدٌ؛ لا يدخل العبد في عمل ولا يشرع في طاعة ولا في أي شأنٍ من الشؤون ولا حال من الأحوال إلا والله جَلَّ وَعَلَا على كل شيءٍ شهيد جَلَّ وَعَلَا؛ أي مطلع لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية.

فهذه الآيات تأملها والوقوف عند مضامينها ودلالاتها يعين العبد بإذن الله تبارك وتعالى للترقي لبلوغ الإحسان في عبادته والإتقان في طاعته وتقربه إلى الله سبحانه وتعالى.

ولما أنهى المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مراتب الدّين الثّلاثة وذكر أركان كلِّ مرتبة وذكر الدَّليل على ذلك كله من القرآن، ختم ذلك بذكر حديث جبريل المشهور الّذي جمع فيه النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مراتب الدّين كلها.

قال:

والدَّليل مِنَ السُّنَّة حديثُ جبريل المشهور عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جُلوسٌ عند رسولِ الله ﷺ ذات يوم، إذا طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب شديدُ سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد، حتّى جلس إلى النَّبيّ ﷺ فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه، وقال: يا محمَّد أَخْبِرْنِي عَنِ الإسلام. فقال رسولُ الله ﷺ: «الإِسْلاَمُ أن تَشْهَدَ أَن لا إلَهَ إلاَّ الله وَأَنَّ محمَّدا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَّلاة،

وَتُؤْتِيَ الزَّكاة، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا»، قال: صَدَقْتَ. فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقُه! قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرْ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاكْ». قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة؟ قال: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قال: «أَنْ تَلِدَ الأمة رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قال: فَمَضَى فَلَبِثنا مَلِيّا، فقال: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ «قلت: الله ورسوله أعلَم، قال: «هذا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِمُكُمْ أمر دِينكُمْ».

الشرح:

أورد رحمه الله تعالى هنا هذا الحديث العظيم المشهور بـ«حديث جبريل»؛ وذلك لأنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أفضل الملائكة وهو الملك الّذي ينزل بالوحي إلى النَّبيّ ﷺ الروح الأمين جاء إلى النَّبيّ ﷺ في هذه المرة بصورة أعرابيّ - بصورة رجل - فجلس إلى النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه الجلسة وسأله هذه الأسئلة؛ ولهذا اشتُهر هذا الحديث بـ«حديث جبريل»؛ لأنَّه جاء إلى النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بتلك الصورة وجاء معلماً، وإن كان هو في الحقيقة سائلاً لكنه سائل في صورة متعلم.

ولهذا أخذ أهل العلم من هذا فائدة في باب الأسئلة ألا وهي: أن

السائل أحيانـًا يستطيع أن يكون معلمـًا للنَّاس، مثل أن يكون في المجلس عالم ويحس أحد الحاضرين بمسألة يحتاج الجميع أن تُبين لهم أو مسائل؛ فيطرحها وهو يعرف الجواب ولكن يريد أن يستفيد الجميع، فيكون في الحقيقة سائل، لكن في الواقع معلم يريد أن يتعلم النَّاس، وله أجره على إحسانه وحرصه.

بينما بعض المجالس قد يأتي فيها العالم الّذي يستفاد منه فيضيعها بعض النَّاس، دون استفادة، أو بأسئلةٍ لا يكون من ورائها طائل أو لا تفيد الحاضرين.

فالسؤال أمرٌ يحتاج إلى حسن نية وحسن قصد في طلب الفائدة وصدق مع الله تبارك وتعالى في الرغبة، مثل قول وفد عبد القيس للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: « فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ »[(١)] وهذا يبين متى يكون السؤال صالحـًا حسنـًا، فإذا كان السائل يقصد بسؤاله أن يدخل الجنّة بمعرفة الخير والعلم ويخبر الآخرين لينتشر الخير والعلم بين الناس.

فالشاهد أن هذا الحديث فيه فائدة عظيمة في هذا الجانب.

قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « **بينما نحن جُلوسٌ عند رسولِ الله ﷺ، إذا طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب، شديد سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أَثَرُ السَّفر، ولا**

(١) رواه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

يعرفه مِنَّا أحد»؛ هذا الأمر بهذه الصفة في زمنهم ووقتهم يعدُّ أمراً في غاية الغرابة، أما في زماننا ليس أمراً مستغربـًا، في زماننا قد يأتيك الرجل من أقصى الدّنيا ولا ترى عليه أثر السفر، لا ترى عليه وهج الصحراء ولا لفح الرياح ولا الشمس ولا ترى عليه أثر التراب والغبار، ما ترى عليه شيئـًا من ذلك، بينما في وقتهم المسافر يُعرف أنه شخص جاء مسافراً؛ لأنَّ الغبار يملأ الجسم، والشمس أثرت فيه، والرياح أيضـًا أثرت فيُعرف أن هذا الشخص مسافر.

فجاءهم شخص شديد بياض الثياب وشديد سواد الشعر؛ المسافر لا يمكن أن يأتي في وقتهم بمثل هذه الهيئة، قال: « لا يُرى عليه أَثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد »؛ غريب جدًّا لا يرى عليه أثر السفر، أي علامة من علامات السفر المعهودة لا ترى عليه، وأيضـًا لا يعرفه أحد منهم.

وهنا إخواني في الله يحسن بنا أن نذكر نعمة من نعم الله علينا وهي وسائل النقل الحديثة الّتي يسرها الله جَلَّ وَعَلَا في هذا الزمان، وإذا تأملت في هذه الوسائل مقارنـًا بالوسائل القديمة تجد أن الحاج والمعتمر - مثلا - لا يصل من بعض البلدان البعيدة إلا بعد الشهر أوالشهرين في معاناة وشدة، وأهله يودعونه توديع من لا يعود، فيه مخاطر ومخاوف ومهالك وأخطار متعددة، وأما الآن يركب في مركبٍ مريح وأجواءٍ مكيفة يمر بالعواصف والرياح ولا يشعر بها ولا يدري عنها إلى أن يصل المكان

الّذي يريد، وفي الطريق كلما أراد أن يكلم أهله كلمهم، وكلما أرادوا أن يكلموه يكلمونه، (وصلنا إلى هنا، أتينا إلى هنا، أنا بخير أنا بعافية)، بينما قديمـًا يغيب الشهر والشهرين والثّلاثة ولا يدري أهله هل هو حيٌّ أو ميت إلا إذا فاجأهم راجعـًا.

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه، وأن يحرص على استعمال هذه النعم والوسائل في طاعة الله وفيما يقرب من الله سبحانه وتعالى.

ومثال آخر فيما أنعمه الله علينا (الجوال) يحمل في الجيب وهو نعمة عظيمة يطمئن على أهله ويطمئنون عليه، ومع ذلك بعض الّذين يحملون الجوالات ما يتقون الله في مساجد المسلمين، ولا يراعون حرمة المساجد الّتي هي أحب الأماكن إلى الله، ولا يراعون حرمة الصَّلاة ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج: ٣٢]، ولا يرعون للمؤمن مكانته والمصلي صلاته وخشوعه؛ ولهذا ترى دائمـًا في مساجد المسلمين النَّاس يصلون ثمّ تضرب الموسيقى هنا وهناك داخل المساجد!

فهل هذا فعل من يتقي الله ويخاف الله جَلَّ وَعَلَا ويراقب الله؟!

تُضرب الموسيقى والمعازف المحرمة في مساجد المسلمين؟!

المسلمون في صلاتهم سجّد وركّع ثمّ تضرب الموسيقى!

وتستمر تضرب في إيذاءٍ شديد وتفويتٍ للطاعة والعبادة والخشوع

وأذيةٍ لعباد الله تبارك وتعالى في صلاتهم، فهل هؤلاء قدروا نعمة الله حق قدرها؟

قل مثل هذا أيضـًا في وسائل النقل يكرم الله سبحانه وتعالى عبده بسيارةٍ جيدة يتنقل بها، ثمّ يمشي فيها إلى المحرمات! ويستمع فيها للمحرمات! فهل رعى لنعمة الله حقها؟ قال: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [النمل: ١٩].

فينبغي للعبد أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه، وأن يشكره سبحانه عليها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧]، وأن يحرص على استعمال النّعمة في طاعة الله؛ فهذا من شكرها ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فمِن شكر الله على النّعمة أن تستعمل في طاعة الله، فإن استعملت في المعصية فإنها لم تشكر.

قال: «**حتّى جلس إلى النّبيّ ﷺ فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه**» أي جلس جلسةَ أدبٍ ووقارٍ واحترام بين يدي الرَّسول الكريم ﷺ.

«**وقال: يا محمَّد أَخْبِرْنِي عَنِ الإسلام، قال: أن تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ محمَّدا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَّلاة، وَتُؤْتِيَ الزَّكاة، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا**» فذكر مباني الإسلام الخمسة وقد تقدمت معنا وتقدم أيضـًا شيءٌ من الكلام على مضامينها ومعانيها.

فقال الرجل السائل الّذي هو جبريل قال: «**صَدَقْتَ؛ فعجبنا له يسألُهُ ويُصَدِّقُه!**» هذا أيضـًا أمرٌ عجيب؛ تعجَّبوا من الأمر الأول وتعجَّبوا هنا من هذا الأمر؛ يسأل ويصدِّق، والّذي يصدق من هو؟ الأعلم، الّذي يصدق الأعلم، ولهذا جاء في بعض الروايات: «كَأَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُ»[(١)]، ثم قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقُه!» يجيب النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على سؤاله ويقول: صدقت، فتعجب الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ من ذلك لأَنَّ هذه تدلّ على علم عند هذا السائل، أما من لا علم له لا يستطيع أن يحكم أو يقول مثل هذا.

«**قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرْ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قال: صدقت**» وهذه أركان الإيمان الستة ومضى أيضـًا الكلام على معانيها.

«**قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاكْ**» ذكر هنا الإحسان وأن له ركن واحد وهو: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاك»، وقد مضى أيضـًا الكلام على هذه المرتبة.

ويكون بهذا ذُكر في الحديث المراتب الثّلاثة للدين؛ الإسلام ثمّ الإيمان ثمّ الإحسان، وأعلى هذه المراتب الإحسان وهي أعلى مراتب الدّين وأرفعها، ومن كان محسنـًا فهو مؤمنٌ مسلم، ومن كان مؤمنـًا فهو

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٦٩٥١)، والطيالسي في «مسنده» (٢١).

مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا ولا كل مؤمن محسنًا؛ فهذه درجات متفاوتة تُعرف من خلال هذا الحديث العظيم.

وهذه الأمور الثّلاثة - الإسلام والإيمان والإحسان - هي ديننا؛ ولهذا ختم النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الحديث بقوله: «**هذا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِمُكُمْ دِينَكُمْ**» هذا ديننا؛ ديننا مراتبُ ثلاث: إسلامٌ وإيمانٌ وإحسان.

«قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة»، وفي رواية «مَتَى السَّاعَةُ؟»[(١)] أي: عن وقتها.

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» أي علم الساعة ليس عندي ولا عندك وإنَّما عند الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فالساعة علمها عند رب العالمين، ولا يعلم قيامها إلا هو جَلَّ وَعَلَا، علمها عند الله.

قال: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» بهذا أجاب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي «الصحيحين» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا، قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟».

قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»(١)؛ وهذا فيه أن السائل إذا سأل في أمر لا يعنيه أو لا يحسن به أن يسأل عنه فالمناسب أن يوجَّه إلى السؤال المناسب، فإذا قال: متى الساعة؟ يوجه إلى السؤال المناسب وهو الاستعداد للساعة هذا هو المهم، وهو الاستعداد، الساعة آتية لا ريب فيها، قادمة لا محالة، فليس المهم أن تعرف متى الساعة المهم أن تستعد لها.

وبعضهم يضرب مثالاً لهذا تقريبياً للتوضيح يقول: لو كان أناس في بلدة وأقبل عليهم عدو يريد مداهمة البلد الّذي هم فيه، وجاءهم رجل قال: العدو قادم عليكم؛ فانقسموا فريقين فريق أخذ يستعد ويتهيأ ويتجهز للملاقاة، والآخرين جلسوا بدون عمل؛ متى يصل؟ كم المسافة؟ كم باقي؟ بدون عمل! فالسؤال الصحيح في مثل هذا المقام هو الاستعداد، سواء أن تأتي الساعة غداً أو بعد غدٍ أو بعد سنة أو أقل أو أكثر المهم هو الاستعداد والتهيؤ، أن يستعد ويتهيأ، قال: « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»، فأجابه: « حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ» قال ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»، قال الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه راوي الحديث: «فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ »، قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ »: وهذا

---

(١) رواه البخاري (٥٩)، ومسلم (٢٦٣٩).

فيه فضيلة حب أنبياء الله وعباد الله والصحابة الكرام وأنه يبلغ بالإنسان مبلغًا عظيمًا في الرفعة والخير ورضا الله سبحانه وتعالى عنه،

قال: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا**» الأمارات: العلامات، أمارة: أي علامة، أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا: أي أخبرني عن علاماتها وأشراطها، فما هي العلامات - علامات الساعة -؟

قال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنْ تَلِدَ الأمة رَبَّتَهَا**»: «فُسِّر بأنَّه إشارة إلى كثرة الفتوحات وكثرة السبي، وأن من المسْبيات مَن يطؤها سيِّدُها فتلد له، فتكون أمَّ ولد، ويكون ولدها بمنزلة سيِّدها، وفسِّر بتغير الأحوال وحصول العقوق من الأولاد لآبائهم وأمَّهاتهم وتسلُّطهم عليهم، حتى يكون الأولاد كأنَّهم سادة لآبائهم وأمَّهاتهم»[1].

قال: «وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ» الحفاة: الّذي ليس عندهم نعال للفقر والعوز والحاجة، والعراة: يعني ليس عندهم لباس، أو يكون عندهم لباس لا يكفي ولا يستر ولا يفي من شدة الفقر.

«وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ» أي الفقراء «رِعاءَ الشَّاءِ» يعني الواحد منهم ليس معه إلا قليل من الأغنام يرعاها ويقتات هو وأهله وولده، أغنام قليلة عند هذا الّذي يملك.

«أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» أي

(١) «فتح القوي المتين» (ص٢٥).

يتنافسون أيهم أطول بناءً من الآخر، هذا يبني أدوارا وهذا يأتي بجنبه ويبني أعلى والآخر يبني أعلى، فيتنافسون من الأطول والأرفع بناءً.

قال: «**فَمَضَى**» أي ذهب، هذا الرجل الغريب ذهب.

«**فَلَبِثنا مَليا**» أي بقينا زمنـًا ووقتـًا، وجاء في بعض الروايات أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: « «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا »[1] أي: بحثوا عنه فلم يجدوا له أثر.

قال: «**فَلَبِثنا مَلِيّا، فقال: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ**؟ أي: هل تدري من هذا الرجل الّذي جاء وجلس وسأل تلك السؤالات؟

(**قلت: الله ورسوله أعلَم، قال:** «**هذا جِبْرِيلُ**» أي: السائل هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

«**هذا جِبْرِيلُ أَتَاكُمُ يُعَلِمُكُمْ أمر دِينكُمْ**» جاء يعلمكم الدّين، فهذا الحديث لتعليم الدّين وقد جُمع فيه بمراتبه وذكرت الأركان لكل مرتبة وبينت أحسن بيان.

ثمّ بعد ذلك دخل المصنّف رحمه الله تعالى في بيان الأصل الثالث في معرفة النَّبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

«الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمَّد ﷺ؛ وهو محمَّد بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمُ مِنْ قريشٍ، وقريشٌ مِنَ العربِ، والعربُ مِنْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليْهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصَّلاة والسّلامِ، وله مِنَ العُمْرِ ثلاثٌ وسِتُّونَ سنةً؛ منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ، وثلاثٌ وعشرون نبيّا ورسولا، نُبِّئَ بـ «اقرأ» وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»، وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة، بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّرك، ويدعُو إلى التَّوحيد، والدَّليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر: ١-٧] ومعنى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾: يُنْذِرُ عنِ الشِّرك ويدعُو إلى التَّوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّرك، ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾ الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها. أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التَّوحيد، وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السَّماء وفُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمسُ، وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ، وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ».

الشرح:

قال المؤلف رحمه الله تعالى: «الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمَّد ﷺ»؛ هذا الأصل الثالث من أصول الإيمان، وعرفنا أن أصول الإيمان ثلاثة: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمَّد ﷺ.

وهذا الأصل له أهمية عظمى ومكانة عليا؛ لأنَّ معرفة العبد لله ومعرفة العبد بدين الله جَلَّ وَعَلَا لا تكون ولا تتم ولا تتهيأ إلا من طريق الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا من لم يعرف الرَّسول ﷺ لا يعرف الله ولا يعرف دينه، لأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واسطةٌ بين الله جَلَّ وَعَلَا وبين عباده في إبلاغ دينه، وهكذا كل الرسل وسائط بين الله وبين العباد في إبلاغ الدّين؛ يتنزل عليهم الوحي من الله جَلَّ وَعَلَا ويبلغون، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور: ٥٤]، فالرسل واسطة في بلاغ الدّين، لأنَّ من حكمة الله جَلَّ وَعَلَا أنه لما خلق الخلق ليعبدوه اقتضت أن لا ينزل الوحي على النَّاس أجمعين، وإنَّما اقتضت أن يصطفي جَلَّ وَعَلَا من النَّاس رسلاً ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]؛ فهو جَلَّ وَعَلَا يصطفي من النَّاس صفوتهم وخيارهم ليكونوا رسلاً بينه وبين عباده في إبلاغ دينه يبلغون دين الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧] مهمتهم هذه البلاغ إبلاغ دين الله؛ ومهمة المرسَل: هو من يقوم بإبلاغ ما أرسله به مرسِله.

فالرسل يبلغون دين الله وهم واسطة بين الله جَلَّ وَعَلَا وبين العباد في إبلاغ الدّين، ولهذا ليس هناك سبيل لمعرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأوامره ونواهيه ومعرفة دينه وشرعه إلا من طريق الرسل، والرسل سبيلهم في هذه المعرفة الوحي، قال الله ﷻ لرسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فيُنزل الله سبحانه وتعالى وحيه على أنبيائه ورسله ثمّ هم يبلغون وحي الله وتنزيله إلى النَّاس ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا يبين لنا أهمية معرفة الرَّسول وأن من لم يعرف الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يعرف ربه ولا يعرف دينه، ولا يعرف كيف ينال رضا ربه، وكيف يفوز بثوابه، وكيف ينجو من سخطه ومن عقابه؟!؛ فالطريق إلى الهدى والحق مسدود إلا من طريق الرَّسول ﷺ.

إذاً فمعرفة الرَّسول ﷺ أصل من أصول الإيمان وأساسٌ من أسس الدّين، بمعنى أن الدّين لا يمكن أن يقوم إلا بمعرفة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّه هو واسطة بين الله وبين العباد في معرفة دين الله وأمره ونهيه وأسمائه وصفاته؛ هذه كلها إنَّما تُعرف من طريق الرَّسول ﷺ.

ولهذا فإن حاجة النَّاس وضرورتهم إلى المعرفة بالرسل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والماء والهواء وغير ذلك؛ لأنَّ إذا انحبس عن العبد الطعام والشراب فإنه يموت ويفارق هذه الحياة الدّنيا، لكن إذا لم يفُز بالوحي ولم يكن من أهل إتباع الوحي فإنه يبوء بعذاب الله

وسخطه في الدّنيا والآخرة. فحاجة العبد وضرورته إلى معرفة الرسل ومعرفة ما جاءوا به وإتباع سبيلهم أشد الحاجات وأعظم الضرورات؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الأصلُ الثالثُ**»، وسبق أيضـًا أن أشرنا إلى جملة من الأحاديث الثابتة عن النَّبيّ ﷺ الّتي جمعت هذه الأصول الثّلاثة؛ معرفة الله ومعرفة دينه ومعرفة نبيه ﷺ.

والنَّاس أجمعون يوم يقومون بين يدي رب العالمين في يوم القيامة يُسألون عن الرسل؛ فثمّة سؤال يوجَّه للنَّاس أجمعين يوم القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[القصص: ٦٥]، كما أنهم يسألون أيضـًا: «ماذا كنتم تعبدون» الأول قوله: «ماذا كنتم تعبدون» سؤال عن الإخلاص والتَّوحيد، وقوله: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾} سؤالٌ عن الإقتداء والمتابعة وسلوك سبيل الأنبياء والمرسلين؛ لأنَّه لا يُعبد إلا الله، ولا يُعبد الله إلا بما جاء عن رسله عليهم صلوات الله وسلامه(١).

---

(١) قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره: مَنْ ربك؟ ومَنْ نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه.. هاه. لا أدري؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن مَنْ كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾» «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٥٠).

قال: «**الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمَّد** ﷺ»؛ وهذه المعرفة تتناول جوانب حياته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ بمعرفة نسبه وحسبه الشريف صلوات الله وسلامه عليه، ومعرفة نشأته، ومعرفة سيرته ومتى نبئ ومتى أرسل ومتى هاجر، ومعرفة جهاده في سبيل الله، وأعظم ما ينبغي أن يُعرف في هذا الباب معرفة ما يدعو إليه وما ينهى عنه وما يأمر به، وأعظم ما أمر به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ توحيد الله، وأعظم ما نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه الشِّرك بالله عَزَّ وَجَلَّ.

والمصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هنا خلاصةً نافعة وزبداً مفيد في باب معرفة النَّبيّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ بدأ أولاً بذكر نسبه ﷺ قال: «**وهو محمَّد**»؛ وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له أسماء كثيرة وكل أسمائه دالة على معاني وعلى مسميات وعلى صفاتٍ فيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، و«محمَّد» هذا الاسم يدلّ على ما كان عليه ﷺ من الحمد لله جَلَّ وَعَلَا وما كان عليه أيضًا من صفات الخير والوفاء والصدق والأمانة وغير ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

وقد ذكره الله جَلَّ وَعَلَا بهذا الاسم في مواضع من القرآن، مثل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤٠]، وآيات في القرآن يذكر فيها نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا الاسم العظيم.

قال: «**وهو محمَّد بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمُ مِنْ**

قريشٍ، وقريشٌ مِنَ العربِ، والعربُ مِنْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليْهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصّلاة والسّلامِ» وقد اصطفاه الله جَلَّ وَعَلَا من خير النَّاس حسبًا ونسبًا، والأنبياء يبعثون في أشرف النَّاس حسبًا ونسبًا وأعلاهم مكانةً وصفاتًا في الخير والنبل، وقد جاء في «صحيح مسلم» عن نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[1].

« إِسْمَاعِيل» أي: ابن إبراهيم الخليل عليهما الصَّلاة والسلام.

قوله ﷺ: « وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » أي: من خيار النَّاس نسبًا وحسبًا وأصلاً صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وقد جاء عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحاديث في هذا المعنى عديدة تبين فضل نسبه وحسبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأيضًا ما تميز به ﷺ من النشأةِ المباركة؛ بأن نشأ على الصدق وعلى الأمانة، وعلى البغض للأصنام والأوثان والأزلام وغير ذلك، وعلى بقائه على سلامة الفطرة ولم يدخل في شيءٍ من دين قومه ﷺ، وقد جاء عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «من زعم أن محمَّداً ﷺ كان على شيءٍ من دين قومه فقد أعظم على الله الفرية»؛ فهو

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يكن على شيءٍ من دين قومه، وقول الله سبحانه وتعالى في سورة الضحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]، ليس المراد بقوله «ضالاً» أي على دين قومك كما قد يسيء البعض فهم هذه الآية، وإنَّما المراد «ضالاً» أي عن تفاصيل الشرائع وتفاصيل الأحكام، فلم يعرف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منها شيئاً إلا بعد أن نزل عليه وحي الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا يدلّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

قال: «**وله مِنَ العُمْرِ: ثلاثٌ وسِتُّونَ سنةً**» أي عمره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومدة حياته هو هذا؛ ثلاث وستون سنة، عاش ﷺ هذه المدة، وأخبر أن أعمار أمته ما بين الستين إلى السبعين، وكان هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثلاث وستين سنة صلوات الله وسلامه عليه.

ثلاث وستون سنة؛ أربعون منها قبل النبوة كما قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ**» فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم ينبأ إلا بعد أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة؛ حينئذ نبيء، ومعنى ذلك أن أربع وثلاثين سنة من حياته وعمره صلوات الله وسلامه عليه كل ذلكم كان قبل النبوة، أربعين سنة كلها كانت قبل النبوة قبل أن ينبأ، وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عاشها عيشاً كريماً متصفاً بالأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة، مشهوراً في قومه بالصدق والأمانة والبعد عن جميع صفات السوء والأخلاق السيئة والمعاملات

القبيحة، بعيداً عن ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل البعد مع أنه نشأ في مجتمع جاهلي تكثر فيه الضلالات ويخيّم فيه الباطل وتنوعت فيه في النَّاس الضلالات والأهواء والباطل! لكن ربه سبحانه وتعالى حماه وصانه، ولم يدخل في حياته في شيءٍ من دين قومه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ، وثلاثٌ وعشرون نبيّا رسولا**»؛ ثلاثٌ وعشرون أي من عمره كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبيـًا رسولاً، وهذه الثّلاث والعشرون مقسومة بين مكة والمدينة؛ ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنوات في المدينة، فهذه حياته أو تقسيم حياته؛ أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون سنة نبيـًا ورسولاً أي: مدة رسالته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منذ أرسل إلى أن مات.

قال: «نُبِّئَ بِـ «اقرأ» وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»: أي: أول ما نزل عليه الوحي وبدأ النزول عليه نزل صدر [سورة العلق] ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾ [العلق: ١-٤]؛ «وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ.

قَالَ: « مَا أَنَا بِقَارِئٍ ».

قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ.

قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ.

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ.

فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ.

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾»[1] فنزلت عليه هذه الآيات، وبها نبئ، و«نبئ»: أي صار نبيـًا؛ من النبأ الّذي هو الخبر ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣] أي من أخبرك وأعلمك وأطلعك؟ فهو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبئ بـ «أقرأ»: أي أول ما بدأه الوحي وأصبح نبيـًا بأن نزلت عليه هذه الآيات، وهو في هذه اللحظات نبئ وجاءه الوحي ولكن لم يؤمر بالبلاغ، لم يُبعث إلى قومه بعد وإنَّما نبئ وتنزل عليه وحي الله والتقى بملك الله جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لكنه لم يؤمر بالبلاغ، فرجع إلى بيته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو يرعد ويقول لزوجه خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: «دَثِّرُونِي» أي غطيني بالدثار، فغطته وذكرت له ما هو عليه من الأخلاق والسجايا والآداب والطباع الكريمة وقالت: «كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللهِ، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ».

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

فنبئ بهذه الآيات «أقرأ»، وأرسل بالمدثر كما قال المصنّف: «وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»» أي بسورة المدثر، وسيأتي عند المصنّف الآيات مع شرحها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ حينها أُمر بالنذارة وبعث إلى قومه. وعندما نزلت عليه أقرأ أنقطع الوحي ولبث وقتًا ثمّ نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ وبعدها تتابع عليه صلوات الله وسلامه عليه الوحي.

قال: «**وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة**»؛ بلدُهُ: أي الّتي وُلد فيها ونشأ فيها حياته هي مكة، أمضى حياته ونشأته في مكة؛ إلا الوقت الّذي كان عند المرضعة حليمة السعدية في البريّة وإلا حياته أمضاها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منذ ولد في مكة.

قال: «**وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة**» عرفنا أن هجرته إلى المدينة بعد ثلاث وخمسين سنة من عمره حيث عاش في المدينة عشر سنوات صلوات الله وسلامه عليه، قال: «وهاجر إلى المدينة» وسيأتي كلام المصنّف رحمه الله تعالى عن الهجرة وما يتعلق بها.

قال: «**بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّرك، ويدعُو إلى التَّوحيد**»؛ بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّرك: أي بإنذار قومه وتحذيرهم من الشِّرك بالله الّذي هو أعظم الذُّنوب وأشد الموبقات وأكبر الكبائر وأعظم الجرائم والآثام، فبُعث بالنذارة من الشِّرك، وبالدعوة إلى التَّوحيد؛ وهو أول شيء بدأ به قومه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقومه لم يسمعوا منه في بداية دعوته إلا الدعوة إلى

التَّوحيد، بل مكث عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منذ بُعث عشر سنوات وهو لا يدعو إلا إلى التَّوحيد، لا يسمعون منه إلا التحذير من الشِّرك والدعوة إلى التَّوحيد، وهكذا شأن الأنبياء والرسل قبله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأول ما يقرع سمع أقوامهم منهم الدعوة إلى توحيد الله ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، ونبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أولُ شيءٍ سمعه قومه منه: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا»(١)، والقوم يعرفون معنى «لا إله إلا الله» وأنها تعني البراءة من الأصنام والأوثان وإخلاص العبادة لله ل وعلا، ولهذا لما قال لهم «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، وأيضـًا قال تعالى ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، عرفوا أن «لا إله إلا الله» تعني نبذ الآلهة وبطلان عبادتها وأن العبادة حقٌّ لله سبحانه وتعالى، عرفوا معنى هذه الكلمة ومدلولها.

فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أولُ ما بدأَ قومه به من الدعوة: الدعوة إلى التَّوحيد والتحذير من الشِّرك؛ ينذرهم من الشِّرك ومن عبادةِ الأصنام ويبين لهم أنها باطلة، وقام بهذا الأمر أتم قيام عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ينذر قومه من الشِّرك ومن عبادة الأصنام، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فكان هو هذا شأنه.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (ص١٤٣).

ولك هنا أن تتأمل في شدة هذا الأمر؛ يعني هو في مجتمع الشِّرك فيه مخيم، والضلال مغطي المجتمع بأسره، والنَّاس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[1]، والجميع كلهم خَيّم عليهم الضلال والباطل أشد تخييم، فبُعث عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هؤلاء وحيداً، وبُعث في شيءٍ مُصادم لعقائدهم، لنحَلهم، لأهوائهم، لطرائقهم، لعقائد آبائهم؛ وهذا من أصعب ما يكون، يأتي إلى المجتمع مصادماً لكل ما عليه الناس، ولكل ما نشؤوا عليه وما اعتقدوه من عقائد الآباء والأجداد، ولما أمره الله سبحانه وتعالى مضى بكل ثباتٍ وعزيمة مبلغاً يغشى أنديتهم وتجمعاتهم ويناديهم بأسمائهم وبعشائرهم وقبائلهم؛ ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾، و«قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» ويبدي ويعيد، مضى سنوات عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الدعوة إلى توحيد الله، سفّهه قومه وجهّلوه، ورموه بالجنون، ورموه بالكهانة والسحر، ورموه بكل عظيمة، وحذَّروا منه وبثّوا حوله الدعايات المغرضة، وآذوه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الأذى الشديد، وكان النَّاس في شوارع مكة يهتفون بكل قادم: إن محمَّداً مجنون، إن محمَّداً كذا، إن محمَّداً كذا؛ دعاية مكثفة ضده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وضد دعوته وهو صابر كما صبر أولو العزم من الرسل، داعي إلى الله: «يا قوم،

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

يا قوم، يا قوم» يدعو ويكرر ويبدي ويعيد، يؤذى فيصبر، وأشتد أذاهم عليه وهو صابر ولم يثنه ذلك عن المضي في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ إلى أن أخرجه قومه من بلده ودبَّروا مؤامرةً لقتله في فراشه ليلاً، وفي ذاك الوقت هاجر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وخرج من مكة، ليس برغبةٍ منه بالخروج عن هذا البلد ولكن لأنَّ قومه أشتد أذاهم عليه في هذا البلد وتمالؤوا على قتله والإجهاز عليه والقضاء عليه.

ثمّ مع هذا العداء الشديد والكيد والتآمر على قتله جعل علياً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على فراشه ومضى وخرج متسللاً ليلا مع أبي بكر الصديق صاحب النَّبيّ ﷺ، وأمر علياً أن يعيد الأمانات، كان رجلاً معروفاً بالأمانة، وكان قومه إن خافوا على شيء لا يجدون أحداً مثله يأتمنونه؛ فكانوا يضعون عنده الأمانات والودائع معروف عندهم بالأمين، فأمر علي أن يعيد الأمانات إلى أصحابها، ما قال هؤلاء عادوني وآذوني وأخرجوني من بلدي ولا يستحقون من يحفظ لهم أمانتهم وأنا أوذيت، لم يتأول لنفسه شيئاً؛ أعاد الأمانات كاملة إلى أصحابها وخرج عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مهاجراً إلى المدينة.

قال: «**وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة**» مكة مكث فيها بعد أن أُرسل ثلاثة عشر سنة، والمدينة عشر سنوات إلى أن مات، ثمّ مات عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ودفن بالمدينة.

قال: «**بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّرك، ويدعُو إلى التَّوحيد، والدَّليل قوله**

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾» هذه الآيات بداية الرِّسالة وبداية البعثة، وهي تحمل في مضمونها زبدة الرسالات وخلاصة دعوة النَّبيّين، فهي تحمل قاعدة الدّين وأساسه، لأنَّه أول ما بُعث وأُمر بالنذارة ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ أول ما بُعث ونزل عليه هذه الكلمات؛ فهذه الكلمات تحمل في معانيها وطياتها ومضامينها قاعدة الدّين وأصله وأساسه وزبدة دعوة النَّبيّين والمرسلين؛ ولهذا اعتنى الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان معاني هذه الآيات ومضامينها ومدلولها باختصار بما يحتمله هذا المختصر.

قال: «**ومعنى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ يُنْذِرُ عنِ الشِّرك ويدعُو إلى التَّوحيد**»؛ ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ أي: أنذر قومك، من الشِّرك، ومن الجاهلية، ومن عبادة الأصنام، لأن مكة في ذلك الوقت امتلأت بالأصنام، حتى البيت الحرام كان في داخله وحوله الأصنام حتّى كسرها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيده يوم فتح مكة ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ۝٨١﴾ [الإسراء: ٨١].

فكانت تُعبد ويُذبح لها وينذر وتُصرف لها أنواع العبادات، فأول ما نزل عليه بالبعثة والرِّسالة: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ أي: أنذر قومك من الشِّرك وأمرهم بالتَّوحيد، قال الله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ مبشرين بالجنّة لمن وحَّد الله، ومنذرين من النّار لمن أشرك بالله سبحانه وتعالى.

قال: « ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيد**» ولهذا فإن هذه الكلمة العظيمة الّتي تتردد على ألسنة المسلمين في صلاتهم وفي أذكارهم «الله أكبر» هي كلمة تعظيم لله[1]؛ تعظيم لله بتوحيده وإجلاله سبحانه وتعالى وقدره حق قدره، ولهذا المشرك لا يكبر الله، والّذي يعبد مع الله غيره لا يكبر الله، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: ٦٧]، المشرك الّذي يدعو الوثن ويعبد الصنم ويتعلق بغير الله هو لا يكبر الله ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح: ١٣-١٤]، فتكبير الله لا يكون إلا بتوحيده وإخلاص الدّين له، أما المشرك ليس مكبراً ولا معظماً لله ولا يقدُر ربه سبحانه وتعالى حق قدره.

قال: «﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيد**» أي عظم ربك بالتَّوحيد.

« ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ **أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّرك**» بالحذر منه والتحذير

---

(١) __توضيح:__

قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «لكن ينبغي أن يُعلم أنّ التعظيم ليس مرادفاً في المعنى للتكبير، فالكبرياء أكمل من العظمة؛ لأنّه يتضمّنها ويزيد عليها في المعنى، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي قوله (الله أكبر) إثبات عظمته، فإنّ الكبرياء تتضمّن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل، ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: (الله أكبر) فإنّ ذلك أكمل من قول الله أعظم » «فقه الأدعية والأذكار» (١/ ٢٨٧).

منه وإنذار القوم من الوقوع فيه؛ وهذا فيه أن أعظم أمرٍ ينبغي على العبد أن يتطهر وأن يتنزه عنه وأن يجانبه وأن يبتعد عنه الشِّرك بالله سبحانه وتعالى، والشِّرك أنجس شيء وأوسخه، والمؤمن مطالب بأن يتنزه عن الشِّرك وأن يتطهر وأن يبتعد عنه، قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّرك .

«﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ **الرُّجْزُ: الأصنامُ**»؛ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ أي: أهجر الأصنام، وكيف يكون هجرها؟ قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وهجرُها: تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها**» هذا هو هجرها الّذي أمر به في هذه الآية ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ أي تركها والبراءة منها ومن أهلها مثل ما قال الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم الخليل ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] وقال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]، فلا يتم توحيد العبد حتّى يبرأ من الكفر وأهل الكفر ويباعدهم وينابذهم، وهذا واضح في الآية ودلالتها عليه، لا يتم للإنسان التَّوحيد حتّى يهجر الأصنام وأهلها ويجانبهم ويباعدهم ويحاذر منهم ويحذِّر، قال: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها: تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها.

قال: «**أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التَّوحيد**» يعني منذ نزلت عليه هذه الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ مضى عشر سنوات يدعو إلى التَّوحيد، عشر سنوات كاملات لم يأمر بصلاة ولم يأمر بصيام ولم يأمر بحج ولم

يأمر بأي عبادة من العبادات، عشر سنوات خالصة يأمر بالتَّوحيد ويحذر من الشِّرك، ويحذرهم من عبادة الأصنام يدعوهم لترك عبادتها والبعد عنها، مضى على ذلك قبل فرض الصَّلاة، فالصَّلاة رغم مكانتها من الدّين وأنها عماده وأعظم أركانه بعد الشهادتين، إلا أنها لم تُفرض من أول الأمر.

قال: «**أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التَّوحيد، وبعدَ العشْرِ**» بعد أن أتم عشر سنوات داعياً إلى توحيد الله «**عُرِجَ به إلى السَّماء**»[1] أُسري بجسده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وروحه جميعًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١] ثمّ عرج به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى السَّماء، إسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً ثمّ عروج إلى السَّماء، في ليلة واحدة، قطع كل هذه المسافة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهذه أقصر مسافة قطعها في رحلته تلك، ثمّ من المسجد الأقصى عُرج به إلى

---

(١) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «من يقول: إنَّ الإسراء والمعراج كان بالروح فقط. وهذا باطل وغير صحيح، بل عُرج به ﷺ بروحه وجسده، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ يتناول الروح والجسد، وهكذا بقية الأحاديث؛ فمن قال: إنَّ الإسراء والمعراج كان بالروح فقط ليس عنده دليل، ومن قال: إنَّه منام فهو أشد باطلاً وبعداً عن الحق والصواب» «تذكرة المؤتسي» (ص ٢٦٠).

السَّماء، من الأرض إلى السَّماء الدّنيا إلى السَّماء الّتي تليها إلى السَّماء الّتي تليها حتّى بلغ سدرةِ المنتهى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد جاء في بعض الأحاديث والآثار «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قَالَ قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ»(١)، كل هذه المسافات قطعها عليه الصَّلاة ولسلام في ليلة واحدة! حتّى بلغ سدرة المنتهى فأوحى إليه ربه جَلَّ وَعَلَا ما أوحى، وسمع وحي الله من الله، وسمع كلام الله من الله، وأمره بالصَّلاة خمسين صلاة في اليوم والليلة، فرضها عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، ونزل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذه الفريضة، خمسين صلاة في اليوم والليلة نزل بها، قال ﷺ: «فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ.

قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ»(٢)، فرجع وطلب من ربه التخفيف وتردد بين موسى وبين الله كما جاء في الحديث إلى أن خُففت إلى خمس صلوات، وهي خمس بالعمل وخمسون بالأجر؛ لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، فنزل

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٧٠)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٢٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وفرضت عليه الصلوات الخمس وعلى أمته ونزل بهذه الفريضة؛ هذا بعد عشر سنوات من البعثة، يعني كان عمره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خمسين سنة، أتم الخمسين حينئذ فرضت الصَّلاة، ونزل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذه الفريضة، وكذّبه قومه وسخروا منه وله معهم في هذا وقائع معروفة في كتب السيرة حول الإسراء والمعراج وتكذيب قومه، وأصبحوا يسخرون منه وجاءوا إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقالوا إنه يزعم كذا - يريدون تنفيره منه -، قال: «نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق»[1] صديق الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

فالشاهد أنه نزل بذلك، ومن عجائب حال بعض أمته أن الصَّلاة الّتي هي مفروضة عليهم في اليوم والليلة خمس صلوات لا يهتمون بها ولا يواظبون عليها، والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج الّذي هو ليس مشروعا أصلاً ولا مأمورا به ولا يوجد دليل عليه لا يفوتونه أبداً! ! فالفرض الواجب لا يُعتنى به والأمر المحدث لا يفوّت ولا يضيَّع!! وهذا من سوء الفهم وعدم البصيرة؛ فالصَّلاة الّتي هي فرض على المسلمين، من أعظم ما نستفيده من حادثة الإسراء والمعراج؛ فنحرص على

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧١٩)، والحاكم في «مستدركه» (٤٤٠٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٦).

المحافظة على الصَّلاة، فالحج - مثلا - فُرض عليه ﷺ وهو في الأرض، وكذا الصيام وهو في الأرض، وبقية الفرائض وهو في الأرض إلا الصَّلاة خصّت بأن عرج به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى السَّماء السابعة إلى سدرة المنتهى وسمع الأمر والفرض بالصَّلاة من الله بدون واسطة، سمع كلام الله من الله ونزل بها، ثمّ يأتي بعض النَّاس ويضيّعون الصَّلاة المفروضة!! حتّى ليلة الاحتفال بالإسراء والمعراج بعضهم قد يحتفل إلى الصباح وينام عن صلاة الفجر، فيضيّع الفرض وأما الأمر المحدَّث يواظب عليه ولا يضيّع ولا يفوّت! فهل هذا هو الاتباع؟! وهل هذا هو علامة صدق المحبة للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟!!

ولهذا يحتاج كثير من النَّاس إلى أن يعيد النظر في طريقة دراسته للسيرة النبوية وطريقة استفادته من هدي النَّبيّ ﷺ، وإلا سيحال الدّين إلى مواسم للاحتفالات، فهذا يحتفل بالمولد وهذا يحتفل بالإسراء والمعراج وهذا يحتفل بالهجرة وهذا يحتفل.. وأما الفرائض تضيّع والواجبات لا يُهتم بها، ويصبح الأمر مواسم للاحتفالات فقط.

وإذا نظرنا في تاريخ الصحابة والتابعين لهم بإحسان لا نرى فيهم مثل هذه الاحتفالات؛ وهم أشد النَّاس حبًا للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحرصًا على اتباع هديه والسير على منهاجه صلوات الله وسلامه عليه، لكنّا نرى فيهم مسارعةً للخيرات ومسابقةً إلى الفرائض والطاعات ومحافظةً على

الرغائب والمستحبات؛ هكذا مضت حياتهم بحسن إتباع وحسن ائتساء وبُعد عن البدع والأهواء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السَّماء وفُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمسُ، وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ**» أي صلى الصَّلاة المكتوبة المفروضة ثلاثَ سنينَ «**وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ**» يعني بعد أن أمضى ثلاثة عشر سنة بعد الرِّسالة أُمر بالهجرة إلى المدينة؛ لأنَّه أوذي في مكة أشد الأذى، حتّى في صلاته وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يصلي وهو ساجد لله يأتي بعضهم بسلى الناقة ويضعه على ظهره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ، لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنْعَةٌ. قَالَ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لاَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ...»[1].

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

والهجرةُ: الانتقال مِنْ بلدِ الشِّرك إلى بلدِ الإسلامِ، والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرك إلى بلدِ الإسلامِ، وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، والدَّليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قالَ البَغوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الّذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ باسمِ الإيمانِ».

والدَّليل على الهجرةِ من السُّنَّةِ قولُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتّى تَنْقَطعَ التَّوبةُ، ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

الشرح:

ثمّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والهجرةُ: الانتقال مِنْ بلدِ الشِّرك إلى بلدِ الإسلام**»؛ لما ذكر هجرة النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من مكة إلى المدينة عرَّف الهجرة قال: «والهجرةُ: الانتقال مِنْ بلدِ الشِّرك إلى بلدِ الإسلام»، وأن تكون هذه الهجرة يُبتغى بها رضا الله عَزَّوَجَلَّ واتباع رسوله ﷺ، «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ

امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[(١)]، يعني قد تكون هجرة الإنسان للتجارة لدنيا يصيبها، أو تكون هجرته للنكاح، إما أن يهاجر متاجراً أو يهاجر خاطبًا، لكن الهجرة الّتي تدخل في عمل الإنسان الصالح ويثاب عليها وهو مأمور بها: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ليُخلِص الدّين لله وليحقق الإتباع للرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: «**والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرك إلى بلدِ الإسلامِ، وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ**» وهذا لا يعارض حديث النَّبيّ ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»[(٢)] يعني بعد فتح مكة، لأنَّ المراد بقوله ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ» أي: من مكة بعد فتحها، أما الهجرة من بلد الشِّرك عموماً إلى بلد الإسلام فهي باقية إلى قيام الساعة.

والبقاء في بلد الكفر والشِّرك ضياع للدين، وتضييعٌ للأمانة، وتضييعٌ للذرية، وتضييعٌ للأهل، وهدمٌ للعقائد، وهدمٌ للأخلاق؛ ولهذا قال: «وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ» قال في الهامش الشَّيخ عبد الرحمن بن قاسم قال: «باتفاق من يعتدّ به من أهل العلم، قال شيخ الإسلام: لا يسلم أحد من الشِّرك إلا بالمباينة لأهله» أي: البعد عنهم ببدنه وعدم الإقامة بين ظهراني الكافرين المشركين.

---

(١) رواه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) رواه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٨٦٤).

قال: «**وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، والدَّليل قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾» أي: بإقامتهم بين ظهراني الكافرين وبقائهم بدول الكفر والشرك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: لِم مكثتم وبقيتم في هذه الأراضي ولم تهاجروا؟ ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني عاجزين لا نقدر على الخروج ولا نقدر على الذهاب ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ يعني إلى المدينة، تخرجوا من الإقامة بين المشركين عبدة الأوثان إلى أرض الله الواسعة إلى المدينة حيث تعبدون الله وتبقون مع أهل العبادة والإيمان والتَّوحيد!! قال: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا فيه أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه مرتكبٌ كبيرة من كبائر الذُّنوب، ولهذا تهدده الله جَلَّ وَعَلَا وتوعده بنار جهنم ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، يستثنى من هؤلاء العاجزين فعلاً الّذين لا قدرة لهم، ولا يستطيعون من الضعفة كالصغار والولدان والنساء والعجزة ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هؤلاء مستثنون من هذا الوعيد، أما الّذي عنده قدرة وقوة ومُكنة ولم يهاجر فهو عرضة لهذا الوعيد الشديد الّذي جاء في قوله: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ أي لا يستطيعون حيلة لمفارقة المشركين والانتقال إلى

ديار المسلمين ولا قوة لهم على الخروج ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ما يعرفون طريقًا للهجرة، لو فكّر أحدهم أن يهاجر فإنه لا يحسن ولا يعرف ولا يهتدي للطريق، وبعضهم ليس بالقوي النشيط المتمكن وإنَّما هو رجل عاجز كهل مسن، أو امرأة لا قدرة لها، أو طفل صغير؛ فمثل هؤلاء يستثنون ويعذرون؛ ولهذا استثناهم الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي: يتجاوز عنه هؤلاء المستضعفين الّذين لا حيلة لهم ولا سبيل لهم.

قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ وختْم الآية بهذين الاسمين فيه دلالة على أن الله سبحانه وتعالى يعفو عمن كانت هذه حاله، لأنَّ تقوى الله بالاستطاعة اتقِ الله ما استطعت، وهؤلاء غير مستطيعين ولا قادرين عاجزين، فمن كان من أهل الأعذار فمعفوٌ عنه و«عسى» في القرآن واجبة كما قال ذلك أهل العلم، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي: أن الله سبحانه وتعالى يعفو عمن كانت هذه حاله؛ أي كان من أهل الأعذار، أما من سواهم فإنه عرضة لذلك الوعيد والتهديد الوارد في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

قال: «**وقوله تعالى**: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾» أيضًا هذه فيها أمر بالهجرة والانتقال من بلد الكفر والشِّرك إلى بلد

الإسلام ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي: وحِّدون وأخلصوا لي الدّين في أرضي الواسعة دون أن تبقوا مقيمين بين ظهراني المشركين الكافرين.

ثمّ نقل عن الإمام البغوي المفسر رحمه الله تعالى في ذكر سبب نزول هذه الآية قال: «**سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الّذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ جَلَّ وَعَلَا باسمِ الإيمانِ**»[(١)]؛ وهذا يفيد أن من لم يهاجر لم يقع في الكفر الناقل عن ملّة الإسلام، وإنَّما يكون مرتكبًا كبيرةً من الكبائر وعظيمةً من العظائم يستحق بها ذلك التهديد الوارد في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾. وهنا في الآية قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ فهذا يدلّ على أنهم ليسوا كفاراً لكنهم مرتكبين لكبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم،

---

(١) قال الإمام البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: « ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾
قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة، إن أرضي -يعني المدينة- واسعة آمنة.

قال مجاهد: إن أرضي المدينة واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها.

وقال سعيد بن جبير: إذا عمل في أرض بالمعاصي فاخرجوا منها فإن أرضي واسعة.

وقال عطاء: إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة.

وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة» « معالم التنزيل » (٦/ ٢٥٢).

وتعرضوا بها لهذا الوعيد وهو دخول جهنم وساءت مصيراً.

قال: «**سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الّذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ جَلَّ وَعَلَا باسمِ الإيمانِ**» هذه المناداة باسم الإيمان أو ﴿يَعِبَادِيَ﴾ كما قدمت دليل على أنهم ليسوا كفاراً ولكنهم مؤمنون ناقصو الإيمان، مؤمنون مرتكبون لكبيرة من الكبائر، ومرتكب الكبيرة معرض للوعيد، وهؤلاء يدلّ على أن فعلهم هذا كبيرة من الكبائر قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ لأنَّ التهديد بجهنم أو بسخط الله أو بذكر اللعن «لعن الله من فعل كذا»، أو أن يقال: «ليس منا»، أو: «لا يؤمن» أو نحو ذلك هذا كله يدلّ على أن الأمر كبيرة من الكبائر ليس من صغائر الذُّنوب.

فأفادت هذه الآيات وهذه النصوص أن من لم يهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ورضي بالإقامة بين ظهراني الكفّار والمشركين مع بقائه على دينه يكون بذلك مرتكباً لكبيرة من كبائر الذُّنوب كما هو واضح في دلالة هذه الآيات وفي كلام أهل العلم رحمهم الله تعالى في معاني هذه الآيات.

قال: «**والدَّليل على الهجرةِ من السُّنَّة**»؛ والدَّليل على أن الهجرة فريضة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام من سنة النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قولُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتّى تَنْقطعَ التَّوبةُ»**».

وكيف تجمع بين قوله «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتّى تَنْقَطعَ التَّوبةُ» وبين قوله في الحديث الآخر «لا هجرة بعد الفتح»؟

سبق الكلام عن معنى قوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» أي: من مكة، فلا هجرة من مكة بعد فتحها لأنَّها أصبحت دار إسلام، أما من ديار الكفر عمومًا فالهجرة باقية وغير منقطعة إلى قيام الساعة، لا يحل للمسلم أن يبقى بين ظهراني الكفّار.

قال: «**والدَّليل على الهجرةِ من السُّنَّةِ قولُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتّى تَنْقَطعَ التَّوبةُ، ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغرِبِهَا»**».

عَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »(١).

بمعنى أن الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام باقية إلى أن يأتي الوقت الّذي لا تنفع فيه التوبة، والتوبة لا تنفع إذا طلعت الشمس من مغربها؛ وهذا علامة من علامات الساعة وأمارة من أماراتها الكبار، فإذا طلعت الشمس من مغربها آمن النَّاس كلهم جميعًا، أعلنوا إيمانهم وصرَّحوا بذلك؛ لكن لا ينفع الإيمان إذا طلعت الشمس من المغرب! فإذا رأى الناس هذه الآية الباهرة والعلامة العظيمة من آيات الله يؤمنون، وهذا يسميه أهل العلم «إيمان مشاهدة» يعني شاهد الآية، شاهد اختلال الكون وتغيره وشاهد بدأ ظهور العلامات الكبرى لقيام الساعة فبدأ العالم يتغير وانتظامه بدأ يتغير؛ فالشمس بدل أنها من أول الزمان تطلع من

(١) رواه أبو داود (٢٤٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٢٤١).

المشرق إلى المغرب فتغيب، يُفاجؤون في يوم من الأيام وإذا بها طالعة من المغرب إلى المشرق؛ فيرون هذه الآية ويعلنون حينئذ الإيمان يؤمنون؛ لا ينفع الإيمان.

ولهذا العلماء يقولون أخذاً من الأدلَّة: الإيمان لا ينفع عندما تطلع الشمس من المغرب لأنَّه إيمان مشاهدة، ولا تنفع عندما يغرر الإنسان؛ عندما يعاين الموت ويشاهد الموت وتغرر روحه لا ينفع إيمانه، مثل إيمان فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] لما أدركه الغرق أعلن هذا الإيمان، وكذا إيمان الغرغرة أيضًا إيمان مشاهدة للموت؛ وهذا الإيمان لا ينفع وهذا الإيمان لا ينفع.

الشاهد أن الهجرة باقية مستمرة دائمة إلى أن تطلع الشمس من مغربها، إذا طلعت الشمس من مغربها وهاجر الإنسان تائبًا لا تفيده، أما قبل طلوع الشمس من مغربها فالتوبة بالهجرة مفتوحٌ بابها، لا يزال باب التوبة مفتوح حتّى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها طبع على كل قلب بما فيه. قال: «ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ؛ مثلُ الزَّكاة، والصّومِ، والحجِّ، والجهادِ، والأذانِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ وغيرِ

ذلكَ مِنْ شرائعِ الإسلامِ.

أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ، وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ، ودينُهُ باقٍ، وهٰذا دينُه، لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَرَّ إلاَّ حَذَّرَهَا منْه.

والخيرُ الّذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيد وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ، والشَّرُّ الّذي حَذَّرَهَا منه: الشِّرك وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ.

بعثَهُ اللهُ إلى النَّاس كافَّة، وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ: الجنِّ والإنسِ، والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأكملَ اللهُ به الدّين والدَّليل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٠٣].

والدَّليل على موتِهِ ﷺ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾[الزمر: ٣٠-٣١].

والنَّاس إذَا ماتُوا يُبْعثُونَ، والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾[طه: ٥٥]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾[نوح: ١٧-١٨]. وبعدَ البَعْثِ محاسبُونَ ومَجزيُّونَ بأعْمالِهِمْ؛ والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾[النجم: ٣١]، ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كفَرَ، والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا

عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ [التغابن: ٠٧]».

الشرح:

المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يزال يبين ما يتعلق بالأصل الثالث وهو معرفة العبد نبيه؛ حيث ذكر رحمه الله تعالى فيما سبق شيئًا من أخبار النَّبيّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ذكر نسبه ومولده ونشأته، وذكر أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبئ بـ «إقرأ» وأرسل بـ«المدثر»، وذكر أيضًا الأذى الّذي حصل له من قومه وتمالئهم على قتله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن الله سبحانه وتعالى أذن له بأن يهاجر إلى المدينة، وأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هاجر إلى المدينة، ثمّ تحدث عن الهجرة وأنها واجبة وباقية من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، وذكر بعض الأدلَّة من القرآن والسنة.

بعد ذلكم أخذ يبين حال النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد الهجرة حيث استقر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في المدينة.

قال: «**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ**» أي أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في مكة - كما سبق إيضاح ذلك عند المصنّف - مضى عشرسنين بعد مبعثه ﷺ لايدعو إلا للتوحيد ونبذ الشِّرك، ولم يؤمر بشيء آخر ولم يوحَ إليه بشيء آخر إلا بالتَّوحيد ودلائل التَّوحيد وبراهينه؛ هذا الّذي كان في العشر سنوات الأولى من مبعثه صلوات الله وسلامه عليه، ولما أتم عشر سنوات في الدعوة إلى التَّوحيد أُمر بالصَّلاة، وسبق إشارة

المصنّف إلى الإسراء والمعراج وأن الصَّلاة فرضت على النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فوق سبع سماوات، وسمع أمر الله سبحانه وتعالى بها من الله مباشرة ﷺ، فالّذي فُرض عليه في مكة التَّوحيد ونبذ الشِّرك، ثمّ بعد عشر سنوات فُرضت الصَّلاة ثمّ لم يفرض عليه شيء إلى أن هاجر إلى المدينة عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واستقر بها، بعد ذلكم بدأ يوحى إليه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالفرائض والأوامر الأخرى كما يأتي بيان ذلك عند المصنّف رحمه الله تعالى.

قال: «**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ**» أي لما استقر بالمدينة بعد الهجرة إليها وقوي أمر التَّوحيد وشاع وانتشر واتضح للنَّاس وابتعدوا عن الشِّرك ومنَّ الله جَلَّ وَعَلَا عليهم بالهداية للتوحيد؛ وبعد ثباته في قلوبهم وتقرير دلائله وحججه وبيناته واتضاح هذا الأمر جاءت الفرائض؛ وهذا فيه التنبيه أن الأعمال لا تفيد إلا إذا أرسي أساسها وثُبِّت عمادها، أما ما لم تكن كذلك فإنها لا تفيد ولا تنفع، شأن البيت إن لم يبنى على أساس ثابت وعماد راسخ سرعان ما يتهاوى وينهار، ولهذا مكث عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ طويلاً يثبّت التَّوحيد ويذكر دعائمه ودلائله وحججه وبراهينه ويرسخ ذلك في النَّاس، ثمّ بعد ذلك جاءت الفرائض؛ لأنَّ الفرائض لو أقيمت على غير أساس لا تفيد، فهي إنَّما تكون نافعة إذا أقيمت على أساس ثابت وأصل راسخ؛ وهو توحيد الله جَلَّ وَعَلَا.

ولهذا ينبغي أن يعي النَّاس، وأن يعي المسلمون هذا الأمر العظيم من سيرة نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: عشر سنين كاملات من مبعثه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمضاها في التَّوحيد فقط والتحذير من الشِّرك، ثمّ بعد ذلك تُفرض الصَّلاة فقط ويبقى على ذلك الحال وقتًا، ثمّ لما استقر بالمدينة وبعد أن استقر بها وقتًا بدأت الفرائض الأخرى كما سيبين ذلك المصنّف رحمه الله تعالى، فهذا ينبغي أن يستفيد المسلمون منه درسًا عظيمًا ألا وهو: العناية بأمر التَّوحيد والحذر من الشِّرك والعناية بتثبيته وفهمه ومعرفة دلائله وحججه وبيناته من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ مثل: الزَّكاة، والصّومِ، والحجِّ، والجهادِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ**» هذه الفرائض «الزَّكاة والصّومِ» فرض على النَّبيّ ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، و«الحجِّ» فرض عليه صلوات الله وسلامه عليه في السنة التاسعة من الهجرة، والإسلام بني على خمس: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله..»؛ وهذا هو الأساس أمضى فيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عشر سنوات، ثمّ بعد ذلك تأتي الصَّلاة وهي عماد الدّين فُرضت عليه بمكة في السنة العاشرة من البعثة، بعد أن أمضى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من بعثته عشر سنوات فُرضت الصَّلاة، وبقي أهل الإسلام على هذه الحال توحيد

وصلاة، ثمّ هاجر إلى المدينة في السنة الثانية من الهجرة فُرض على النَّاس الزَّكاة والصيام، ثمّ في السنة التاسعة من الهجرة فرض الحج.

وهذا يبين تفاضل مباني الإسلام في المكانة والمنزلة وترتُب الأمور في العمل بالإسلام؛ فقد تجد من يحج ولا يحافظ على الصَّلاة ولا يعتني بها! فهل فهم الإسلام؟ وقد ترى أيضا من يحج ولكن ينقض كل شيء ويهدم كل شيء بالتعلق بغير الله، والتوجه بالقصد لغير الله، والالتجاء لطلب الحاجات إلى غير الله من المقبورين وغيرهم؛ يدعوهم ويستغيث بهم ويلتجئ إليهم ويعرض عليهم حاجاته وطلباته من شفاء مريض أو حصول رزق أو كشف غم أو زوال هم أو غير ذلك مما لا يُلجأ فيه إلا إلى الله سبحانه وتعاليز

ولهذا يحتاج النَّاس إلى دراسة السيرة النبوية[1] دراسة فاحصة، ومعرفة هدي النَّبيّ ﷺ معرفة صحيحة، وإذا لم يعرفوا الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم يعرفوا سيرته وهديه جهلوا دينهم وضيَّعوه ووقعوا في أنواع من الضلالات والانحرافات؛ ولهذا يحتاج النَّاس فعلاً إلى دراسة صحيحة

(١) قال شيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله عن سيرة النبي ﷺ: «فهي أزكى سيرة على الإطلاق، لا كان ولا يكون مثلها، والمراد بالسيرة النبوية في الاصطلاح: ذكر أخبار النبي ﷺ منذ ولادته على ان لحق بالرفيق الأعلى » «شرح الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية» (ص١٨).

لسيرة النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتأملٍ في هديه وعنايته ﷺ بالتَّوحيد والإخلاص، ثمّ الصَّلاة، ثمّ هكذا تتدرج أمور الإسلام.

قال: «**مثلُ الزَّكاة**» أي الزَّكاة المفروضة؛ وهي صدقة تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء، وسواء كان الغنى بالمال، أو كان الغنى بالحرث والزراعة، أو كان الغنى بامتلاك بهيمة الأنعام؛ فكل هؤلاء يُخرجون نصيباً من هذا المال الّذي أغناهم الله سبحانه وتعالى به من فضله يخرجون جزءً قليلاً وقدراً يسيراً من هذا المال زكاةً تُقدَّم إلى الفقراء والمحاويج، وتكون بركةً للمال وطهرةً للمزكي وزكاةً له.

قال: «**والصّومِ**» أي الصوم المفروض؛ وهو صيام شهر رمضان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣]، وهو شهر كامل يصام في السنة، يصام نهاره من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يُمتنع في نهاره عن الطعام والشراب والجماع وغير ذلك من المفطرات طاعةً لله سبحانه وتعالى وطلباً لثوابه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »(١).

قال: «**والحجِّ**» أي: فُرض على النَّاس الحج وكان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة، والحج: هو قصد بيت الله الحرام لأعمالٍ مخصوصة

(١) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (١٧٥).

في وقتٍ مخصوص، وهو لا يجب على المسلم في عمره كله وحياته جميعها إلا مرة واحدة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ الْحَجُّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً قَالَ: «بَلْ مَرَّةً وَاحِدَةً فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ»(١)، ولا يجب إلا على المستطيع ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

قال: «**والجهاد**» أي: في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولنصرة دين الله ولكي لا تكون فتنة ويكون الدّين كله لله.

«**والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ**» أي: أمر النَّاس بالمعروف؛ وهو ما أمر الله سبحانه وتعالى به، وما أمر به رسوله ﷺ، ونهيهم عن المنكر؛ أي نهي النَّاس عما حرم الله وما حرم رسوله ﷺ، وهذا من الأمور المهمة والعظيمة لقيام الدّين، الدّين لا يقوم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحتاج النَّاس إلى ذلك وإلا فإن أمور الدّين تتقوض والنَّاس تُتخطف ويضِلون عن دينهم؛ إلا إن أكرمهم الله سبحانه وتعالى ويسَّر لهم بمن يدعوهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

ولهذا فإن الدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر صمام أمان للمجتمع من سخط الله جَلَّ وَعَلَا وعقابه؛ فالنَّاس لا تصلح حالهم إلا بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا تخلى أهل

---

(١) رواه أبو داود (١٧٢١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٥١٤).

الخير عن ذلك ضاع النَّاس وتخطفتهم شياطين الجن والإنس، ومن تأمل حال بعض البلدان والمناطق الّتي لا يوجد فيها أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر؛ كيف أن الفوضى تعم تلك المناطق، والضلال ينتشر فيها، والباطل يخيم، ويتسلط فيها دعاة الشر والضلال والفساد.

قال: «**وغيرِ ذلكَ مِنْ شرائعِ الإسلامِ**» أي: وأُمر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بغير ذلك من شرائع الإسلام؛ من فرائض ونهي عن المحرمات وأمر بالرغائب والمستحبات، فلازالت الأوامر تنزل والنواهي تنزل تباعًا على رسول الله ﷺ بوحي الله جَلَّ وَعَلَا الّذي هو القرآن، وبوحي الله جَلَّ وَعَلَا الّذي هو سنة النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فالقرآن والسنة كله وحي الله وتنزيله، فلازالت الفرائض تنزل على نبيّنا الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وسيأتي ذكرها عند المصنّف رحمه الله تعالى.

قال: «**أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ**» أخذ على هذا: يعني على هذه الحال تتنزل عليه الفرائض والأوامر والنواهي والشرائع وهو مستقر في المدينة ﷺ، يخرج منها لنصرة الدّين والذب عن حِماه والدعوة إلى الله، ويبعث البعوث ويرسل الرسل ويكتب المكاتيب دعوةً لدين الله جَلَّ وَعَلَا ونصرةً لهذا الدّين.

بقي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأخذ على هذه الحال عشر سنين، وإذا ضممت

إليها ثلاثة عشرة سنة قبل الهجرة وبعد البعثة، وأربعين سنة من ولادته إلى أن بُعث يتحصل من مجموع ذلك ثلاث وستون سنة؛ وهي مدة حياته المباركة صلوات الله وسلامه عليه.

وحياته ﷺ هي أبرك حياة إنسان على الإطلاق، وأكمل إنسان على الإطلاق في عبودية الله والذل له والقيام بطاعته والدعوة لدينه والنصرة للحق والهدى.

أمضى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «أخذ على ذلك عشر سنين» أي بعد أن استقر بالمدينة النبوية.

«**وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ**» أي: بعدها توفاه الله جَلَّ وَعَلَا وقبض روحه الشريفة ﷺ ومات، مات عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصحبه الكرام غسلوه وكفنوه وصلّوا عليه أوزاعـًا، ودفنوه في حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا(١)؛ ومات عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بين سحرها ونحرها، ودفن ﷺ في حجرتها.

وكانت وفاته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعظم المصائب وأكبرها على الإطلاق، وفُجع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بموته ﷺ ونزل عليهم نازلة لم يمر عليهم في

(١) قال الإمام ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَإِنَّمَا أَصْحَابُهُ رَأَوْا تَخْصِيصَهُ بِذَلِكَ.
وَلِأَنَّهُ رُوِيَ: (يُدْفَنُ الْأَنْبِيَاءُ حَيْثُ يَمُوتُونَ) وَصِيَانَةً لَهُمْ عَنْ كَثْرَةِ الطُّرَّاقِ، وَتَمْيِيزًا لَهُ عَنْ غَيْرِهِ»« المغني» (٢/ ٣٨٣).

النوازل مثلها، وحصلت لهم مصيبة لم يمر عليهم في المصائب مثلها؛ حتّى إن بعضًا من أصحاب النَّبيّ ﷺ شك في موته وأنكر ذلك، حتّى جاء صديق الأمة أبو بكر الصديق وكشف عن وجه نبيّنا ﷺ وقبَّله ثمّ قام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطيبًا في أصحاب النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ»(١)؛ محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد مات؛ أي باعتبار هذه الحياة فارق هذه الدّنيا، قضى نحبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وانتهت مدته في هذه الحياة، وهو عبدٌ من عباد الله قبض الله سبحانه وتعالى روحه لما انتهت مدته في هذه الحياة، جاء في «الصحيح»(٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه أن رسول الله ﷺ قال: أن الله تعالى قال: «مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(٣) فكيف بقبض روح المصطفى ﷺ!! لكن

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٨).

(٢) أي: «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٢).

قال الإمام ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما كان الموت مكروها بالطبع لما فيه من الشدة والمشقة العظيمة لم يمت نبي من الأنبياء حتى يخير ولذلك وقع التردد فيه في حق المؤمن» «لطائف المعارف» (ص١٣٢).

(٣) قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إثبات التردد لله عَزَّ وَجَلَّ على وجه الإطلاق لا يجوز، لأن الله تعالى ذكر التردد في هذه المسألة: «مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ»، وليس هذا التردد من أجل الشك في المصلحة، ولا من أجل الشك في القدرة

=

على فعل الشيء، بل هو من أجل رحمة هذا العبد المؤمن، ولهذا قال في نفس الحديث: «يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

وهذا لا يعني أنَّ الله ﷻ موصوف بالتردد في قدرته أو في علمه، بخلاف الآدمي فهو إذا أراد أن يفعل الشيء يتردد، إما لشكه في نتائجه ومصلحته، وإما لشكه في قدرته عليه: هل يقدر أو لا يقدر، أما الرب ﷻ فلا » «لقاء الباب المفتوح» (س١٣٦٩).

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«عَنْ قَوْلِهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ: «وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ » مَا مَعْنَى تَرَدُّدِ اللهِ؟

فَأَجَابَ: هَذَا حَدِيثٌ شَرِيفٌ قَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي صِفَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَقَدْ رَدَّ هَذَا الْكَلَامَ طَائِفَةٌ وَقَالُوا: إنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ بِالتَّرَدُّدِ وَإِنَّمَا يَتَرَدَّدُ مَنْ لَا يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ وَاَللهُ أَعْلَمُ بِالْعَوَاقِبِ، وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ اللهَ يُعَامِلُ مُعَامَلَةَ الْمُتَرَدِّدِ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ كَلَامَ رَسُولِهِ حَقٌّ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِاَللهِ مِنْ رَسُولِهِ وَلَا أَنْصَحَ لِلْأُمَّةِ مِنْهُ وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَحْسَنَ بَيَانًا مِنْهُ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْمُتَحَذْلِقُ وَالْمُنْكِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ؛ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَسْوَئِهِمْ أَدَبًا بَلْ يَجِبُ تَأْدِيبُهُ وَتَعْزِيرُهُ وَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ الظُّنُونِ الْبَاطِلَةِ؛ وَالِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَلَكِنَّ الْمُتَرَدِّدَ مِنَّا وَإِنْ كَانَ تَرَدُّدُهُ فِي الْأَمْرِ لِأَجْلِ كَوْنِهِ مَا يَعْلَمُ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ لَا يَكُونُ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ بِمَنْزِلَةِ مَا يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ مِنَّا فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ثُمَّ هَذَا بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا يَتَرَدَّدُ تَارَةً لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالْعَوَاقِبِ وَتَارَةً لِمَا فِي الْفِعْلَيْنِ مِنْ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ فَيُرِيدُ الْفِعْلَ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ وَيَكْرَهُهُ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَفْسَدَةِ لَا لِجَهْلِهِ مِنْهُ بِالشَّيْءِ الْوَاحِدِ الَّذِي يُحِبُّ مِنْ وَجْهٍ وَيَكْرَهُ مِنْ وَجْهٍ كَمَا قِيلَ:

الشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ أُفَارِقَهُ

=

هذه سنَّة الله جَلَّ وَعَلَا ماضية في النَّاس أجمعين، فقبض الله جَلَّ وَعَلَا روحه ﷺ، وهي أشرف روح قبضت روح نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه.

عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَقْبَلَ (أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ، حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ المَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمُ النَّاسَ

فَاعْجَبْ لِشَيْءٍ عَلَى الْبَغْضَاءِ مَحْبُوبُ

وَهَذَا مِثْلُ إرَادَةِ الْمَرِيضِ لِدَوَائِهِ الْكَرِيهِ بَلْ جَمِيعُ مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَكْرَهُهَا النَّفْسُ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَفِي الصَّحِيحِ: «حُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الْآيَةَ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَظْهَرُ مَعْنَى التَّرَدُّدِ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ قَالَ: « لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، فَإِنَّ الْعَبْدَ الَّذِي هَذَا حَالُهُ صَارَ مَحْبُوبًا لِلْحَقِّ مُحِبًّا لَهُ يَتَقَرَّبُ إلَيْهِ أَوَّلًا بِالْفَرَائِضِ وَهُوَ يُحِبُّهَا ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي النَّوَافِلِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيُحِبُّ فَاعِلَهَا فَأَتَى بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبِ الْحَقِّ؛ فَأَحَبَّهُ الْحَقُّ لِفِعْلِ مَحْبُوبِهِ مِنْ الْجَانِبَيْنِ بِقَصْدِ اتِّفَاقِ الْإِرَادَةِ بِحَيْثُ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ مَحْبُوبُهُ، وَالرَّبُّ يَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَ عَبْدَهُ وَمَحْبُوبَهُ فَلَزِمَ مِنْ هَذَا أَنْ يَكْرَهَ الْمَوْتَ لِيَزْدَادَ مِنْ محاب مَحْبُوبِهِ، وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَضَى بِالْمَوْتِ فَكُلُّ مَا قَضَى بِهِ فَهُوَ يُرِيدُهُ وَلَا بُدَّ مِنْهُ فَالرَّبُّ مُرِيدٌ لِمَوْتِهِ لِمَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَارِهٌ لِمُسَاءَةِ عَبْدِهِ؛ وَهِيَ الْمُسَاءَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بِالْمَوْتِ فَصَارَ الْمَوْتُ مُرَادًا لِلْحَقِّ مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا لَهُ مِنْ وَجْهٍ وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ مُرَادًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَرَجُّحِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ كَمَا تَرَجَّحَ إرَادَةُ الْمَوْتِ؛ لَكِنْ مَعَ وُجُودِ كَرَاهَةِ مُسَاءَةِ عَبْدِهِ وَلَيْسَ إرَادَتُهُ لِمَوْتِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ كَإِرَادَتِهِ لِمَوْتِ الْكَافِرِ الَّذِي يُبْغِضُهُ وَيُرِيدُ مُسَاءَتَهُ » «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٢٩).

حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَتيَمَّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَاللهِ لاَ يَجْمَعُ اللهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا المَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا»(١).

أي: أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كتب الله عليه هذه الموتة وأخبره بها في وحي يتلى ولا يزال يقرأ في كلام الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣]، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فالله جَلَّ وَعَلَا كتب عليه هذه الموتة وأخبره بها في آيات تتلى وتقرأ في كلام الله سبحانه وتعالى، وقبضت روحه فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَّا المَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا» يشير إلى آيات كثيرة في هذا الباب وفي تقرير هذا المعنى.

ثمّ قال للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تثبيتاً لهم: « مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ ».

وفي هذا من الموعظة ومن البيان أن العبادة ليست إلا للحي الّذي لا يموت وهو رب العالمين، أما الحي الّذي يموت، أو الحي الّذي قد مات، أو الجماد الّذي لا حياة له أصلاً؛ كل هؤلاء لا أحقية لهم في العبادة مطلقاً، العبادة حق للحي الّذي لا يموت وهو رب العالمين جل شأنه،

---

(١) رواه البخاري (١٢٤١).

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وكان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في دعائه ومناجاته لربه كما جاء في «الصحيحين»(١) أن نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يقول في دعائه: «اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ».

فنبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد تلك الحياة العامرة بالجد والاجتهاد والنصرة لدين الله والدعوة إلى الحق والهدى وبلاغ الدّين كما أمره الله سبحانه وتعالى به والأمر بالهدى والدعوة إلى صراط الله المستقيم؛ بعد هذه السنوات الحافلة بالخير والحياة المليئة بالجد والنصح والدعوة وبيان الدّين، وهي أعمر حياةٍ وُجدت في العبودية والطّاعة لله سبحانه وتعالى بعد ذلك قبضت روحه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وفارق هذه الحياة الّتي هي الحياة الدّنيا.

وهو ﷺ كما دلت النصوص ودل الواقع قد مات؛ وهذا يتلى في القرآن ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ فهو باعتبار هذه الحياة الدّنيا مات وفارقت روحه جسده ﷺ، ودفن عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قبره وهو في المكان لذي دفن فيه من حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، دفن ﷺ بعد أن

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

غسله الصحابة وكفنوه وصلوا عليه أوزاعـًا ثمّ دُفن؛ أهالوا عليه التراب، قالت ابنته فاطمة: «يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ التُّرَابَ!!»(١).

لكنها سنة الله جَلَّ وَعَلَا في البشر أجمعين، وهي ماضية ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ [عبس: ٢١-٢١]، وقبر الميت ودفنه هو كرامة له، قبره منة الله سبحانه وتعالى ودفنه وإهالة التراب على الميت هذه كرامة للميت.

الشاهد أن سنة الله سبحانه وتعالى ماضية في عباده وفي خلقه، وكما قال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كلمته العظيمة:

«مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ»، ولا يزال الكثير من الضلال الزائغين المنحرفين عن صراط الله المستقيم لا يزالون يصرون على صرف حق الله للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيره من عباد الله! يدعونهم ويستغيثون بهم ويطلبون منهم ويعرضون عليهم الحاجات والرغبات والطلبات، بل بعضهم يرسل المكاتيب إلى قبر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أريد ولداً، أريد مالاً، أريد صحة، أريد عافية.. الخ".

«مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ »: العبادة والدُّعاء والرجاء والذبح والاستغاثة والنذر

---

(١) رواه البخاري (٤٤٦٢).

وكل هذه العبادات لا يُتجه فيها ولا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، أما نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو عبدٌ لا يُعبد، بل رسول يطاع ويُتبع، أما العبادة ليست له ولا جزء يسير منها ولا قليل، العبادة كلها حقٌ لله، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «جَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلاً؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1].

لا يرضى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُرفع فوق منزلته الّتي أنزله الله إياها.

فمات صلوات الله وسلامه عليه، ودفن ﷺ وأهيل على جسمه التراب، سنة الله جَلَّ وَعَلَا ماضية لكن دينه باقٍ؛ ولهذا قال المصنّف رحمه الله تعالى: «**وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ودينُهُ باقٍ**»؛ ولهذا من أراد لنفسه الفلاح والسعادة في الدّنيا والآخرة فعليه أن يتمسك بدينه فدينه باق، وأما هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد مات ودفن في قبره وانقطع عمله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »[2]، ولهذا بعد موته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يستغفر لأحد ولا يدعو لأحد ولا يسأل الغيث لأحد، والصحابة في حياته ﷺ يأتون إليه ويطلبون منه،

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

يطلبون منه الدُّعاء؛ «أدع الله أن يغيثنا»، «أدع الله أن يغفر لي» يطلبون منه الدُّعاء، لكن بعد موته لا يُعرف عن أحد منهم أنه كان يأتي عند قبره ويقول: "أدع الله لي أو أطلب من الله أن يغفر لي" أو نحو ذلك هذا كله لا يُعرف، بل جاء في «صحيح البخاري» قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَا رَأْسَاهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ فَأَسْتَغْفِرَ لَكِ وَأَدْعُوَ لَكِ..»(١)؛ أي: أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد أن مات لا يستغفر لأحد.

ولهذا يخطئ بعض النَّاس ويقرأ الآية وينزِّلها في غير بابها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤]، فيقرؤون الآية عند قبره ثمّ يقولون: "استغفر لنا يا رسول الله"!! هذا ليس من الأمور المشروعة ولا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يفعلون ذلك إطلاقًا، هذا كان في حياته، وسياق هذه الآيات من يقرأها في [سورة النساء] يجد أنها تتعلق بالمنافقين؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾؛ فيأتي أناس وينزلون هذه الآية بغير بابها ويلغون آيات كثيرة وأحاديث عديدة ثابتة عن نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تجلي هذا المقصود، ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الصحابي الجليل كان إذا جاء قبر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زائراً لا يزيد على أن يقول: «السَّلَامُ

---

(١) رواه البخاري (٥٢٣٤).

عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ»[(١)] ثمّ ينصرف.

فسيرة النَّبيّ عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ وحياته المباركة الّتي هي أبرك حياة ينبغي أن تُدرس وأن تُفقه وأن تجعل موضع اقتداء وائتساء؛ بدل من أن يحال الدّين إلى أنواع من البدع وصنوفٍ من الضلالات وربما أعمالٍ شركيات ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان.

قال: «**ودينُهُ باقٍ**» أي: دينه عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ باقٍ وهو محفوظ إلى قيام الساعة بحفظ الله جَلَّ‌وَعَلَا، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[(٢)].

ما هو دينه؟ قال: «**وهٰذا دينُه، لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه، والخيرُ الّذي دلّهَا عليْه: التّوحيد وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاه، والشَّرُّ الّذي حَذَّرَهَا منه: الشِّرك وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ**»؛ هذه خلاصة دين النَّبيّ عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ وزبدة ما جاء به ﷺ تجتمع في هذه الكلمات؛ قال: «لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه»، وقد جاء في حديث صحيح خرجه الإمام مسلم رحمه في «صحيحه» أن النَّبيّ

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٦٧٢٤).

(٢) رواه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (٥٠٦٣).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ »[(١)]؛ وهذا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فعله على التمام والكمال، فبلَّغ البلاغ المبين، وجاهد في الله حق جهاده حتّى أتاه اليقين، وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه، ولا شراً إلا حذرها منه صلوات الله وسلامه عليه؛ فدلها وأرشدها إلى كل خير، ونهاها وحذرها من كل شر، وأعظم الخير وأجلُّه على الإطلاق: توحيد الله تعالى، وقد عرفنا أنه مضى في التَّوحيد عشر سنوات كاملات، ثمّ بعد ذلك مضى داعياً إلى التَّوحيد وإلى الفرائض والشرائع الأخرى الّتي أمره الله سبحانه وتعالى بأن يبلغها.

قال: «**لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه، والخيرُ الّذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيد وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ**»التَّوحيد هو الأساس، وهو إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة وإخلاص الدّين له، أمرهم بالتَّوحيد وهو أعظم الأوامر وأمرهم أيضًا بالأمور الأخرى قال: «وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ» مثل الصَّلاة والصيام والزَّكاة والحج والصدقة وبر الوالدّين وصلة الأرحام والصدق والوفاء والأمانة وكل الأعمال الصالحات الّتي يحبها الله ويرضاها ظاهرة كانت أو باطنة.

قال: «**والشَّرُّ الّذي حَذَّرَهَا منه: الشِّرك**» وهو تسوية غير الله بالله، وجعل

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

الأنداد مع الله يُصرف لهم من الحقوق ما ليس إلا لله تبارك وتعالى، وهو أعظم الذنب وأكبر الجرم وأظلم الظلم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: ١٣].

قال: «**والشَّرُّ الّذي حَذَّرَهَا منه: الشِّرك وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ**» أي من المعاصي والكبائر والذُّنوب والموبقات كالقتل والسرقة والزنا والكذب والغش وغير ذلك مما جاء عنه ﷺ النهي عنه والتحذير منه، والّذي نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه: كبائر وصغائر، وأهل العلم كتبوا في ذلك كتابات نافعة، ودائماً في هذا المقام أنصح بقراءة كتاب «الكبائر» للذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأيضاً كتاب «الكبائر» للمصنف شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فالعلماء كتبوا كتباً خاصة في النواهي؛ لأنَّ النواهي يجب على المسلم أن يعرفها ليجتنبها، كما أنه مطالب بفعل الأوامر ليفعلها، أما من لم يعرف ما نهى الله عنه وما حرمه الله عليه كيف يتقيه، وقد قيل قديماً: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟! »، وهذا حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما جاء في «الصحيحين» قال: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي »[١]، فمعرفة الشر من أجل توقي الشر والبُعد عنه وعدم الوقوع فيه أمر مطلوب من المسلم؛ ولهذا ترى النَّاس

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

عندما يعيشون حياة الجهل يقعون في أنواع من المحرمات ربما لا يدري بعضهم أنها محرمة، وربما بعضهم لا يرى حجم عقوبتها عند الله سبحانه وتعالى، ولهذا يحتاج المسلم أن يغتنم وجوده في هذه الحياة الدّنيا أن يقرأ وأن يعرف الكبائر ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فمطلوب من المسلم أن يعرف الكبائر وأن يجتنبها وأن يحذرها ويحذِّر منها.

وأكبر الكبائر الشِّرك بالله كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»[1]، وجاء عنه ﷺ في هذا المعنى أحاديث كثيرة.

قال رحمه الله تعالى: «**بعثَهُ اللهُ إلى النَّاس كافَّة**» إلى النَّاس: أي إلى العرب والعجم إلى الذكور والإناث، إلى الصغار والكبار، بعثه الله جَلَّ وَعَلَا إلى الثقلين؛ إلى الإنس والجن.

قال رحمه الله تعالى: «**بعثَهُ اللهُ إلى النَّاس كافَّة وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ**» افترض الله تعالى طاعته ﷺ؛ لكن تغير المفهوم عند بعض النَّاس وتحولت الطَّاعة إلى عبادةٍ له، والله جَلَّ وَعَلَا افترض على النَّاس طاعته واتباع أمره ولزوم ما جاء به، لا أن يُتخذ نداً مع الله يُدعى ويستغاث به وتصرف له من العبادات ما لا يصرف إلا لله جَلَّ وَعَلَا.

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

قال: «**وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ الجنِّ والإنس**» وهذا أمر أجمع عليه المسلمون قاطبة؛ أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بُعث إلى الثقلين الإنس والجن، ورسالته عامة، بينما كان الأنبياء قبله يُبعث كل نبي في قومه خاصة، وبعث النَّبيّ ﷺ للنَّاس عامة وللثقلين كافة.

قال: (**والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾**»)

وجاءت آيات في القرآن تدلّ على أن بعثته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شاملّة للجن؛ مثل الآية الّتي في سورة الأحقاف ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلى آخر الآية والآيات بعدها، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بُعث للثقيلين الإنس والجن، وافترض على الجميع طاعته ﷺ، وأخبر أن من أطاعه دخل الجنّة ومن عصاه دخل النّار.

قال: «**وأكملَ اللهُ به الدّين**»؛ ونزل عليه في ذلك تنصيصاً وتبييناً قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣] «الْيَوْمَ» في هذه الآية المراد به يوم عرفة، لأنَّ هذه الآية الكريمة نزلت على النَّبيّ ﷺ عشية عرفة وهو واقفٌ بعرفة ويهلل ويذكر الله، ففي تلك الأثناء نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾، وجاء في «الصحيحين» عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ

فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَؤُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا.

قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟

قَالَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾.

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»[1]، فاليهود أدركوا عظمة هذه الآية وفضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بهذه الآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ فيدركون أن هذه الآية عظيمة جدًّا، ولكن ترى في المسلمين من لا يعي هذه الآية! الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ ثمّ يتركون الدّين الّذي بُعث به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويعبدون الله ببدع ليست من الدّين، ليس فيها قرآن ولا سنة بل هي محدثة داخلة في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنا هَذا ما لَيس مِنهُ فهو رَدٌّ»[2]، وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيهِ أَمرُنا فَهو رَدٌّ»[3].

ولهذا لم يفهم هؤلاء هذه الآية وفي هذا قال الإمام مالك إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى: «مَن ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمداً خان الرسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فما لَم

---

(١) رواه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) رواه مسلم (١٧١٨).

يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»[١]، قال: «لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾»؛ إذا كان الدّين كاملا فلماذا البدع والإحداث والاختراع؟ فهو كامل لا يُبحث له عن تكميل، لأن الّذي يُبحث له عن تكميل الناقص، أما ديننا كامل لا نقص فيه ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فهو لا يحتاج إلى مكملات.

فالّذي يعبد الله سبحانه وتعالى ببدع ليس عليها دليل في القرآن ولا في السنة أين هو من هذه الآية الكريمة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؟ وما لم يكن دينًا زمن محمَّد ﷺ وأصحابه فلن يكون اليوم دينًا ولن يكون دينًا إلى أن تقوم الساعة، وقد قال كذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لن يصلح آخر هذه الأمَّة إلاَّ بما صلح به أوَّلها»[٢]، وأول الأمة إنَّما صلحوا بالاتساء والاتباع وليس بالابتداع، يقول عبد الله بن مسعود رَضِوَالِلَّهُ عَنْهُ: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر»[٣].

فالشاهد أن نفراً من اليهود قالوا لعمر: «آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَؤونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا» فقال عمر رَضِوَالِلَّهُ عَنْهُ: «قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ

(١) «الاعتصام» (١/ ٢٨).

(٢) انظر: «الشفا» (٢/ ٧١).

(٣) رواه اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٠٦).

يَوْمَ جُمُعَةٍ »، نزلت عليه هذه الآيات: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾.

كم عاش ﷺ بعد هذه الآية الّتي فيها الإخبار بأن الدّين قد كمُل؟

الجواب: نزلت عليه هذه الآية في يوم عرفة التاسع من شهر ذي الحجة، بعدها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عاش واحد وثمّانين يومـًا؛ وما نزلت آيات فيها أحكام (أوامر ونواهي)، أو أحكام أخرى لم لأنَّ الآية نزلت معْلِمةً النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن الدّين قد كمل وتم ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾؛ ولهذا عاش بعدها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واحد وثمّانين يوم لم ينزل عليه فيها أمر ولا نهي، لم ينزل عليه شرائع وأحكام، لأنَّ الأحكام اكتملت وتمت في ذلك اليوم المبارك الّذي هو سيد الأيام وخير الأيام.

ثمّ ترى في النَّاس بعد ذلك من يطْرحون هذه الآية ويلغون دلالتها ويشتغلون بالتعبد بالبدع والمحدثات والمخترعات وأمور ما أنزل الله سبحانه وتعالى!

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أي أن دين الله ﷻ كمل، والكامل لا يحتاج أن يكمل، الّذي يحتاج أن يكمل هو الناقص أما دين الله فقد كمل.

﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾: وهذه أكبر نعمة وهي كمال الدّين والهداية له.

قال: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ أي فارضوه لأنَّفسكم ولا تقبلوا دينـًا غيره ولا ترضوا لأنَّفسكم دينـًا سواه فإنه الدّين الّذي رضيه الله لعباده ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾، ولهذا جاء في آية أخرى أن الله يقول: ﴿ وَمَن

﴿يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

قال: «**والدَّليل على موتِهِ** ﷺ» هذه تعتبر قضية كبيرة الآن من القضايا الكبار الّتي جهلها كثير من النَّاس وضُلِّلت فيها كثير من الأفهام، وأصبح يغالط النَّاس في حقيقة يشهد لها القرآن الكريم ويشهد لها أحاديث النَّبيّ ﷺ وسيرته وواقع الأمر.

قال: «**والدَّليل على موتِهِ** ﷺ **قولُهُ تعالى**: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾»؛ «﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾» أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك ثمّ توفاه الله جَلَّ وَعَلَا لما انتهت مدته الّتي كتبها الله سبحانه وتعالى له في هذه الحياة؛ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قال: «**والدَّليل على موتِهِ** ﷺ **قولُهُ تعالى**: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾» أي إنك أيها النَّبيّ ستموت، وقد مات عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكان ﷺ إذا زار القبور يقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَلاَحِقُونَ أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ»[١].

قال: «**والنَّاس إذَا ماتُوا يُبْعثُونَ، والدَّليل قولُهُ تعالى**: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ

---

(١) رواه مسلم (٩٧٥).

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾» الضمائر هنا كلها تعود على الأرض؛ «منها» و«فيها» و«منها».

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ لأنَّ بني آدم أصلهم من آدم وآدم من تراب، خلقه الله سبحانه وتعالى من التراب ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي من الأرض خلقناكم.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: أن كل واحد منكم أيها النَّاس سيموت ويعاد إلى الأرض، أي: أنه يدفن فيها.

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: أن الكل سوف يبعث؛ تنشق الأرض عمن فيها ويبعثون قياماً لرب العالمين، مثل هذه الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

قال: «وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾» الإشارة هنا إلى مبدأ خلق بني آدم من الأرض، لأنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقه الله جَلَّ وَعَلَا من تراب؛ هذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأرض؛ حيث من مات يُدفن في الأرض ويوارى بالتراب.

قال: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يعيدكم وتبعثون من القبور وتقومون جميعاً لرب العالمين للجزاء والحساب والعقاب.

ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبعدَ البَعْثِ محاسبُونَ**» أي بعد بعث النَّاس وقيامهم لرب العالمين الكل سيحاسب؛ ويجزى بعمله.

قوله: «محاسبُونَ» أي على الأعمال حسنها وسيئها، صالحها وفاسدها.

«ومَجزيُّونَ بأعْمالِهِمْ» أي: كلٌ يجازى بعمله إن خيراً أو شراً، سواء قلَّ العمل أو كثر.

قال: «والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾» فالكل مجزي بعمله؛ المحسن يجازى بالإحسان ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]، والمسيء يجازى بالعقوبة ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: ١٠]، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

قال: «ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كفَرَ» أي: من زعم وادَّعى أنه لا بعث وليس هناك جزاء وحساب وقيام بين يدي رب العالمين وكذَّب بذلك فهو كافر.

«والدَّليل قولُهُ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾» أي: أن الكفّار أنكروا البعث وأنهم يبعثون ويقومون للحساب ويجازون على الأعمال.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ أي: تُخبرون بأعمالكم كلها محصاة عليكم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾

[الأنبياء: ٤٧] ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ ﴾ أي هيِّن وسهلٌ وليس بعسير بل هو يسير على الله تبارك وتعالى.

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ « بَلَىٰ وَرَبِّى » هذا قسم وحلف بالله أمره الله سبحانه وتعالى به، أمره أن يقسم بالله جَلَّ وَعَلَا على البعث.

وفي القرآن آيات ثلاثة فيها قسم النَّبيّ ﷺ وحلفه على البعث:

١. منها هذه الآية.

٢. والآية الثانية هي قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣].

٣. والثالثة قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣].

فهذه ثلاث آيات في القرآن كلها يأمر فيها الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يقسم بالله على هذه الحقيقة؛ وهي أن الساعة آتية، وأن النَّاس يبعثون، وأنهم سيقومون بين يدي رب العالمين، وأنه سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وهذا الجزاء والحساب والقيام بين يدي رب العالمين المذكور في هذه الآيات وفي غيرها أمرٌ سندركه جميعًا وسنلقاه وسنقف جميعًا بين يدي الله تبارك وتعالى وسيحاسب العباد على أعمالهم؛ ولهذا الكيِّس من عباد الله من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها

وتمنى على الله الأماني.

وعلى كل عاقل أن يدرك أن الآخرة مقبلة وأن الدّنيا مدبرة، وأن الآخرة لها أبناء وأن الدّنيا أيضًا لها أبناء، وأن الواجب على العاقل أن يحرص أن يكون من أبناء الآخرة الباقية ولا يكون من أبناء الدّنيا الفانية، وأن يعلم أن هذه الحياة ميدان للعمل، فيها عمل ولا حساب، ويوم القيامة فيه حساب ولا عمل؛ فينبغي أن يعد للحساب عدَّته، وأن تكون العدة هي الإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا والاتباع للرسول ﷺ، يجاهد ويرابط ويسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبته على الحق والهدى إلى أن يلقى الله جَلَّ وَعَلَا وهو راض عنه.

وتأمل على سبيل المثال هذه الآية: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢٠٣]؛ فإذا علمت واستيقنت واستحضرت أنك ستُحشر، وأنك ستلقى الله سبحانه وتعالى، وأنك ستفارق هذه الحياة الدّنيا: تفارق الأولاد، تفارق التجارة، تفارق الأموال تفارق كل شيء، وأنه لن يدخل معك في قبرك من دنياك إلا عملك؛ أما الأولاد لا يدخلون، والصالح منهم من الأولاد الّذي يأتي إلى القبر ويشارك في دفن والده وتشييعه ويدعو له «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١)،

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

لأن بعضهم قد لا يأتي معه حتّى عند قبره، وأما تجارتك وأموالك وبيوتك إلى آخر ذلك كل هذا بمجرد ما تخرج روح الإنسان من جسده تنتهي هذه الأمور في حقه ولا يكون مالكًا لشيء منها، ولا يتبعه شيء إلى الآخرة، لو كانت ريالاً واحداً أو كانت ملايين الريالات؛ يستوي الغني والفقير، والملك والمملوك، والرئيس والمرؤوس، والتاجر وغير التاجر، كلهم إذا خرجت أرواحهم من أجساهم لم يصبح معهم ما كانوا يمتلكون من أمور الدّنيا؛ بل لا يدخل معه من أملاكه من أمور الدّنيا إلا الكفن، والكفن بعد أيام يبلى تأكله الأرض وما يبقى معه، ويبقى بدونه، ولا يدخل مع الإنسان في قبره إلا العمل، وهو قبره يأتيه عمله الصالح؛ إن كان عملاً صالحًا يأتيه كما جاء في الحديث بصورة رجل صالح «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»، والعمل السيئ يأتي بصورة رجل سيء ويتأذى الإنسان منه في قبره «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ»(١)، لكن فات الفوات ولا ينفع الندم، والعاقل يستعد.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٦١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٥٥٨).

من جميل ما يذكر ويؤثر ويستفاد به جدًّا وينتفع: أن أحد السلف أراد أن يعظ رجلاً فقال له: «انطلق بنا إلى أهل الآخرة نحدث بقربهم عهداً، فانطلقت معه فأتى إلى المقابر فجلسنا إلى بعض تلك القبور فقال: ما ترى هذا متمنيًا لو تمنى؟

قلت: أن يرد والله إلى الدنيا فيستمتع من طاعة الله ويصلح في عمله، قال: فها نحن، ثم نهض فجد واجتهد فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات».

إذا دخل الإنسان القبر ودُفن لا يمكن أن يُرجع إلى الدّنيا ليصلح حاله؛ ولهذا يغتنم الإنسان فرصة وجوده في هذه الحياة وروحه في جسده، فيستطيع أن يذكر الله، ويعبد الله، يصلي، يصوم، يجتنب المحرمات والمنهيات، يجاهد نفسه على الصلاح والتقى والعبادة لله تبارك وتعالى وربه جَلَّ وَعَلَا راض عنه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، والدَّليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وأولهم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وآخرهم محمَّد ﷺ، وهو خاتم النَّبيّين، والدَّليل على أن أولهم نوح قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ وكل أمة بعث الله إليها رسولا من نوح إلى محمَّد يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت. والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾، وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع. والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة: إبليس - لعنه الله -، ومن عُبد وهو راض، ومن دعا النَّاس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والدَّليل قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ وهذا هو معنى لا إله إلا الله، وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصَّلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

والله أعلم، وصلى الله على محمَّد وآله وصحبه وسلم.

الشرح:

قال المصنّف رحمه الله تعالى وغفر له: **«وأرسل الله جميع الرسلِ مبشرينَ ومنذرين»** بيّن هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتفاقَ جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم على البشارةِ والنذارة؛ البشارةِ بالتَّوحيد والنذارةِ من الشِّرك، البشارةِ بالجنّة وثواب الله لمن عمل بالتَّوحيد وكان من أهله، والنذارة من النّار لمن كان من أهلِ الشِّرك الناقضين للتوحيدِ الناكثينَ للإيمان. قال: «وأرسل اللهُ جميع الرسل مبشرين ومنذرين» ثمّ ذكر الدَّليل على ذلك قال:

«**والدَّليل قوله تعالى:** ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾» أي بعث الله سبحانه وتعالى الرسل للبشارةِ والنذارة، مبشرين النَّاس ومنذرينهم، يبشرون النَّاس بالجنّة لمن عملَ بعمل أهل الجنّة، ورأسُ عملِ أهل الجنّة توحيد الله، ومنذرين من النّار ومن العمل بعمل أهل النّار، ورأس أعمال أهل النّار الشِّرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لئلا يقولَ النَّاس يوم القيامة ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، فالله سبحانه وتعالى أقام الحجة وأبان المحجة وأوضح السبيل ببعثة رسله وأنبياءه عليهم صلوات الله وسلامه، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

قال: «**وأولهم نوحٌ** عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وآخرهم محمَّد** ﷺ» أولُ الرسل أي: إلى أهل الأرض هو نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر المصنّف رحمه الله تعالى الدَّليل على ذلك، وهو قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ كما أوحينا إلى أولهم ثمّ توالوا بعده وبُعثت الرسل تترا بعده، فكان هو أولهم، ولهذا قال: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وجاء في «الصحيحين» في ذكر حديث الشفاعة الطويل أن النَّاس يوم القيامة «فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ

اللهُ عَبْدًا شَكُورًا.. »(١)، فهذا الحديث مع الآية الكريمة الّتي ساق المصنّف رحمه الله تعالى فيهما الدَّليل على أن نوحـًا عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول رسولٍ.

ثمّ ختموا بمحمَّد عليه الصَّلاة السلام كما قال المصنّف هنا «**وآخرهم محمَّد** ﷺ»؛ والدَّليل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وجاء في «الصحيحين» وغيرهما عنه ﷺ أنه قال: «وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»(٢)؛ فبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خُتمت النبوات فلا نبي بعده صلوا ت الله وسلامه عليه.

أولهم نوحٌ وآخرهم محمَّد ﷺ، وبين هذين الرَّسولين بُعث عددٌ كبيرٌ من المرسلين، جاء في بعض الأحاديث إشارة إلى هذا العدد وحسَّنه بعض أهل العلم، وهو ما رواه ابن أبي حاتم وغيره من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ وَفَّى عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ؟

قَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا»(٣) لأنَّ القاعدة عند أهل العلم: أن كل رسولٍ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٦٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٧١)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٦١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

نبي، وليس كل نبيٍ رسولا.

فإذاً بعث الله ﷻ النَّبيّين والمرسلين رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنَّاس على الله حجة بعد الرسل، وهم كما جاء في الحديث جمٌ غفير، وعدد كثير، إقامةً للحجة وإزالةً للمعذرةِ وإبانةً للسبيل.

قال: «**وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوحٍ إلى محمَّد يأمرهم بعبادةِ الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**»؛ وهنا يقرر رحمه الله تعالى اتفاق دعوة النَّبيّين على الدعوة إلى التَّوحيد والتحذيرِ من الشِّرك، فكلمةُ النَّبيّين في هذا واحدة ولا خلافَ بينهم، فهم دعاةٌ إلى توحيد الله وإخلاص الدّين له، وإلى التحذير من الشِّرك والبراءة منه ومن أهله، فهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين النَّبيّين وكلمتهم فيه واحدة، والدَّليل كما قال المصنّف قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي أن الرسل كُلَهم دعاةٌ إلى عبادة الله سبحانه تعالى وهي توحيده، وإلى نبذ الطاغوت وهو الشِّرك والكفرُ به سبحانه وتعالى كما سيأتي إيضاحٌ لذلك وبيان عند المصنّف رحمه الله تعالى.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن تقرر هذه الحقيقة وتجلي هذا الأمر، كقول ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله سبحانه:

﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥]، كذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ﴿خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي الرسل، ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾، أي من أمامه، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾، أي قبله، اتفقوا كلهم على هذا الأمر ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الّذي هو إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى والتحذير من الإشراك به سبحانه وتعالى.

ولهذا جاء في القرآن الكريم عند ذكر قصص الأنبياء أن أول شيءٍ يبدأ به الأنبياء أقوامهم في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى هو ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فهذه الكلمة هي أولُ كلمةٍ يسمعها الأقوام من الأنبياء ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾؛ فكلمةُ الأنبياء واحدة، فكلهم دعاةٌ إلى توحيد الله جَلَّ وَعَلَا وإخلاص الدّين له، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[1].

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى» «فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

«أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى»: أي شرائعنا مختلفة، لأنَّ الشريعة والأحكام قد تختلف من نبي إلى آخر، كما قال الله سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

«وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»: أي عقيدتنا واحدة وهي الدعوة إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وإخلاص الدِّين له، أما التَّوحيد فالأنبياء كلمتهم فيه واحدة، العقيدة الكلمة فيها عند الأنبياء واحدة ليس بينهم خلافٌ في شيءٍ من هذا.

قال: «**وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوحٍ إلى محمَّد؛ يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت**»؛ لاحظ أن دعوة الأنبياء كلهم قائمة على أمرٍ ونهي، يأمرهم وينهاهم، كل نبي يأمر وينهى، يأمرهم بالتَّوحيد، وينهاهم عن الشِّرك أو ينهاهم عن الطاغوت.

وبهذا يُعلم أن أمر الإنسان ودينه وأعماله وجميع طاعاته لا تستقيم إلا إذا بُنيت وأسست على هذا الأمر والنهي؛ الأمر بعبادة الله، والنهي عن عبادة الطاغوت، أي أن يكون موحداً لله في عبادته، بريئًا من الشِّرك وعبادة الطاغوت، فإن لم يكن فيه هذان الأمران لم يُقبل له عمل ولم ينتفع بطاعة، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وهذا يبين لنا المكانة العظمى والمنزلة العليّة للتوحيد والإخلاص والبراءة من الشِّرك، وأنهما

لهذا الدّين بمثابة الأساس والأصل الّذي يقام عليه دين الله سبحانه وتعالى.

وهنا أنقلُ كلاماً عظيماً نافعاً للشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ في حاشيته على «الأصول الثّلاثة»؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذه دعوة الرسل وزبدة الرسالة وبه تعرف عظمة شأن التوحيد، ومعرفتك عظمته بأن تصرف همتك إليه، وإلى معرفته والعمل به غاية جهدك وإلى معرفة ما يضاده وما سواه من أنواع العلوم الفروعية بعد ذلك، فيهتم الإنسان غاية الاهتمام بمعرفة أصل الدين إجمالا قبل الواجب من الفروع الصلاة والزكاة وغير ذلكن فلا تصح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل، فلا بد من معرفة أصل الدين إجمالا ثم معرفة فروعه تفصيلا. وفي حديث معاذ لما بعثه إلى اليمن قال له: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ..»[١]، وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به فلا يدعوهم للصلاة إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام فإن الصلاة لا تنفع ولا غيرها بدون التوحيد فإنه لا يستقيم بناء على غير أساس، ولا فرع على غير أصل والأصل والأساس هو التوحيد والصلاة وإن كانت هي عمود الإسلام فمع ذلك لم تفرض إلا بعد الأمر بالتوحيد بنحو عشر

---

(١) رواه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

سنين، ومما يبين أن التوحيد هو الأصل كونه يوجد من يدخل الجنة، ولو لم يصل ركعة واحدة وذلك إذا اعتقد التوحيد وعمل به ومات متمسكا به كأن يقتل قبل أن يصلي أو يموت، والصلاة لا تنفع وحدها ولو صلى وزكى وصام إذا لم يعتقد التوحيد، وبذلك يعرف عظم شأن التوحيد وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد والعمل به وما دخل الشيطان على من دخل ولا مزق عقول من مزق ولا وقع ما وقع إلا من آفة قولهم يكفي النطق بالشهادة ومجرد المعرفة حتى إن من علمائهم من لا يعرف التوحيد أصلا، وذلك لكونهم ابتلوا بالشرك وعبادة الأوثان وكثرة الشبهات الباطلة فبذلك خفي التوحيد على كثير ممن يدعي العلم لعدم المعرفة به، وإلا فمعرفة التوحيد والشرك من أهون ما يكون وأسهله إجمالا كما في زمن الصحابة، فإنهم كانوا يعرفون التوحيد والشرك.

فمن قال لا إله إلا الله يترك الشرك ويعلم أنه باطل مناف لكلمة الإخلاص، ولهذا لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد وقال: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾، وأما حين كثرت الشبهات صعب معرفة التوحيد والتخلص من ضده وكثر النفاق وصار الكثير يقولها ويعبد مع الله غيره، فالله المستعان»[1].

هذا كلام عظيم في بيان أهمية التَّوحيد ومكانته العظمى وأن أمر

(١) «حاشية الأصول الثلاثة» (ص١٤٥).

التَّوحيد واضح وشأنه بيِّن، لكن لما وُجدت في بعض المجتمعات ترويج الشبهات الضالة والأهواء الباطلة أُبعِدت العقول عن صفاء التَّوحيد ونقاء الإيمان إلى ضلالاتٍ وشركيات وأباطيل ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان، وأصبح يوجد من يقول «لا إله إلا الله» ولكنه لا يقوم بحقيقة هذه الكلمة من الإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى والبراءةِ من الشِّرك، بل في اللحظة الواحدة تسمعه يقول «لا إله إلا الله» ومباشرة بعد كلمة لا إله إلا الله يستغيث بغير الله ويطلب مدده أو شفائه أو صلاحه وهداية ولده من غير الله تبارك وتعالى!! فأين هؤلاء من نور هذه الكلمة وضياء التَّوحيد وسنا الإيمان الّذي تدلّ عليه هذه الكلمة العظيمة المباركة؟.

ثمّ قال رحمه الله تعالى: «**وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله**»؛ ومرّت معنا الآية في أن هذا هو زبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتهم، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال: «**وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله**» افترض عليهم: أي أن هذا الأمر الّذي هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فرضٌ لازم وواجبٌ متعين وأمرٌ متحتم على كل مسلم ومسلمة، ولا سعادة ولا نجاة من النّار ولا فوز برضا الله سبحانه وتعالى إلا بتحقيق هذا الأصل، ولهذا قال الله تعالى بعد آية الكرسي ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ

بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي: استمسك بالتَّوحيد وبالدِّين الحق، الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هذان فرضان متحتمان؛ افترض الله على العباد أن يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا بالله، ومعنى ذلك كما قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في بعض رسائله: «صفة الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادةِ غير الله وتتركها وتبغضها وتكفِّر أهلها وتعاديهم»[1] هذه صفة الكفر بالطاغوت.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإله المعبودُ وحده دون من سواه وتخلص جميعَ أنواع العبادة كلها له وتنفيها عن كل معبودٍ سواه، وتحبَ أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغضَ أهلَ الشِّرك وتعاديهم» هذا معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله سبحانه وتعالى.

ثمّ نقل المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلاً مفيداً في هذا الباب عن الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، والنقل من كتابه «إعلام الموقعين» أنه قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع**»[2] هذا تعريف الطاغوت، والكلمة في أصلها مشتقةٌ من الطغيان، الطغيان: تجاوز الحد، فالطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع.

«من معبودٍ» إذا تجاوز الإنسان حده في مخلوقٍ من مخلوقات الله

(١) «مجموعة التوحيد والإيمان» (ص ٣٧٦).

(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

فجعله معبوداً مع الله يصرف له العبادات من دعاء أو رجاء أو يذبح أو غير ذلك من أنواع العبادة؛ كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو «متبوعٍ» أي في معاصي الله سبحانه وتعالى أو في ما حرم، أو «مطاعٍ» من دون الله في التحليل والتحريم في أن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله.

و الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر هذه الأمور الثّلاثة في تعريف الطاغوت قال: «فإذا تأملت طواغيت العالم فإذا هي لا تخرج عن هذه الثّلاثة»، قوله «فإذا تأملت طواغيت العالم» هذا إشارة إلى أن الطواغيت كثر لكن هذه الثّلاثة تجمعهم، ولا يخرج كل طاغوت في العالم عن هذه المعاني الثّلاثة وهي الواردة في قوله: «ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والطواغيت كثيرة**» أي عددهم كثير؛ لأنَّك إن تأملت كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ السابق يفيد هذا المعنى: يفيد كثرة الطواغيت.

قال: «**ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله**» أول هؤلاء الطواغيت وأشرهم وأعتاهم وأكثرهم طغياناً إبليس لعنه الله؛ فهو أشد الطواغيت، لأنَّه الداعية الأول للشرك ولعبادة غير الله سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]، فالشيطان الداعية الأول وأكبر الدعاة إلى الشِّرك بالله سبحانه وتعالى؛ يدعو إلى أمورٍ كثيرة، لكن أهم شيءٍ يدعو إليه ويجِدُّ ويجتهد في نيله ويحرّض جنوده عليه الشِّرك بالله سبحانه وتعالى

وعبادة الطواغيت.

قال: «**ومن عبد وهو راضٍ**» من عُبد بالدُّعاء والذبح والنذر والرجاء وغير ذلك وهو راضٍ، أما من يُعبد وهو ليس راضٍ لا يكون طاغوتـًا، وعبادته طغيان ممن عَبد غير الله سبحانه وتعالى لأنَّه تجاوزُ للحد، كفرٌ بالله سبحانه وتعالى، لكن من عبد من دون الله وهو غير راضٍ مثل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عُبد من دون الله وهو غير راض، وعزير عَلَيْهِ السَّلَامُ عُبد وهو غير راض، والملائكة عُبدت وهي ليست راضية، فكل من عُبد من ملكٍ أو نبي أو ولي من الأولياء من دون الله سبحانه وتعالى فليس داخلاً في الباب[1].

فالطاغوت: من عُبد من دون الله وهو راضٍ بأن يُعبد، أي وهو يقر هذا الأمر غير منكرٍ له، والملائكة والأنبياء وأولياء الله عَزَّوَجَلَّ الصادقين كلهم

---

(١) كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة الأنبياء].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد نص تعالى على أنهم وما يعبدونه من دون الله في النار جميعـًا في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ الآية، وأخرج من ذلك الملائكة وعيسى وعزيراً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾...﴾ الآية؛ لأنهم ما عبدوهم برضاهم، بل لو أطاعوهم لأخلصوا العبادة لله وحده جَلَّ وَعَلَا» «أضواء البيان» (٢/ ٤٢٥).

يبرؤون ممن عبدهم، ويعلنون البراءة بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة من هؤلاء؛ لأنَّهم ليسو راضين عن ذلك، حتّى نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك؛ لأنَّ العبادة حقٌ لله، لا يُدعى إلا الله، ولا يستغاث إلا بالله، ولا يذبح إلا لله، ولا يُصرف شيء من العبادة إلا لله سبحانه وتعالى؛ فكما أن ربنا عَزَّ وَجَلَّ تفرد بخلق الخلق فالواجب أن يُفرد وحده سبحانه وتعالى بالعبادة فلا يُجعل معه شرك لا ملَك مقرب ولا نبي مرسل فضلًا عن غيرهما ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن: ١٨].

قال: «**ومن دعا النَّاس إلى عبادة نفسه**»: من دعا النَّاس إلى عبادة نفسه فهو طاغوت، حتّى وإن لم يُعبد، حتّى وإن لم يعبده ولا واحد من النَّاس فهو طاغوت؛ طالما يدعو النَّاس إلى عبادة نفسه ويريد منهم أن يعبدوه أو يصرفوا له شيئًا من العبادة أو يعطوه شيئًا من حقوق الله أو خصائصه فهو طاغوت، حتّى وإن لم يقبلوا منه، حتّى وإن لم يجد من لم يقبل منه ذلك فهو من الطواغيت، مثل أن يدَّعي للنَّاس أنه يعلم الغيب هذا طاغوت حتّى وإن لم يصدقه أحد، وكذلك من يريد من النَّاس أن يعبدوه أو يعلِّقوا حاجاتهم به أو يريد أن تصرف له أشياء من حقوق الله وخصائصه هذا من الطواغيت حتّى وإن لم يقبل منه أحد.

قال: «**ومن ادعى شيئًا من علم الغيب**» أيضًا فهو من الطواغيت؛ مثل

السحرة والكهنة والمشعوذين والمنجِّمين والرمَّالين ومن يزعمون القراءة في الكف إلى آخره، كل من ادَّعى علم الغيب فهو من الطواغيت ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. فعلم الغيب أمرٌ اختص الله سبحانه وتعالى به، فمن ادَّعى ذلك لنفسه فهو من الطواغيت؛ لأنَّ هذا من تجاوز العبد للحد، فعلم الغيب لله، فإذا ادّعاه أحد النَّاس أو أحد المخلوقين لنفسه يكون بذلك طاغوتـًا لأنَّه تجاوز بذلك الحد.

قال: «**ومن حكم بغير ما أنزل الله**» أي ترك أحكام الله وشرعه وتنزيله وسنَّ في النَّاس أحكامًا وقوانين وضعية من وضع البشر فنبذ حكم الله جَلَّ وَعَلَا واستبدل به أحكام البشر وقوانينهم قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].

لما ذكر هذه الرؤوس الخمسة للطواغيت ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدَّليل على أن الإيمان والتمسك بالدّين حقـًا وصدقـًا لا يكون إلا بالكفر بالطاغوت مع الإيمان بالله سبحانه وتعالى، قال: «**والدَّليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]**».

قوله: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ أي لا تكرهوا أحداً عليه؛ لأنَّه استبان أمره واتضح وظهر وبان، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يُكره أحدٌ عليه.

وقيل: إن هذه الآية كانت في ابتداء الأمر ثمّ نُسخت بالآيات الّتي فيها الأمر بالقتال.

قال: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾؛ تبين الرشد من الغي: أي تميز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدى من الضلال؛ أي بالآيات البينات والحجج الواضحات والدلائل الساطعات الّتي جاء بها الرَّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ أي: أخذ وتعلق بالمعتصَم الّذي لا ينفصم ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ ﴾ أي اعتصم بالمعتصَم الّذي من تمسك به نجا ومن لم يتمسك به هلك.

وهذا فيه أنه لا نجاة ولا عصمة لأحد ولا سلامة إلا بهذين الأمرين: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

قال: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾

ومعنى استمسك بالعروة الوثقى: أي استمسك بـ«لا إله إلا الله»، فلا إله إلا الله هي العروة الوثقى، ولا يكون العبد من أهل «لا إله إلا الله» إلا بتحقيق ما دلت عليه هذه الكلمة العظيمة من النفي والإثبات، والنفي هو

الكفر بالطاغوت، والإثبات هو الإيمان بالله؛ وبهما يكون العبد من أهل «لا إله إلا الله» حقاً وصدقاً، أما بمجرد النطق لهذه الكلمة دون تحقيق ما دلت عليه من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فإن الإنسان لا يكون بمجرد ذلك من أهل هذه الكلمة العظيمة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى - وهذا تقعيدٌ نافع وتأصيلٌ مفيد - يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَكُلُّ حُكْمٍ عُلِّقَ بِأَسْمَاءِ الدِّينِ مِنْ إِسْلَامٍ وَإِيمَانٍ.. إِنَّمَا يَثْبُتُ لِمَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الْمُوجِبَةِ لِذَلِكَ»(١)؛ أي أن مجرد الادِّعاء أو مجرد الانتماء بدون تحقيق الاتصاف بما يقتضيه ويوجبه لا يكون من أهل ذلك الوصف، فلو قال: إني مسلم ولا يستسلم! أو قال إني مؤمن ولا يقر ولا يصدق! أو غير ذلك لا يكون من أهل هذه الألفاظ وان ادَّعاها لنفسه، فإذاً ليست العبرة بالدعاوى وإنَّما العبرة بالحقائق.

ثمّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفي الحديث: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصَّلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**».

«**رأس الأمر الإسلام**» أي: توحيد الله سبحانه وتعالى وتحقيق الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن ومحمَّداً رسول الله، فهذا هو رأس الأمر.

والأمر كله يُبنى على هذا الرأس وعلى هذا الأساس، فإذا لم يكن هذا

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٢٧).

الأساس قائماً لا يُستفاد كما تقدم من صلاة ولا من غيرها من الأعمال، فلابد من إقامة الدّين على هذا الأصل العظيم والأساس المتين.

قال: «**وعموده الصَّلاة**» وهذا فيه بيان مكانة الصَّلاة من الدّين وأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وجعلها بمكانة عليّة من الدّين بحيث إنها للدين بمثابة العمود للخيمة، ومن المعلوم أن العمود الّذي تقوم عليه الخيمة إذا نُزع سقطت ولم تقم لها قائمة، لا تقوم الخيمة إلا بعمودها، وهذا فيه دلالة على كفر تارك الصَّلاة، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[(١)]، ففيه دلالة على كفر تارك الصَّلاة، لأنَّ الصَّلاة للدين بمثابة العمود للبنيان أو العمود للخيام، فكما أن البناء أو الخيمة لا تقوم إلا على عمود فكذلك الإسلام لا يقوم إلا على هذا العماد.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وعموده الصَّلاة» ومن لم يصلِّ لا حظ له في الإسلام، وأخذاً من هذا الحديث وغيره قال أهل العلم: «من أراد أن يعرف حظه من الإسلام فلينظر إلى حظه من الصَّلاة»، فالصَّلاة ميزان يستطيع الإنسان أن يعرف من خلالها حظه من الإسلام، والإسلام يزيد وينقص ويقوى ويضعف، وإذا أردت أن تعرف الميزان في ذلك فعندك ميزانٌ ومحكٌ دقيق

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢١)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٦٤).

وهو الصَّلاة، يستطيع الإنسان يزن نفسه من خلال الصَّلاة واهتمامه بها، ومن المعلوم أن النَّاس يتفاوتون في أمر الصَّلاة تفاوتـًا عظيمـًا.

قال: «**وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**» ذروة الشيء: أعلاه وأرفع شيء فيه، وسمي سنام البعير سنامـًا لارتفاعه وعلوه ولأنَّه أعلى شيء في البعير وأرفعه.

وعدّ النَّبيّ ﷺ الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام لأنَّ الجهاد له في الدّين المكانة العليّة والمنزلة الرفيعة.

والنصوص في فضل الجهاد ومكانته وعظيم ثواب أهله عند الله سبحانه وتعالى كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى، والمراد بالجهاد: أي الجهاد الشرعي المبني على أسسٍ قويمة وقواعد مستقيمة مستمدة من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ، أما الاعتداء والظلم والبغي والخروج على ولاة الأمر ونحو ذلك مما يسميه بعض النَّاس جهاداً هذا ليس من الجهاد في شيء، وفاعله لا يؤجر بل يؤزر، ولا يكون من المجاهدين؛ لأنَّ الجهاد أمرٌ شرعي جاء بيانه في الكتاب والسنة، فلا يُفعل إلا في ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، أما أن يركب الإنسان رأسه ويحمل سيفه أو سلاحه ويمضي قتلاً وظلمـًا وعدوانـًا بغير بينةٍ ولا معتمدٍ ولا مستمدٍ من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه فليس فعله جهاداً ولا هو

أيضـًا من المجاهدين في سبيل الله[1].

وبهذا يكون المصنّف رحمه الله تعالى أنهى هذه الرِّسالة العظيمة المباركة وختم هذه النبذة الطيبة بقوله «والله أعلم» بردِّ العلم إلى الله سبحانه وتعالى الّذي أحاط بكل شيءٍ علمـًا، وأحصى كل شيءٍ عدداً، ووسع كل شيءٍ علمـًا؛ فردَّ العلم إلى عالمه، ثمّ ختم بالصَّلاة والسلام على نبيّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

ونسأل الله عَزَّ وَجَلَّ العظيم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجزي هذا الإمام وغيره من علماء المسلمين وأئمة الدّين عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء، وأن يرفع درجاتهم في عليين، وأن يغفر لنا ولهم أجمعين. وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبيّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلام نافع حول هذا المعنى: «يجب أن يعرف الجهاد الشرعي الذي أمر الله به ورسوله من الجهاد البدعي جهاد أهل الضلال الذين يجاهدون في طاعة الشيطان وهم يظنون أنهم يجاهدون في طاعة الرحمن كجهاد أهل البدع والأهواء كالخوارج ونحوهم »«الرد على الأخنائي» (ص ٢٠٥)، وانظر مبحث: (خطر الانحراف في الجهاد) لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في كتابه: «القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد» (ص٤٩).

ISBN 978-9931-616-40-5
9789931616405